علوم القرآن الكريم

إعداد:

د. سامي عطا حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، والصلاة والسلام على رافع لواء الهدى سيدنا محمد – ﷺ– وعلى آله وصحبه والداعين بدعوته إلى يوم الدين

وبعد :– فليس في تاريخ الإنسانية كتاب كان له من التأثير في التاريخ والفكر الإنساني مثل ما كان للقرآن ، بل يمكن القول إنه ليس في تاريخ الإنسانية عمل ظل حاضرا بنفس القوة والتأثير عبر العصور اللاحقة كنزول القرآن ، فهو خطاب متجدد مستمر الفعالية ، حاضر بثقله الكبير في كل منعطفات التاريخ الإسلامي ، موجها وهاديا للمسلمين ، ومجددا لانبعاثهم ، ومعبئا لطاقاتهم ، ومستقطبا للبحث والتفكير في ثقافة الإسلام بشكل لا يماثله فيه نص آخر . وقد نزل القرآن بين أقوام فيهم اليهود، والنصارى، والصابئة ، وفيهم أيضا من كل نحلة أو عقيدة من عقائد الشرق القديمة ، فخاطبهم القرآن جميعا ، وكان يورد معتقداتهم ليرد عليها ، ويكشف زيفها أو تحريفها ،أو تهافتها وبطلانها ، فكان بالموضع الذي يشد اليه كل جماعة ، ويلفت نظر كل طائفة، ومذهب، وعقيدة ، فلم يكن من الممكن أن يثبت أمام كل هذه الطوائف، والمذاهب، والعقائد، إلا بتواتر كامل في نصه ، الى الحد الذي لا يستطيع أحد أن يأخذ عليه أي مأخذ في هذا المجال . لقد أحيط القرآن باهتمام فائق من المؤمنين به ، فكان حفظه بالنسبة إليهم بمثابة حفر في الذاكرة والقلب ، فكل حرف من حروفه ، ولفظ من ألفاظه، هو موضع الحجة والحكم ، ومناط الاستنباط والاستدلال ،وظل القرآن محفوظا رغم ما عرفه تاريخ الإسلام من فتن وانقسامات وحروب مذهبية ، اجترأ الناس أثناءها على وضع الأحاديث ، والكذب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لتأييد نحلهم ومذاهبهم ، بينما لم يستطيعوا فعل شيء من ذلك في النص القرآني، لقد نهضت الأمة الإسلامية بحفظ القرآن ، وحرصت على جعله صوتا مسموعا في كل لحظة من لحظات الزمان الإسلامي ، وفي كل زاوية من زوايا الفضاء المكاني ، يتردد بكل جهارة بين عامة الناس وخاصتهم . وتبعا لهذا الجهد الذي قام به المسلمون كافة في كل عصر ومصر ، فقد حاول علماؤهم ، تحليل كل الجوانب التي تفسر هذا الحدث العظيم ، ولا نجد قرنا من الزمان منذ نزول القرآن والى يومنا هذا ، قد خلا من مصنفات قيمة دبجتها أقلام أعلام المسلمين ، خدمة لكتاب الله تبارك وتعالى ، تنوعت وتشكلت على حسب الظروف ، والتخصصات ، والمقدرة العلمية لكل عالم ، فكشف لهم القرآن وهم يبحثون في علومه المختلفة ووجوه إعجازه ، عن بحار ليس لها ساحل ، ووجدوا أنفسهم قد خاضوا في لجج ليس لها قعر ، وكل عاد بلؤلؤة كريمة ، أو عقد نظيم ، وبقيت ثمة خزائن تفوق الحصر ، ومفتاحها تدبره والنظر فيه..... ودلوت بدلوي ، فاخترت بعض المباحث التي رأيت أنها ألصق بهذا العلم ، واجتهدت في تحرير مسائلها في عبارات مبسطة واضحة

المعاني ، بعيدة عن الحشو والتطويل ، ونظمتها في هذا العقد الذي سميته –العقد النظيم في علوم القرآن العظيم– سائلا المولى– عز وجل– أن يلهمني السداد في القول ، والنجاح في العمل ، وأن يجنبني الزلل ، وسوء القصد ، وأن يجعل أقوالنا وأعمالنا وأبحاثنا خالصة لوجهه، وأن ينفع بها ،انه خير مأمول وأكرم مسئول..

إعداد: : د. سامي عطا

معنى علوم القرآن

جملة علوم القرآن : مركب إضافي[1] مؤلف من كلمتين ، أضيفت الأولى إلى الثانية ، فلزمت الثانية الجر بالإضافة، وهو النوع الثاني من جر الأسماء، والنوع الأول هو الجر بحروف الجر [2] . ولكل مركب إضافي أو غير إضافي معنىً قبل أن يسمى به الشيء، وآخر بعد أن يسمى به ، فقبل أن يسمى به يكون لكل من جزءي المركب معنى يخصه، ولانضمام كل من الجزءين إلى الآخر معنى يخصه كذلك ... فإن الجزء الأول من هذا المركب الإضافي وهو :علوم –جمع علم –، وللعلم معنى في لغة العرب عام ، ومعنى آخر أخص منه ، هو : المتعارف بين الناس اليوم ، والذي هو واحد العلوم ، وأما المعنى الأول وهو ما يفيده لفظ العلم في لغة العرب ، فهو كما **يقول الراغب :** (العلم : هو إدراك الشيء بحقيقته. وذلك ضربان : أحدها إدراك ذات الشيء .... والثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شي هو منفي عنه) [3].

والمقصود بهذا المركب الإضافي – علوم القرآن – هو: جميع العلوم والمعارف المتصلة بكتاب الله تعالى ، والتي تعين على فهم معانيه ومقاصده ، وما يتصل به من قريب أو بعيد ، ومن ثم جمع لفظ –علوم – ولم يفرد ، لأن المراد شمول كل علم يبحث في القرآن الكريم من أي ناحية من نواحيه المتعددة ، مثل :علم التفسير والقراءات ، والرسم العثماني ، والناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، وغيرها من العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم .

---

[1] – المركب :– كل لفظ كان في أصله مكونا من شيئين ثم صار شيئا واحدا ، ويتنوع المركب بحسب مكوناته الى أربعة أنواع :–

–مركب إسنادي :– وهو المنقول من جملة أصلها فعلية أو اسمية مثل : جاد المولى ، وتأبط شرا

–مركب مزجي :– وهو كل اسمين جعلا اسما واحدا ، نحو : بعلبك ، حضرموت ، سيبويه .

–مركب إضافي :– وهو كل اسمين جعلا اسما واحدا ، نحو : عبد الرحمن ، أبو خالد .

مركب عددي :– وهو من المركب المزجي غالبا ، وان كان يرى فيه آخرون أنه ليس منه وأنه يغايره نحو : خمسة عشر ، وسبع عشرة .. انظر : المصطلحات النحوية –د. محمد سمير نجيب اللبدي –ص 94–95.

[2] – اختص الاسم بنوعين من الجر لعدم دخوله على الأفعال ، كما اختص الفعل المضارع بنوعين من الجزم وهما : الجزم بأدوات الجزم ، والجزم في جواب الطلب ، لعدم دخول الجزم على الأسماء

[3] – مفردات الراغب الأصفهاني مادة –علم– .

معنى القرآن الكريم لغة وشرعا

المعنى اللغوي للقرآن الكريم:-

اجتهد العلماء في بيان أصل هذه الكلمة(قرآن) على أقوال ، وبيانها فيما يأتي :-

أولها :- ما ذهب إليه الشافعي – رضي الله عنه- أن لفظ القرآن المعرف بأل ليس مهموزا ، ولا مشتقا، بل وضع علما على الكلام المنزل على النبي المرسل – ﷺ-. ويقول : القرآن : اسم ، وليس بمهموز ، ولم يؤخذ من [قرأت] لأنه لو أخذ منه لكان كل ما قرىء قرآنا ، ولكنه اسم لكتاب الله تعالى مثل : التوراة ، والإنجيل [1]..

ثانيها :- ما نقل عن أبي الحسن الأشعري أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء ، إذا ضممته إليه ، ثم جعل علما على اللفظ المنزل ، وسمي بذلك لقران السور، والآيات ، والحروف ، بعضها الى بعض. [2]

ثالثها :- ذهب الفراء الى أنه مشتق من القرائن ، لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضا ويشبه بعضها بعضا، وجعل علما على اللفظ المنزل لذلك ..

رابعها :- قال الزجاج واللحياني : هو وصف على فعلان ، مهموز، مشتق من القرء بمعنى الجمع ، ومنه قرأت الماء في الحوض إذا جمعته ، وسمي الكلام المنزل على النبي المرسل به ، لأنه جمع السور ، أو جمع ثمرات الكتب السابقة .

والحق من هذه الأقوال ما ذهب إليه الزجاج ، واللحياني ، من أنه مهموز ، وصف أو مصدر وأما ترك الهمز فيه في بعض القراءات [3] ، فهو من باب التخفيف ، وجعل علما شخصيا[4] ، يطلق على مجموع الكلام المنزل على محمد – صلى الله عليه وسلم – المبدوء بسورة الحمد ، والمختوم بسورة الناس ، وعلى أجزائه.[5]

المعنى الشرعي للقرآن

عرف العلماء القرآن شرعا بأنه (القول المنزل على النبي محمد – ﷺ- المعجز بأقصر سورة منه ، المتعبد بتلاوته

---

[1] – مناقب الشافعي : 1: 277.

[2] – البرهان في علوم القرآن : للزركشي : 1: 278.

[3] – انظر : شرح طيبة النشر : للنويري : 2: 321-322.

[4] – العلم الشخصي : هو ما خصص في أصل وضعه بفرد معين ، فلا يتناول غيره من أفراد جنسه وذلك نحو : محمد ، علي ، فاطمة ،وهذا النوع من العلم يقابل علم الجنس الذي يتناول الجنس كله دون تعيين واحد بعينه –معجم المصطلحات النحوية ص113.

[5] – منهج الفرقان في علوم القرآن : محمد علي سلامة : 7-9.

، المنقول إلينا بين دفتي المصحف نقلا متواترا)[1]

وقولهم في هذا التعريف (المنزل) : خرج به الأقوال غير المنزلة كأحاديثه – عليه الصلاة والسلام – تكون ألفاظها غير منزلة عليه ، وان كانت معاني بعض تلك الأحاديث منزلة ، فان العبرة هنا بالألفاظ لا بالمعاني . كما تخرج الأحاديث القدسية على القول بأن ألفاظها ليست منزلة من عند الله تعالى، بل هي من عند محمد – صلى الله عليه وسلم –وإنما المنزل معانيها فحسب ، وهو ما اختاره الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز في كتاب (النبأ العظيم) [2]

وقولهم في هذا التعريف (على محمد –صلى الله عليه وسلم–) : خرج به ما أنزل على الأنبياء من قبله :: كالتوراة المنزلة على موسى ، وكصحف إبراهيم ، وموسى ، والزبور المنزل على داود ، والإنجيل المنزل على عيسى –على نبينا وعليهم الصلاة والسلام– **وقولهم : (المعجز بسورة منه) :** خرج به ما هو منزل على محمد –صلى الله عليه وسلم– غير معجز كالأحاديث القدسية ، على القول بأن ألفاظها منزلة على النبي –صلى الله عليه وسلم– كمعانيها.. وهو قول الجمهور .

وقولهم في التعريف (المنقول إلينا بين دفتي المصحف نقلا متواترا) : خرج به جمع ما عدا القرآن من منسوخ التلاوة ، والقراءات غير المتواترة ، سواء نقلت بطريق الشهرة ، أو بطريق الآحاد ، فإن هذا لا يسمى قرآنا ، ولا يأخذ حكمه .

كلمة القرآن عربية

يرى بعض المستشرقين مثل – برجشتراسر– أن كلمة – قرآن– أخذها العرب عن الآراميين، وتداولوها ، اذ وردت القراءة في الآرامية بمعنى التلاوة ، وقال : (ان اللغات الآرامية والحبشية ، والفارسية ، تركت في اللغة العربية آثارا لا تنكر ، لأنها كانت لغات الأقوام المتمدينة المجاورة للعرب في القرون السابقة على الهجرة)[3] ..ويؤكد **الدكتور صبحي الصالح** هذا الرأي فيقول : (أما قرأ بمعنى – تلا– فقد أخذها العرب من أصل آرامي وتداولوها .... ثم يقول : ان تداول العرب قبل الاسلام للفظ – قرأ– الآرامي الأصل بمعنى – تلا– كان كافيا لتعريبه ، واستعمال الاسلام له في تسمية كتابه الكريم)[4] ...وقريب من هذا الرأي رأي الدكتور **طه حسين** حيث قال :– (ان القرآن ليس شعرا ولا نثرا ولكنه قرآن ، وأصله بالسريانية : الجهر ، أي: يتلى جهرا ، أو أنه كتاب يجهر به ، وظهر بعد أن كان في طي الخفاء) [5] وقال بذلك كل من

---

[1] – منة المنان في علوم القرآن : إبراهيم عبد الرحمن خليفة : ص10

[2] – النبأ العظيم : محمد عبد الله دراز : ص 10–11.

[3] – مباحث في علوم القرآن – د. صبحي الصالح – ص20.

[4] – المرجع السابق نفسه –ص 20.

[5] – انظر مقال – كلمة قرآن – لمحمد طه الحاجري – المنشور بمجلة الرسالة القاهرية عام 1963م.

من المستشرقين– **شواللي**– **و**– **فلهاوزن**– ، وعارضا مع غيرهما عروبة كلمة – قرآن– . **وقالا:** ان هذه الكلمة مأخوذة من كلمة – قرياني – السريانية ، وهي بمعنى القراءة أو المقروء ، ويقوي هذا الفرض لديهما ، مقاربة الكلمة السريانية للكلمة العربية في الصيغة . ...ونرى مع الدكتور **محمد طه الحاجري** أن انكار المستشرقين ومن شايعهم لعروبة كلمة قرآن ، وردها الى الآرامية أو السريانية ، إنما يرجع الى مزاعمهم في القرآن انه يصدر عن أصول أجنبية كالتوراة ، والإنجيل ، ومن هنا لا يرون بأسا في أن يكون القرآن قد استعار عنوانه أيضا من هذه المصادر ، أو من اللغة التي كتبت بها . وحجتهم في ذلك عدم ورود مادة – قرآن– و –قراءة– في نص جاهلي !

ونعتقد أن هذه الحجة لا تنهض دليلا على صواب هذا الرأي ، فالثابت عند علماء اللغة العربية ، أن لغة العرب لم تنته الينا بحذافيرها وانما الذي جاءنا من العرب غيض من فيض ، وقد ذهب كثير من الكلام شعرا ونثرا بذهاب أهله .. وفي ذلك يقول ابن فارس :– (ذهب علماؤها أو أكثرهم ، الا أن الذي انتهى الينا من كلام العرب هو الأقل ، ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير)[1] بل تدل النصوص الجاهلية نفسها على أن الكتابة كانت أمرا معروفا شائعا عند العرب في جاهليتهم ، كما كانت الأمية شائعة منتشرة ، وأن عدد الكاتبين كان كبيرا كما كان عدد الأميين كبيرا كذلك .[2] ولم يتخذ العرب الكتابة في الوثائق التجارية فحسب ، بل في توثيق عقود المحالفات بين القبائل نفسها، كحلف خزاعة [3] وورقة قريش[4] وغيرها ، وقصة –صحيفة المتلمس– [5] أشهر من أن تروى .

---

[1] – الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها – لابن فارس – ص34طبع المكتبة السلفية بالقاهرة عام 1910م.

[2] – انظر مصادر الشعر الجاهلي – د. ناصر الدين الأسد ص 59–77 .

[3] – المرجع السابق ص 66 .

[4] – سيرة ابن هشام ج1/ ص 375– 376 .

[5] – المُتَلَمِّس :– رجل من العرب اسمه – عبد المسيح بن جرير– ، وفد هو وابن اخته الشاعر طرفة بن العبد على صاحب الحيرة : عمرو بن المنذر ، فبقيا مدة لا يصلان اليه ، وكأنه استخف بهما ، فهجاه طرفة ، فبلغه ذلك فهم بقتله ، لكنه خاف هجاء المتلمس فقال لهما : لعلكما اشتقتما لأهلكما ..؟ قالا : نعم ، فكتب لهما صحيفتين وقال : اذهبا الى عاملي بالبحرين فقد أمرته أن يصلكما ، وكان في الصحيفتين الأمر بقتلهما ..... فأما طرفة : فمضى الى العامل فقتله ، وأما المتلمس : فانه اشتبه بأمر الصحيفة ، فرأى غلمانا يلعبون على مقربة من نهر الحيرة ، فأعطاها الى صبي فقرأها له فنجا بنفسه ، وحاول أن يثني طرفة عن الذهاب الى العامل فأبى ..فذهب اليه فقتله ، فصار أمر صحيفته مضروبا في الحذر والأخذ بالحزم .... انظر مجمع البحرين – ناصيف اليازجي– – المقامة الأزهرية – ص 77 .

ومن النصوص التي لا يرقى اليها الشك في أن العرب في جاهليتهم لم يكونوا غرباء عن القراءة والكتابة ، وأنهم كانوا يعرفون مادة – قرأ– بمعنى التلاوة ، خبر نزول الوحي على النبي – ﷺ– ، فقد أجمعت المصادر على أن أول ما بدىء به الرسول – ﷺ– من الوحي ، هو الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت كفلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلوة والانفراد بغار حراء ، فكان يخلو به الليالي ذوات العدد، حتى جاءه الملك جبريل – عليه السلام – فقال اقرأ قال : ما أنا بقارىء يعني لا أعرف القراءة . [1] ، وان قالوا : (ان العرب في الجاهلية حين عرفوا لفظ – قرأ– استخدموه بمعنى غيرمعنى التلاوة ، فكانوا يقولون : هذه الناقة لم تقرأ سلى قط [2] ، يقصدون : أنها لم تحمل ملقوحا ، ولم تلد ولدا ، ومنه قول : عمرو بن كلثوم :

ذراعي عَيْطَلٍ أدماء بكر ------- هجان اللون لم تقرأ جنينا [3]

نقول : ان القراءة كلمة عربية أصيلة ، وهي مصدر من فعل – قرأ– ، بمعنى – تلا– ، أو : جمع الشيء بعضه الى بعض ، وأوضح مثل على ذلك قوله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه)(القيامة : 16–18) ، وواضح أن كلمة – قرآنه – الأولى في الآيات السابقة تعني : جمعه وضم بعضه الى بعضه الآخر ، والثانية تعني : قراءته كما أنزل عليك ، وهذا قول معظم المفسرين الذين شرحوا هذه الآيات [4] . ومنه قول حسان بن ثابت يرثي عثمان بن عفان – رضي الله عنه –

ضحوا بأشمط عنوان السجود به --------يقطع الليل تسبيحا وقرآنا [5]

أي : قراءة . فالقول بأن القرآن استعار مادة القراءة من الآرامية أو السريانية ، بزعم عدم العثور على هذه المادة في النصوص الجاهلية التي بين أيدينا ، افتراض بعيد عن الصواب . .. وسواء أكانت هذه الكلمة عربية الأصل – وهي عربية كمابينتها معاجم اللغة – أم كانت من أصل غير عربي – كما يقول المستشرقون ومن دار في فلكهم– فان الكلمة عرفها العرب واستعملوها ، وا شتقها الكتاب الكريم من كلمة – القراءة – العربية الأصل ، وكثيرا ما يأتي المفعول في لغة العرب

---

[1] – صحيح البخاري : بدء الوحي : 1: 7.

[2] – مباحث في علوم القرآن : د. صبحي الصالح : ص 19

[3] – لسان العرب : 1: 126.

[4] – التفسير الوسيط – لشيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي – مجلد 15/ص202.

[5] – ديوان حسان بن ثابت: 216.

بلفظ المصدر، أو الفاعل ، تقول العرب : سر كاتم أي : مكتوم ، ومكان عامر أي: معمور ، فكلمة – القرآن– من قبيل تسمية المفعول بالمصدر .

وقد لا يكون هذا الاشتقاق شائعا في اللغة مثل غيره من الصيغ ، ولكنه في حقيقة الأمر متسق الحروف منغوم النبرة ، ليس أجدر منه أن يكون اسما وعنوانا وعلما على ذلك الكتاب المعجز الخالد المنزل على النبي محمد – ﷺ– فالقرآن كلمة عربية ، أومصطلح قرآني جديد – على حد قول الدكتور عودة خليل أبوعودة– حيث أن العرب لم يعرفوا القرآن بهذا المعنى الذي حدده القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم كان يستعمل الكلمة في معنى معين ، فتصبح علما على ذلك المعنى ، وبالتالي تصبح مصطلحا يشيع عند الناس ، مثال ذلك : البيت العتيق مصطلحا وعلما على البيت الحرام ،والمسجد الأقصى ، وغيرها ، ومعلوم أن البيوت والمساجد كثيرة ، ولكن استعمال القرآن الكريم ، جعل من هذه الكلمات أعلاما على مسمياتها [1]

هل في القرآن ألفاظ غير عربية....؟

من المقطوع به أن القرآن نزل بلسان العرب ، وأنه كتاب عربي ، نزل على أمة عربية بلسان عربي مبين ، ليكون منهاج حياة ، ودستورا لهم ولمن آمن به ، وقد سجل القرآن الكريم في آياته نزوله باللغة العربية– احدى عشرة مرة –في عشر سور من سوره وهي :– يوسف ، والرعد ، والنحل ، وطه ، والشعراء ، والزمر ، وفصلت –في مكانين منها – ، والشورى ، والزخرف ، والاحقاف . وكان منها قوله تعالى : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) (الشعراء: 193–194). وقوله تعالى :–(ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)(النحل : 103) وقوله تعالى :–(وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) (الأحقاف: 12) .

والعلماء متفقون على أمرين هما :–

أولا :– انه ليس في القرآن الكريم مركب على غير أساليب العرب ، وهذا مصداق وصف الله تعالى للقرآن بالعربية الوارد في النصوص السابقة .

---

[1] – التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن – د. عودة خليل أبو عودة ص 491–492

ثانيا :- إن القرآن ا شتمل على أعلام من غير اللسان العربي مثل : آدم ، آزر، إدريس، إسرائيل ، إلياس ، وغيرها، ولكنهم اختلفوا في وقوع ألفاظ مفردة وليست أعلاما من غير كلام العرب في القرآن الكريم على ثلاثة مذاهب :-

المذهب الأول :-

مذهب الجمهور - ومنهم الامام الشافعي [1] ، والامام ابن جرير الطبري [2] ،وأبوعبيد ، والقاضي أبو بكر بن الطيب [3] - وقد ذهبوا الىأنه لا يوجد في القرآن شيء من غير لغة العرب ، وأنه كله بأساليب ومفردات عربية لا شبهة للعجمة فيه ، وما يوجد فيه من المفردات التي يظن أنها من اللغات الأعجمية ، فهي مما تواردت عليه اللغات ، فتكلم بها غير العرب كما تكلم به العرب واستدلوا لذلك بأدلة منها :-

1-الآيات القرآنية الكريمة التي أثبتت أن القرآن عربي كله ، مثل قوله تعالى :- (إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) (يوسف : 2) وقوله تعالى :- (لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين)(الشعراء: 195)

وقوله سبحانه :- (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون)(فصلت: 3)

وتكرر لفظ - قرآنا عربيا - في آيات عديدة . ومعلوم أن لفظ القرآن عام يشمل جميع السور والآيات ، ويشمل كل الألفاظ والمفردات ، قال تعالى :- (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي ..)(فصلت : 44)

2- ان الله تعالى قد رد على المشركين حين زعموا أن محمدا - ﷺ- تلقى هذا القرآن عن بعض أهل الكتاب،وهو فتى رومي يقال له- جبر- وأقام الله الحجة عليهم باختلاف اللسانين ، قال تعالى :-(لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)(النحل: 103) فالقرآن عربي ،ولسان ذلك أعجمي ، وشتان ما بينهما.

3- لو كان في القرآن شيء ليس من لغة العرب ، أو ألفاظ أعجمية ، لأعلن المشركون اعتراضهم على القرآن ، واحتجوا بذلك على صدق الرسول - ﷺ-.

---

[1] - الرسالة : للإمام الشافعي: 41-43.

[2] - تفسير الطبري: 1: 7-8.

[3] - المعرب - للجواليقي ص4 .وانظر المستصفى للغزالي ج1/ص105-106 .

4- ان لغات العرب كثيرة ، والقرآن نزل بها ، فإذا وجد في القرآن لفظ لا يعرفه عربي من قبيلة من القبائل ، فان هذا اللفظ لا بد وأن يعرفه عربي آخر من قبيلة أخرى . قال الامام الشافعي :- (ولا يحيط باللغة الا نبي)[1] .

5- ان ما وجد في القرآن من ألفاظ تنسب الى سائر اللغات ، فانما هو من باب توارد اللغات واتفاقها ، ولا يعني كلام غير العرب بها أنها غير عربية ، فان كلام غير العرب بها لا يخرجها عن كونها عربية .

وقد شدد الامام الشافعي النكير على القائل بوقوع المعرب في القرآن [2].

المذهب الثاني :- وهو مذهب طائفة من العلماء منهم : -الإمام السيوطي - حيث قال : -(إن في القرآن بعض ألفاظ ليست عربية ، وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تخرج القرآن عن كونه عربيا مبينا ، ولا تخرج رسول الله - ﷺ- عن كونه متكلما بلسان قومه ، لأن عربية الأسلوب جميعه ، وعربية الكثرة الساحقة من المفردات التي تتلاشى فيها هذه القلة ، مما يكفي لتحقيق اتصافه بأنه عربي . وقد احتجوا لذلك بأن القصيدة الفارسية لا تخرج عن الفارسية بلفظة فيها عربية . وبما ورد عن بعض الصحابة والتابعين حينما سئلوا عن بعض ألفاظ القرآن قالوا :- إنها من الحبشية أو الفارسية ، وباتفاق النحاة على منع صرف - إبراهيم - للعلمية والعجمة ، وإذا اتفق على وقوع الأعلام فلا مانع من وقوع الأجناس.

وقال السيوطي : (وأ قوى ما رأيته للوقوع - وهو اختياري- ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح الى ميسرة التابعي الجليل قال:(في القرآن من كل لسان) [3]. وروي مثله عن سعيد بن جبير ، ووهب بن منبه ، فهذا اشارة الى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين ، ونبأ كل شيء ، فلأن يقع فيه الاشارة الى أنواع اللغات والألسن ليتم احاطته بكل شيء ، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا للعرب ، وقد صرح - ابن النقيب - بذلك فقال :- من خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزلة ، أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم ، لم ينزل منها شيء بلغة غيرهم ، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب ، ونزل فيه بلغات غيرهم من الفرس والروم والحبشة شيء كثير .)[4] وأيضا فالنبي - ﷺ- مرسل لكل أمة ، قال تعالى :- (ومأأرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ...)(ابراهيم : 4) ، فلا بد وأن يكون في كتاب المبعوث به من لسان كل قوم ، وان كان أصله بلغة قومه هو ، وأجابوا عن قوله تعالى : (أأعجمي وعربي) بأن المعنى من السياق : أكلام أعجمي ومخاطب عربي ؟ [5] وقد مال الى هذا المذهب -الشيخ الدكتور

---

[1] - الإتقان : 2: 106.

[2] - المرجع السابق : 2: 105.

[3] - المرجع السابق:2: 106.

[4] - الإتقان : 2: 106.

[5] - المرجع السابق : 2: 106.

أحمد حجازي السقا- في كتابه – اعجاز القرآن – وأيده بقوله :- ان في القرآن الكريم ألفاظا غير عربية ، أوحاها الله الى نبيه – صلى الله عليه وسلم- **والغرض منها :**

1- أنها تدل على معان بحسب أصل وضعها في غير اللغة العربية ، مثل لفظ – سجيل- في قوله تعالى :- (ترميهم بحجارة من سجيل)(الفيل: 4) ، فانه لفظ فارسي ، يعني في لغة الفرس :من شديد عذابه ، أي: أن أصحاب الفيل رُموا بحجارة من عذاب شديد ، أعده الله لهذا الصنف من الجاحدين ، مثلهم في ذلك مثل قرية قوم لوط ، قال تعالى :- (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك ..الآية)(هود: 82-83) ، وليس للكافرين نوع واحد من العذاب ، لأن دركات الكفر ليست واحدة ، فكأن الرسول – ﷺ- وهو أمي قد ميز أنواع الكفر وأنواع العذاب . إنها لا تدل على معان بحسب أصل وضعها في غير العربية كالأسماء مثلا ، فإنها لا تعلل مثل – عيسى- ، وقد اخترت اسم – عيسى – بالذات هنا ، لأن – عيسى- لا يسمي به في العرب ، ولا يعرف فيما بينهم ، فمعرفة الرسول له تدل على أن الله هو الذي يوحى اليه ، ان – عيسى – اسم يوناني ، واليهود في المدينة ينطقونه – يشوع- أو – يهوشوع- ، ونصارى نجران وغيرهم في العرب ينطقونه – يسوع- أو – ايسوع- .وقد كانت اللغات الشائعة في عصر النبي – ﷺ- وقبل عصره – في علمنا- :- العبرية الحديثة من زمن بابل ، والقديمة التي لم تتغير عن أصلها الأول ، والسريانية التي هي لهجة من الآرامية ، والفارسية ، واليونانية ، والحبشية ، والقبطية وفي القرآن ألفاظ من هذه اللغات ، من العبرية ، والسريانية، والفارسية، واليونانية ، والحبشية ، والقبطية ، وهذا يعني أن الرسول – ﷺ- دارس لهذه اللغات حتى يستطيع أن يتخير اللفظ المناسب من كل لغة ، ويضعه على المعنى المناسب له ، ولم يكن الرسول دارسا ، لأنه نشأ في بيئة أمية ، لا تعرف من علوم الديانات شيئا، ولا من علوم الحضارة ، فثبت أن القرآن كلام الله ووحي الله ، قال تعالى :- (وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون)(الأنعام : 102) ففي القرآن من العبرية مثلا كلمة – اليم- التي تعني البحر الذي ماؤه ملح ، لا النهر الذي ماؤه عذب ، [1] ، وكلمة – باءَ- التي تعني :- رجع ، ومن السريانية: -نوح- ، ومن اليونانية:-الياس- و -يونس-، ومن الحبشية :- ناشئة-في قوله تعالى :-(ناشئة الليل)(المزمل : 6) ،و -كفلين- في قوله تعالى :- (يؤتكم كفلين من رحمته) (الحديد: 28) ، ومن القبطية :- بيع- أي: كنائس وهكذا . وقد أثبتُ أمثلة على تعدد الألفاظ الأعجمية في القرآن من كل لغة ، **لأرد على القائلين** : ان معاني القرآن من الله ، واللفظ من اختيار محمد نفسه ، ان هذا الرأي يكذبه كون الرسول – ﷺ- أميا ولم يكن دارساً ، ولأقوي رأي

---

[1] – قال الشيخ الدكتور أحمد حجازي السقا في كتابه – اعجاز القرآن – ص 13 :-قصدت بكلمة – اليم – تصحيح تفسير المنار في تفسير الآية-134من سورة الأعراف- أن تابوت موسى كان في مصرف -فاقوس- بمحافظة الشرقية في مصر ، وماؤه ملح ، وكان التابوت متجها الى -المنزلة- ولقد خرج موسى ببني اسرائيل من منطقة – الدفرسوار – على البحر الحمر قريبا من السويس ، والاسماعيلية ، والماء فيها ملح ,

القائلين بوجود ألفاظ أعجمية في القرآن ، أقوي مثلا قول من نقل عنهم السيوطي في الإتقان (إن في كتاب الله تعالى من كل لسان) على الذين يقولون : ليس في القرآن لفظة إلا وهي عربية صريحة ، وأن الأمثلة والحروف التي تنسب الى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها ، إن قولهم هذا : يخل بإعجاز القرآن ، ان لم نقل انه يقضي على الاعجاز تماما ، انك لو تأملت مثلا في لفظ – المسيح– وطبقته على لغة العرب ، فهل تجد أن العرب كانت تستعمل هذا اللفظ ؟ أن العرب لم يستعملوه لعدم حاجتهم اليه أن لفظ – المسيح– في العبرية – همشيح– بمد الهاء والميم مفتوحتين مفخمتين– وفي الآرامية : –مشيح– ، وفي اليونانية:– مسيح– ، وأصل كلمة – همشيح– : الممسوح بالزيت المقدس ، أو : الدهن ، فهل كان عند العرب مسحاء وكهنة..؟

ثم يقول: فان قلت : اذا كان هذا ثابتا ، فلماذا اذن يقول الله في القرآن(وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) (الشعراء: 192–193) .

نقول :– إن الألفاظ الأعجمية قليلة جدا ، والألفاظ العربية هي الكثيرة ، وقد يقول قائل : إن الرسول ربما ترجم له بعض الدارسين لهذه اللغات ، وصاغ هو ذلك بأسلوب من عنده ..؟! وهذا القول مردود ، لأن الرسول – ﷺ– كان يذكر ما يذكر سواء في القصص أو غيره بأسلوب التحدي ، ولو كان يردد ما يسمع ما كان له أن يتحدى ، اذ ربما أن يكون ما سمعه لغوا من القول أو من دارس غير ثقة ، أما أن يتحدى الراسخين في العلم فذلك إعجاز ما بعده إعجاز . انه لا يعقل أن يكون رجلا واحدا محيطا على وجه الدقة بجميع الفنون والعلوم ، ولا يعقل أن يكون رجلا واحدا محيطا على وجه الدقة بلغات العالم السائدة في عصره ، وأشد بعدا في العقل أن يكون رجلا واحدا محيطا على وجه الدقة بلغات العالم ومعارفه معا ، وإذا وجد – ولا يمكن أن يوجد– فهل يستطيع أن يصوغ معلوماته بأسلوب محكم منظم ..؟ وإذا كان هذا الذي ذكرته مستحيلا في عصرنا هذا – عصر التقدم الهائل في العلم والفن– فهل كان ذلك معقولا لنبي أمي في زمن سمته البارزة الجهل والغباء !؟ ولما كان قد ثبت أن الرسول – ﷺ– كان أميا، وبيئته شاهدة على ذلك ، يثبت بالضرورة أن القرآن كلام الله ووحي الله ....)[1]

المذهب الثالث :– قاله ابن عطية ، وينص على أن (هذه الألفاظ في الأصل أعجمية ، ولكن العرب استعملتها وعربتها ، فهي عربية بهذا الوجه ، وقد كان للعرب مخالطة لجيرانهم من سائر الألسنة ، فوقعت ألسنة العرب بألفاظ أعجمية استعملتها في أشعارها ، ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربي الفصيح ، فنزل القرآن بها ....)[2] واختار هذا المذهب – أبو عبيد القاسم بن سلام – فقال :– (ان هذه الألفاظ والأحرف أصولها أعجمية، – كما قال الفقهاء –ولكنها

---

[1] – إعجاز القرآن : د. أحمد حجازي السقا : 12–18.

[2] – مقدمة ابن عطية : 276–277.

وقعت للعرب فعربتها بألسنتها ، وحولتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها ، فصارت عربية ،ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال انها عربية ، فهو صادق باعتبار استعمالها ، ومن قال إنها أعجمية ، فهو صادق باعتبار أصلها) [1]، وقريب منه قول أحمد ابن فارس حيث يقول:- (والصواب من ذلك عندي – والله أعلم–مذهب فيه تصديق القولين جميعا ، ومن ذلك : أن هذه الحروف وأصولها أعجمية –كما قال الفقهاء–الا أنها سقطت للعرب فأعربتها بألسنتها ، وحولتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال انها عربية فهو صادق ، ومن قال انها أعجمية فهو صادق ...)[2] ..وهكذا نرى أن أقوال العلماء اختلفت في هذه المسألة ، وما داموا قد اختلفوا ، فدعنا نختلف معهم ، ونأخذ بالأشبه والأمثل – على حد قول الامام مصطفى صادق الرافعي –رحمه الله تعالى فأصحاب المذهب الثالث – في ظني – أرادوا التوفيق بين المذهبين الأول والثاني ، فذهبوا الى ما ذهبوا إليه ..

أما أصحاب المذهب الأول الذين يرون أن (المفردات التي يظن أنها من اللغات الأعجمية فهي مما تواردت عليه اللغات) فمردود ، لأن اتفاق اللغتين في الكلمة الواحدة قليل وشاذ ، والتجاور والاختلاط يؤدي الى الاحتكاك اللغوي الذي يؤدي الى أن يأخذ العرب من غيرهم ، كما يأخذ غيرهم منهم ، كما هو حاصل في هذا العصر وما سبقه من عصور . ونرى أن المذهب الثاني الذي ذهب إليه – الإمام السيوطي من (أن في القرآن بعض ألفاظ ليست عربية ، وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تخرج القرآن عن كونه عربيا مبينا) هو الأشبه والأمثل بالصواب ، فوجود مثل هذه الألفاظ في القرآن الكريم ، والرسول – صلى الله عليه وسلم – أمي ، ونشأ في بيئة أمية ، ولم يكن دارسا حتى يتخير اللفظ المناسب من كل لغة ، ويضعه على المعنى المناسب له ، يدل دلالة أكيدة على أن القرآن كلام الله ووحيه الى رسوله – صلى الله عليه وسلم –، كما أن الألفاظ الأعجمية في بنيتها وجَرسها قليلة ، والألفاظ العربية هي الكثيرة .. واللغة لا يُعتد فيها بالمفردات بقدر ما يعتد بالنظام اللغوي ، الذي يقوم على أصول النحو، والصرف ، والتركيب والأنساق البيانية ، فان ذهبت مذهبنا .. فبها ونعمت وإ لا فخذ مما أحببت أو دع .[3]

---

[1] – المعرب : للجواليقي: 4.

[2] – الصاحبي : لابن فارس : 29.

[3] – إعجاز القرآن : للسقا : ص 73.

فائدة دراسة علوم القرآن

نزل القرآن الكريم على قلب الرسول – ﷺ– ليكمل به وبشريعته العامة الخالدة صرح إخوانه من الرسل السابقين ، ولما كان القرآن وافيا بكل متطلبات الحياة من عقيدة ، وعبادات ، ومعاملات ، كان حريا بالمسلمين أن يتخذوه إماما ونبراسا ، يهتدون بهديه ، ولا يتأتى ذلك إلا بعد قراءته، وحفظه ، وفهمه ، وتفسيره ، ثم العمل به . ولا يمكن البحث في تفسير القرآن وتأويله بأي حال من الأحوال لكي يعطي النتيجة المرجوة ، إلا إذا كان الباحث ملما بكل ما يحيط بالقرآن الكريم من علوم وفنون تخدم القرآن من جميع نواحيه ، وهذه العلوم التي تخدم التفسير من كل ناحية من نواحيه سميت – بعلوم القرآن– ، وهنا يمكن أن نبين فوائد دراسة هذه العلوم ، **ونوجزها فيما يلي :–**

أولا :– معرفة الأحوال التي لابست القرآن الكريم في كل عصر من العصور منذ نزوله على النبي – صلى الله عليه وسلم– الى الآن ، فمن هذا العلم نعرف كيف عني النبي – ﷺ– وأصحابه بالقرآن أتم عناية ، حتى لا يضيع شيء منه ، ولا يختلط به ما ليس منه ، فحرصوا على صيانته من ذلك كله بطريقتين :–

1 _ طريق حفظه في الصدور .

2 – طريق كتابته واحتفاظهم به مكتوبا .

ونعرف كذلك مدى الجهود التي بذلها الصحابة –رضوان الله عليهم – في هذا السبيل ، بعد وفاة النبي – ﷺ– ، وكيف روي القرآن على سبيل التواتر في كل عصر ومصر ، وكيف عنيت الأمة به ، فدونت الوجوه التي نزل عليها القرآن الكريم ، حتى ما كان منها غير متواتر ، ولكن مع التنبيه على عدم تواتره حتى لا يعد قرآنا ، وكيف عنيت الأمة بتفسيره وشرح مقاصده ، واستنباط أحكامه وعظاته ، وبذلت في ذلك من الجهود ما يجل عن الوصف ، فإن الكتب التي ألفت في هذا السبيل لا يحصيها العد ، فهذه العناية الفائقة التي لازمت القرآن منذ نزوله ، فيها دليل أكيد على أنه لم يتطرق إليه شيء من التحريف أو التبديل .

ثانيا :– معرفة الشبهات التي وردت عليه من نواح عديدة ، ودفعها .

ثالثا :– معرفة الشرائط التي لا بد من توفرها فيمن يريد التصدي لتفسير كتاب الله

رابعا:– الاستعانة بأبحاثه الكثيرة القيمة على فهم القرآن الكريم ، والوقوف على شريف أسراره ، وكريم أغراضه . ولهذا العلم فوائد أخرى كثيرة تجدها في مظانها [1]

---

[1] – انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم : ص 26

أسماء القرآن

لقد اختار الله لوحيه أسماء جديدة ،مخالفة لما سمى العرب به كلامهم جملة وتفصيلا ، وليس لفظ – القرآن – هو الاسم الوحيد لهذا الكتاب السماوي ، بل إن لهذا الكتاب فوق هذا الاسم الذي هو أشهر أسمائه ، أربعة أسماء أخرى ، فتتم له بجملتها مع القرآن خمسة أسماء، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى : –

أولها :– لفظ– الفرقان– كما في قوله تعالى :– (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) (الفرقان : 1) وهو مصدر – فرق يفرق فرقا وفرقانا– ،ومعناه هنا :الفارق بين الحق والباطل ، أو المفروق به بين الحق والباطل ، والمفرق فيه كذلك بين السور والآيات .

ثانيهما: الكتاب : كما في قوله تعالى :–(الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا)(الكهف : 1) ، والكتاب في الأصل :مصدر كتب ، تقول :كتب كتابة وكتبا وكتابا ، والمراد به هنا : المكتوب ، أي في اللوح المحفوظ ، أو المكتوب على العباد فرضية قبوله ، والعمل به ، على كل أحد من الثقلين لعجزهم عن الإتيان بمثله ، أو بسورة من مثله

ثالثها:– الذكر، كما في قوله تعالى :–(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(الحجر : 9) ، وهو في الأصل مصدر – ذكر – ، والمقصود به هنا : المذكور بالألسنة والقلوب ، المذكور فضله ، وكافة ما له من خصائص جليلة . أو :الذاكر لحقيته مما اختص به من الإعجاز، وبما تضمنه من علم ، وتشريع، وآداب وأخلاق ، الذاكر لفضل وشرف من آمن به ، وخذلان من كفر به.

رابعها :– التنزيل – كما في قوله تعالى :– (تنزيل من حكيم حميد)(فصلت / 42) وهو في الأصل مصدر نزل – بتشديد الزاي– والمقصود هنا :–المنزل من قبل الله سبحانه على نبيه – ﷺ– وأمته من الشرائع والآداب ، ومكارم الأخلاق .. هذه هي أسماء القرآن ، وما يتزيده المتزيدون على هذه الأسماء حتى يبلغون بها نيفا وتسعين ا سما ، منشؤه عدم التمييز بين ماهو اسم للشيء وما هو صفة له . وقد عد الزكشي منها جملة ، وبين اشتقاقها ، وصنف –الحرالي – لأسماء القرآن جزءا ، وأنهى أساميه الى اثنين وتسعين اسما ، ولكن أكثرها غير مشهور ، والمشهور منها ما ذكرناه [1] .

وأكثر ما ذكره الحرالي والزركشي وغيرهما أوصاف للقرآن وليست أسماء ، ولا هي كالأسماء لعدم استقلالها في الدلالة عليه ، وقد غلب عليه من أسمائه – القرآن ، والكتاب –قال الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز : [روعي في تسميته قرآنا : كونه متلوا بالألسن ، كما روعي في تسميته كتابا : كونه مدونا بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء

---

[1] – انظر : البرهان في علوم القرآن ، للزركسي : 1: 273. ومنة المنان : إبراهيم خليفة : 25.

بالمعنى الواقع عليه ، وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أنه من حقه العناية بحفظه في موضعين لا موضع واحد ، أعني : أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى)(البقرة : 282) فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب ، حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر ، وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية ، اقتداء بنبيها ، بقي القرآن محفوظا في حرز حريز ،إنجازا لوعد الله الذي تكفل الله بحفظه حيث يقول :(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(الحجر: 9)] [1]

تسمية القرآن المكتوب بالمصحف

معنى المصحف وضبطه :- الصحيفة : هي التي يكتب فيها، و الجمع :صحائف وصحف .. قال الأزهري : الصحف جمع صحيفة من النوادر ، وهو أن تجمع فعيلة على فعل ، ومثله سفينة ، وكان قياسها صحائف و سفائن والمصحف : - بضم الميم وكسرها-الجامع للصحف المكتوبة بين دفتين ، فمن ضم الميم جاء على أصله ، و من كسرها فلاستثقاله الضمة . قال الفراء :- (يقال مصحف من أصحف ، أي جمعت فيه الصحف).([2])

ولفظ (المصحف) لم يطلق على القرآن المكتوب إلا في عهد أبي بكر -رضي الله عنه- قال السيوطي : (أخرج ابن أشته في المصاحف أنهم لما جمعوا القرآن، قال أبو بكر : "التمسوا له اسماً ".فقال بعضهم :" السفر ". قال :" ذلك اسم تسميه اليهود "، فكرهوا ذلك . فقال بعضهم :"المصحف ، فإن الحبشة يسمون مثله المصحف. فكان أبو بكر أول من جمع كتاب الله وسماه المصحف ، فالمصحف اسم للصحف المكتوبة المجموعة . ... وحكى المطرفي في تاريخه : لما جمع أبو بكر - رضي الله عنه - القرآن ، قال : سموه ، فقال بعضهم : سموه إنجيلا ، فكرهوه .... وقال بعضهم : سموه السفر ، فكرهوه من يهود - أي بسبب اليهود - ، فقال ابن مسعود : " رأيت بالحبشة كتابا يدعونه المصحف ". فسموه به...وعلى هذا فالتسمية بالمصحف من عمل الصحابة واجتهادهم .) [3] وتوحي هذه الرواية أن كلمة (مصحف) حبشية الأصل وليست عربية ، وبذلك قال المستشرق (برجشتراسر) ، وهو من المستشرقين الذين استولت عليهم الأهواء ، وتملكهم التعصب ، يجتهدون ما وسعهم التمحل ، وسترهم العلم ، أن يبرهنوا على أن القرآن من صنع محمد - صلى الله عليه وسلم - وأنه متأثر في تأليفه بالتعاليم التي تلقاها من اليهود والنصارى... إلىآخر ماهنالك من أكاذيب وأوهام ، فهم لذلك يتلمسون لبعض الألفاظ أسبابا واهية ليقولوا إنها غير عربية ، وهي مقتبسة من العبرانية أو السريانية أو غير ذلك .

---

[1] - النبأ العظيم : 8.

[2] - لسان العرب : مادة (صحف) .

[3] - البرهان في علوم القرآن ، للزركشي : 1: 281-282. والإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي : 1؛ 149.

وللرد عليهم نقول : إن هذه اللفظة –مصحف – ، تداولها العرب في جاهليتهم والمسلمون من بعدهم بنفس المعنى الذي قصدته التسمية البكرية .

قال امرؤ القيس :

أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان ([1])

وقال أبو ذؤيب الهذلي :

فنمنم في صحف كالرياط فيهن إرث كتاب مُحي ([2])

قال لقيط ابن يعمر الإيادي (في قصيدته المشهورة):–

كتاب في الصحيفة من لقيط إلى من في الجزيرة من إياد ([3])

كما وردت كلمة الصحف ثماني مرات في القرآن الكريم .[4] ووردت عدة مرات في كتب رسول الله – ﷺ– ، والصحابة – رضي الله عنهم أجمعين– مما يجعلنا نؤكد أن الكلمة عربية الأصل في بنيتها وجرسها ، وعرفها العرب واستعملوها في لغتهم قبل أن يسمي سيدنا أبو بكر – رضي الله عنه– الكتاب الكريم بالمصحف ، ثم ذاع استعمالها وشاع بعد أن أمر سيدنا عثمان – رضي الله عنه وأرضاه – ، بنسخ عدد من المصاحف وإرسالها إلى الأمصار الإسلامية.

الفرق بين القرآن والسنة النبوية المطهرة

سبق أن عرفنا أن القرآن الكريم هو :– كلام الله – عز وجل –المعجز ، المنزل على النبي – ﷺ– المتعبد بتلاوته ، المنقول إلينا بالتواتر ، المتحدى بأقصر سورة منه ، المجموع بين دفتي المصحف الشريف ، المفتتح بسورة الفاتحة ، والمختتم بسورة الناس .

أما الحديث فمعناه في اللغة :– ضد القديم ، ويطلق ويراد به كل كلام يتحدث به وينقل ويبلغ الإنسان من جهة

---

[1] – شرح ديوان امرىء القيس –مطبعة هندية بالموسكي بالقاهرة سنة 1928م .

[2] – شرح ديوان الهذليين ج64/1 .

[3] – مختارات ابن الشجري ص 6–7 .

[4] – انظر سور (التكوير ، الأعلى ، النجم ، عبس ، طه ، البينة ، المدثر) .

السمع ، أو الوحي في يقظته أو منامه ، وبهذا سمي القرآن حديثا ... قال تعالى :- (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني)(الزمر : 23) وقال سبحانه :- (ومن أصدق من الله حديثا)(النساء: 87) ...والحديث كذلك ، هو : الجديد من الأشياء .

في الاصطلاح:- هو ما أضيف الى النبي - ﷺ- من قول ، أو فعل أو تقرير ، أو صفة..

فالقول : كقوله - ﷺ-: (إنما الأعمال بالنيات)(صحيح البخاري : حديث : 1: كناب : بدء الوحي .)

والفعل : كقوله - ﷺ-: (صلوا كما رأيتموني أصلي) [1]

والتقرير : كأن يقر أمرا علمه من أحد الصحابة من قول ، أو فعل ، سواء أكان ذلك في حضرته - ﷺ- أم في غيبته ثم بلغه ، ومن أمثلته : دعي - عليه السلام- الى أكل ضب فقال : أجد نفسي تعافه ، وسمح لمن أراد أن يأكل بالأكل منه .

والصفة : كما روي من أنه - ﷺ- كان دائم البشر ، سهل الخلق ،لين الجانب. [2]

تعريف السنة :-

السنة في اللغة :-السيرة ، حسنة كانت أو قبيحة ، ففي الحديث :- (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها .ومن سن سنة سيئة ...الحديث) [3]

أما تعريف السنة في اصطلاح المحد ثين فهي :- كل ما أثر عن النبي - ﷺ- من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، أو صفة خَلقية أو خُلُقية ، أو سيرة ....والسنة بهذا المعنى مرادفة للحديث النبوي ..والذي يعنينا في مقامنا هذا هو السنة التي تقابل القرآن الكريم .. **والحديث نوعان** :-

النوع الأول :- الحديث النبوي ، وهو قسمان :- **قسم توقيفي** :- وهو الذي تلقى الرسول - ﷺ- مضمونه من الوحي فبينه للناس بكلامه .....

وقسم توفيقي :- وهو الذي استنبطه الرسول - ﷺ- من فهمه للقرآن الكريم ، لأنه مبين ، أو استنبطه بالتأمل والاجتهاد ، وهذا القسم الاستنباطي الاجتهادي يقره الوحي إذا كان صوابا ، وإذا وقع فيه خطأ جزئي ، نزل الوحي بما فيه الصواب . **والنوع الثاني** : الحديث القدسي: وهو ما يضيفه النبي- ﷺ- إلى الله تعالى...أي : أن النبي - ﷺ-

---

[1] - صحيح البخاري : كتاب الأذان : رقم : 631)

[2] - الإحكام في أصول الأحكام : 1: 127 .

[3] - صحيح مسلم : كتاب الزكاة حديث رقم : 1017)

يرويه على أنه من كلام الله ، فالرسول راو لكلام الله بلفظ من عنده ، وإذا رواه راو عن رسول الله – ﷺ– مسندا إلى الله عز وجل ، قال : قال رسول الله – ﷺ– فيما يرويه عن ربه ، أو يقول : قال رسول الله– ﷺ– ، قال الله تعالى ، أو : يقول الله تعالى ... والقدسي نسبة الى القدس ، وهي نسبة تدل على التعظيم ، لأن مادة الكلمة دالة على التنزيه والتطهير في اللغة ، فالتقديس : تنزيه الله تعالى . ...قال تعالى على لسان ملائكته :(ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) (البقرة : 30) أي :–نطهر أنفسنا لك ، ومن خلال التعاريف التي ذكرناها للقرآن والحديث القدسي والنبوي ، يمكننا إدراك الفروق بينهما من أوجه متعددة .... **وأبرز هذه الفروق** :–

1 – القرآن منزل الألفاظ ، أوحي به الى رسول الله بلفظه ، ومن زعم غير ذلك فادعى نزول معانيه لا ألفاظه فقوله باطل ، أما الأحاديث القدسية :فقد اختلفوا في تنزل ألفاظها ، فمن قائل بهذا التنزل ، ومن قائل بعدمه ، وهو ما نختاره . فأما الأحاديث النبوية ، فهي غير منزلة الألفاظ باتفاق .

2 – إن القرآن معجز بلفظه ، وليس شيء من الحديث معجزا بلفظه ، قدسيا كان الحديث أو نبويا ، ومن هنا فانه لا يصح أن يذكر أي جزء من القرآن بمعناه فقط ، بل لا بد من قراءة لفظه ، بخلاف لفظ الحديث فإنه تصح روايته بالمعنى

3 – إن القرآن منقول نقلا متواترا ، وهذا النقل شامل لكل كلمة من كلمات القرآن ، ولبس كذلك الحديث ، قدسيا كان أو نبويا . بل من الحديث ما هو متواتر ومنه ما ليس كذلك ، بل إن نقل معظم الحديث غير متواتر . ومن هنا فإنه يكفر من جحد قرآنية أي كلمة من كلمات القرآن ، بخلاف الحديث فإنه لا يكفر إلا من جحد معلوم التواتر منه ، مما هو معلوم منه بالضرورة ، ككون الظهر أربعا ، وكون الزكاة من المال ربع العشر ونحو ذلك .

4 – إن تواتر القرآن هو تواتر لفظي حتما وواقعا ، بخلاف الحديث ، فقل ما يكون منه متواترا لفظه ، وأغلب ما يكون التواتر فيه ما يرجع الى المعنى فحسب ، بأن تعرف الواقعة لدى العدد الكثير الذي يؤمن تواطؤهم على الكذب ، ولكن يروي كل واحد هذه الواقعة أو تلك بلفظ يختلف عن لفظ الآخر .

5 – إن للقرآن الكريم من الأحكام الخاصة به ما ليس للحديث بقسميه – القدسي والنبوي– : منها ما ذكر في التعريف من : التعبد بتلاوته في الصلاة وغيرها ، فإن ذلك للقرآن فحسب ، فأما الحديث فلا يجوز أن يقرأ به في الصلاة باتفاق ، ولا أجر على مجرد تلاوته خارج الصلاة ، اللهم إلا بعض الأحاديث التي هي من الأذكار النبوية الواردة عنه – صلى الله عليه وسلم– كأذكار الصباح والمساء ، وعند دخول البيت والخروج منه ، وما شابه ذلك .... ومن هذه الأحكام ما هو تابع لهذا الحكم ، كحرمة مس المصحف على الحائض والنفساء ، وعلى الجنب عند بعض الأئمة ، بخلاف مس كتاب من كتب الحديث ، فإنه لا يحرم باتفاق ، وكحرمة قراءة القرآن على الحائض والنُفساء والجُنُب كذلك ، بخلاف

قراءة الحديث .

– القرآن وقع به التحدي والإعجاز ، بخلاف الحديث القدسي فلم يقع به التحدي والإعجاز . [1]

وهذه الفروق بين القرآن والحديث القدسي ، إذا كان المراد بالحديث القدسي : مانزل لفظه ومعناه من عند الله – عز وجل– **أما إذا قلنا إن الحديث القدسي هو** :– ما نزل من عند الله بمعناه دون لفظه ، فلا يكون هناك ما يستدعي ذكر هذه الفروق ، وهذا القول هو الأولى بالقبول من سابقه ...قال الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز مرجحا هذا القول :– (وهذا هو أظهر القولين فيه عندنا ، لأنه لو كان منزلا بلفظه ، لكان له من الحرمة والقدسية في نظر الشرع ما للنظم القرآني ، إذ لا وجه للتفرقة بين لفظين منزلين من عند الله ، فكان من لوازم ذلك وجوب المحافظة على نصوصه ، وعدم جواز روايته بالمعنى، وحرمة مس المحدث لصحيفته ، ولا قائل بذلك كله . وأيضا فإن القرآن لما كان مقصودا منه مع العمل بمضموته شيء آخر وهو التحدي بأسلوبه ، والتعبد بتلاوته ، احتيج لإنزال لفظه ، والحديث القدسي لم ينزل للتحدي ، ولا للتعبد، بل لمجرد العمل بما فيه ، وهذه الفائدة تحصل بإنزال معناه . فالقول بإنزال لفظه قول لا داعي في النظر إليه ، ولا دليل في الشرع عليه)[2] .. يقول الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني :(والحكمة في هذا التفريق : أن الإعجاز منوط بألفاظ القرآن ، فلو أبيح أداؤه بالمعنى لذهب إعجازه ، وكان مظنة التغيير والتبديل ، واختلاف الناس في أصل التشريع ، والتنزيل ..... أما الحديث القدسي والنبوي : فليست ألفاظهما مناط إعجاز ، ولهذا أباح الله روايتهما بالمعنى ، ولم يمنحهما تلك الخصائص والقداسة الممتازة التي منحها القرآن الكريم ، تخفيفا على الأمة ، ورعاية لمصالح الخلق في الحالين من منح ومنع) [3]

القرآن كتاب هدا ية

أنزل الله على رسوله محمد –صلى الله عليه وسلم– هذا الكتاب ليهدي الناس إلى الحق ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويسلك بهم طريق الرشاد ، فكانت فيه الأسس الفكرية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والروحية ، والخلقية ، التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي ..ففي هذا الكتاب الكريم العقيدة الصحيحة السليمة ، التي حلت للإنسان أعظم مشكلة تلح على وجدانه ، متمثلة بالسؤال التالي : لماذا خلقت ::؟ قال الله تعالى :– (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (الذاريات : 56) ووضعت هذه العقيدة نظرة متميزة للإنسان والكون والحياة ، فليس الكون عدوا للإنسان ، وليست الطبيعة خصما له يصارعه ويغالبه ، إنما هي خلق من خلق الله ، فالأرض مذللة للإنسان ، وكل ما فيها مخلوق

---

[1] – انظر : السنة قبل التدوين : محمد عجاج الخطيب : 22. ومباحث في علوم القرآن للقطان : 25.

[2] – مدخل إلى القرآن الكريم : د. محمد عبد الله دراز : 118 .

[3] – مناهل العرفان ، للزرقاني : 1: 51.

له (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ..) (الملك : 15). وقرر القرآن أن الإنسانية مخلوقة من ذكر وأنثى ، فهم متساوون ، ولا يتفاضلون إلا بالتقوى ،(إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات : 13) ، وقرر القرآن العقيدة السليمة في الله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، ومن يكفر بركن من هذه الأركان التي هي أركان الإيمان فهو كافر ، (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا)(النساء : 136) ، والبعث للحساب هين على الله (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنا نه) (القيامة : 3-4) الى آخر جوانب هذه العقيدة . كما كان القرآن الكريم المشعل الوقاد ، والمنار المضيء ، ينير للمسلمين الطريق ،ويهديهم نحو المجد والرفعة والسعادة ، وقيادة الدنيا الى الخير والحق . لقد رباهم القرآن على إباء الضيم ، ونفخ فيهم روح التمرد على الطغيان والفساد ، ودفع بهم إلى سلوك الطريق المستقيم قال سبحانه :- (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) (النساء: 97)

وفي هذا الكتاب الكريم **أسس النظام الروحي** ، التي حققت للمرء أن يمد شطر ذاته بغذاء مستمر ، يتمثل بعبادة الله وذكره والاتصال به ، قال تعالى : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) (البقرة : 186)

وفيه : أسس **النظام الأخلاقي العظيم** الذي جاء به الإسلام ، فدعا الى مكارم الأخلاق ، وحذر من مساوىء الأقوال والأفعال ، قال تعالى :- (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون)(النحل : 90) وفيه : **أسس النظام الاجتماعي** الذي يصوغ الفرد والمجتمع صياغة متكاملة ، لا يجور أحدهما على الآخر ، والذي يقيم الأسرة على قواعد متينة من التراحم والتعاون ، والتكافل ، مما يحقق لكل فرد من أفرادها السعادة الحقة .

وفيه كذلك : **أسس النظام الاقتصادي** ، الذي يحرم الاستغلال ، والظلم ، والربا والعدوان ، ويحدد القواعد العامة في قضايا المعاملات ، من تجارة ، وقرض ، وبيع ، ومداينة، وما إلى ذلك من قواعد لا تستقيم الحياة إلا بها ، والتي تحقق الكفاية ، والعدالة ، والرفاهية . وفي هذا الكتاب الكريم أسس النظام السياسي ، الذي تقوم عليه دولة الإسلام ، معتمدة على الشورى ، والعدل ، والمساواة ، وإحقاق الحق ، وإبطال الباطل ..... قال تعالى (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) (الحج : 41) . وهكذا فإن القرآن هو الدستور الذي حوى كل هذه الأسس ، وقد أثبتت الأيام أنه الدستور الصالح لكل زمان ومكان ، وأن أحكامه هي العلاج الناجع لكل أمراض الحياة ، لا اختلاف فيه ولا تناقض ، وصدق الله العظيم القائل :- (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) (النساء : 82)

مصدر القرآن الكريم

يدعي بعض المستشرقين والمبشرين أن القرآن الكريم ليس وحياً من الله ، وأن النبي محمد – ﷺ– ألقه ، مستعينا بالمصادر اليهودية والنصرانية ، والمصادر العربية المتمثلة في شعر العرب الجاهليين ، ولا سيما المتحنفين منهم ، وبالتالي كان إنكارهم لحقيقة كونه – ﷺ– أميا لا يقرأ ولا يكتب ، بل كان يجيد القراءة والكتابة –في زعمهم– مما مكنه من اقتباس دينه من الشرائع السابقة . .. ومن الواضح أن كل هذه المزاعم لا تقوم على ساق ، وتعوزها الأدلة العقلية المقبولة ، والسند التاريخي الصحيح ، وتهدف في نهاية الأمر إلى تشكيك المسلمين في دينهم الحنيف ، وزلزلة عقائده ، وخلخلة الصلة المحكمة بين المسلمين وإسلامهم ، إن القرآن بما اشتمل عليه من عقائد إلهية ، وحقائق كونية ، وقوانين أخلاقية ، وفضائل نفسية ، وقواعد سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وأخبار الغيب الماضية والمستقبلية ، لا يمكن أن يكون من صنع عقل بشري مهما بلغ من العلم والمعرفة ، بل هو وحي من الله ، نزل به الروح الأمين جبريل ، على قلب محمد – ﷺ– بلفظه ومعناه . .وخير ما ينقض هذه الشبهات والمزاعم ، ما كتبه الدكتور محمد عبد الله دراز في –النبأ العظيم –حيث قال :– [لقد علم الناس أجمعون علما لا يخالطه شك ، أن هذا الكتاب العزيز ، جاء على لسان رجل عربي أمي ولد بمكة ، في القرن السادس الميلادي ، اسمه : محمد بن عبد الله – ﷺ– ، هذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد ، لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادته لكتاب غيره ، ولا لحادث غيره ظهر على وجه الأرض .

أما بعد : فمن أين جاء به محمد بن عبد الله – ﷺ– ، أمن عند نفسه ومن وحي ضميره ، أم من عند معلم ..؟ ومن هو ذلك المعلم ..؟ نقرأ في هذا الكتاب ذاته أنه ليس من عمل صاحبه ، وإنما هو قول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، ذلكم هو جبريل –عليه السلام – ، تلقاه من لدن حكيم عليم ، ثم نزله بلسان عربي مبين ، على قلب محمد – ﷺ– فتلقنه محمد منه كما يتلقن التلميذ من أ ستاذه نصا من النصوص ، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا: – الوعي والحفظ ...والحكاية والتبليغ....ثم البيان والتفسير ...ثم التطبيق والتنفيذ .

أما ابتكار معانيه ، وصياغة مبانيه ، فما هو منها بسبيل ، وليس له من أمرهما شيء ، إن هو إلا وحي يوحى .هكذا سماع القرآن حيث يقول :– (وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي....الآية) (سورة الأعراف/203) ، ويقول :– (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي....الآية) (سورة يونس/15) . وأمثال هذه النصوص كثير في شأن إيحاء المعاني ، ثم يقول في شأن الإيحاء اللفظي :– (إنا أنزلناه قرآنا عربيا) (سورة يوسف/ 2)(سنقرئك فلا تنسى) (سورة الأعلى / 6) ، (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) (سورة القيامة: 16–19) ، (اقرأ –أول سورة العلق) ، (واتل –سورة الكهف الآية 26) ، (ورتل سورة المزمل ، الآية 4) ، فانظر كيف عبر بالقراءة والإقراء والتلاوة والترتيل ، وتحريك

اللسان ، وكون الكلام عربيا ، وكل أولئك من عوارض الألفاظ لا المعاني البحته . القرآن إذن صريح في أنه :(لا صنعة فيه لمحمد– ﷺ– ولا لأحد من الخلق ، وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه). والعجب أن يبقى بعض الناس في حاجة إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة ، وهو أنه ليس من عند محمد – ﷺ–.][1]

وفي الختام نستطيع أن نلخص البراهين المتعلقة بهذا الدليل بالنقاط التالية :

– أنه – ﷺ– تنبأ بعد الأربعين من عمره ، ولو كان القرآن من تأليفه لقاله قبل أن يبلغ الأربعين ، قال تعالى :– (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) (يونس : 16)

– إن نزول بعضه –أي القرآن –كان بعد طول انتظار ، وبعد حاجة ماسة ، فلو كان من عنده لما انتظر ثلاثين يوما ، لنزول الحكم ببراءة أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها –مما اتهمت به في حادثة الإفك .

– توقفه – ﷺ– في بعض الأمور والأحكام حتى يبينها القرآن ، كحكم الظهار الذي بينته سورة المجادلة ، وحكم الذين تخلفوا عن غزوة تبوك .

– سيرته الشخصية في القرآن تكاد تكون معدومة ، فلا نجد أثرا لذكر– عام الحزن –حيث فقد أعز نصير ، فلم يرد أي ذكر لعمه (أبو طالب) ، ولا لزوجه (خديجة) –رضي الله عنها – ، ولا لموت ولده إبراهيم –رضي الله عنه – .

– كان الرسول – ﷺ– يتلو الآية ، ويقول الحديث ، – وهو مع فصاحته – إلا أنه لا يماثل القرآن في الفصاحة والبلاغة ، فيستحيل أن يكون للإنسان أسلوبين فيهما مثل هذا التباين .

– تراجع الرسول – ﷺ– عن بعض ما كان يريد فعله بعد نزول الآيات التي تمنعه من ذلك ، فحينما أراد الصلاة على –عبد الله بن أبي بن أبي سلول كبير المنافقين –وقال له عمر –رضي الله عنه –إن الله يقول : (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) (التوبة : 80) ، فقال الرسول – ﷺ– لأزيدن على السبعين –أوكما قال – ثم وقف يصلي ، فنزل عليه جبريل بقوله تعالى :– (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ..) (التوبة : 84) عند ذلك امتنع الرسول – ﷺ– وتراجع [2]

– الإشارات العلمية الكثيرة الواردة في القرآن الكريم والتي كشف النقاب عنها العلم الحديث في عصرنا الحاضر ، إضافة إلى الغيوب الكثيرة الواردة في الآيات الكريمة التي تحدثت عن غيب الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، – كما سنبينه في مبحث إعجاز القرآن الكريم –والتي تؤكد أن القرآن فوق مستوى ثقافة الرسول – ﷺ– وفوق مستوى ثقافة عصره ، بل جميع العصور ،وأن القرآن لم يصدر عنه ، بل ورد إليه ، وأنه لم يفض عن قلبه ، بل أفيض عليه .

---

[1] – انظر النبأ العظيم : لدراز : 23–76.

[2] – انظر سيرة ابن هشام : 3: 101.

تاريخ علوم القرآن

اذا أردنا تتبع المراحل التي مرت بها – علوم القرآن– لتزداد معرفتنا بما حظي به القرآن الكريم من عناية وصيانة ، جعلته في أعلى مراتب التوثيق والحفظ ، فعلينا أن نستوضح معالم كل خطوة من خطوات العناية به ، والاهتمام بحفظ نصه ، وفهم معانيه ، والإلمام بمعارفه وتعاليمه وأحكامه ، منذ بدء نزوله على رسوله – ﷺ– ، إلى عصرنا الحاضر ، وهذا ما يجعلنا نقسم المراحل والفترات البارزة في الاهتمام بالقرآن الكريم ودراسته إلى ما يأتي : –

المرحلة الأولى :–عصر الرسول – ﷺ– والصحابة – رضي الله عنهم أجمعين–

المرحلة الثانية :–عصر التابعين وتابعيهم – رضي الله عنهم أجمعين– .

المرحلة الثالثة:–عصر التدوين.

المرحلة الرابعة :–عصر الفترة الممتدة من عصر التدوين الى العصر الحديث .

أولا :– عصر الرسول – ﷺ– وأصحابه الأخيار:– منذ بدء نزول القرآن على رسول الله – صلى الله عليه وسلم– والرسول شديد الحرص على تلقيه من جبريل الأمين ، فعلمه الله تعالى كيف يتلقى القرآن ، ووعده بتثبيته وجمعه في صدره وبيانه وتوضيحه ، وهذا ما يفيده قوله تعالى :– (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما)(طه : 114) . وقوله سبحانه : –(لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) (القيامة : 16) وهذا ما يؤكد مدى حرص الرسول – ﷺ– على تلقي القرآن الكريم تاما كاملا ، كما يدل على تكفل الله عز وجل لنبيه أن يقرئه القرآن ويفهمه معناه ، ويثبته له في صدره ، ومن ثم فقد تعلم الرسول – ﷺ– القرآن الكريم ،ووقف على علومه ومعارفه من الله عز وجل ، بسبب ما ألقاه في روعه من الوحي ، فجمع الرسول – ﷺ– القرآن الكريم نصا ومعنى وبيانا ، ثم بلغ كل ذلك لأصحابه الأخيار – رضي الله عنهم أجمعين– .

وكان – صلى الله عليه وسلم – ينتهج في تعليم أصحابه ، وإبلاغهم ما أوحاه الله تعالى إليه ، منهجا سديدا ساميا ،فكان يبلغهم الآيات التي تنزل عليه أولا فأول ، ويقرأها عليهم في تمهل وتؤدة، ليحفظوا نص القرآن ويفهموا معناه ، ويقفوا على ما يحويه من علوم ومعارف وأحكام ، ويفقهوا أسراره ومراميه ، وكان – ﷺ– يبين ماخفي عليهم ، ويشرح لهم بأقواله وأفعاله وتقريراته كل ما يشكل عليهم من القرآن الكريم ... روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال : [لما نزل قوله تعالى : – (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم .. الآية) (الأنعام : 82) ، شق ذلك على الصحابة فقالوا : يا رسول الله : وأينا لم يظلم نفسه ..؟ قال إنه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : (إن الشرك لظلم عظيم) (لقمان : 13) ، إنما هو الشرك] [1] ففسر الرسول – ﷺ– الظلم بالشرك..... وأخرج مسلم وغيره عن عقبة بن عامر

---

[1] – تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي : رقم : 3385.

، قال : [سمعت رسول الله – ﷺ– يقول وهو على المنبر : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .) ألا إن القوة الرمي][1] . ولزيادة المحافظة على النص القرآني والعناية به ، كان الرسول – ﷺ– يأمر أصحابه بكتابته ، ثم اتخذ كتابا مخصوصين لكتابة القرآن الكريم ، فكان إذا نزل عليه من الوحي شيء ، دعا من يكتب ما نزل ، وكان – ﷺ– يرشد الكتاب إلى موضع الكتابة وكيفيتها طبقا لما كان يتلقاه من أمين الوحي جبريل – عليه السلام– ، ففي جامع الترمذي وغيره عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال :– كان رسول الله – ﷺ– مما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السورة ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء منه ، دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وقال: هذا حديث حسن . وقال الحاكم :– هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .[2] . وقد تلقف الصحابة الأبرار ما ألقاه الرسول – ﷺ– إليهم ،وأبلغه لهم من وحي القرآن الكريم ، ووحي السنة المطهرة ، وقد حرصوا غاية الحرص على حفظ ما يسمعونه من النص القرآني ، ووعوا أشد الوعي كل ما أخذوه من رسول الله – ﷺ– من معاني القرآن وأسراره ، وعلومه ومعارفه التي فهموها من أحاديث الرسول – ﷺ– وأفعاله وتقريراته وسلوكه ، بالإضافة إلى ما وقفوا عليه من الظروف والمناسبات والأحوال التي نزل بها القرآن الكريم ، وقد ساعدهم على ذلك ما كانوا يتمتعون به من قوة الحافظة وذكاء القلوب ، وسيلان الأذهان ، وصفاء الفكر ، الأمر الذي جعلهم أعلم الناس وأفقههم وأعرفهم بكتاب الله تعالى . يدل على ذلك ما رواه البخاري بسنده عن ابن مسعود أنه قال :(والله الذي لا إله غيره ،ما من آية من كتاب الله إلا وأعلم أين نزلت ، وفيم نزلت ، ولو أعلم أمرءا أعلم مني بكتاب الله تبلغه المطايا لركبت إليه.)[3] .

ثانيا:– عصر التابعين وأتباعهم – رضي الله عنهم أجمعين –:–

نقل التابعون كل ما سمعوه من أصحاب رسول الله – ﷺ– ، ابتداء بما فهموه من النص القرآني وما يتعلق من المباحث بكتاب الله من معاني ، وأسباب نزول ، وناسخ ومنسوخ وانتهاء بجميع ما يتعلق بأحكامه وتشريعاته التي تلقوها عن الصحابة ، سواء أكانت من أقوال الصحابة أنفسهم، أومن اجتهاداتهم الخاصة . ومن ثم فقد تأصلت الدراسات القرآنية في عصر التابعين ، واتسع نطاقها ، وأصبح لها مدارسها المشهورة المعروفة .

كمدرسة التفسير في مكة : وكان أستاذها الصحابي الجليل عبد الله بن عباس ، وكان من تلاميذه من التابعين : سعيد بن جبير ، ومجاهد بن جبر ، وعكرمة مولى بن عباس ، وطاووس بن كيسان اليماني ، وعطاء بن أبي رباح وغيرهم .

ومدرسة التفسير في المدينة : وكان أستاذها الصحابي الجليل أبي بن كعب وقد تخرج في هذه المدرسة كثير من التابعين

---

[1] – الجامع لأحكام القرآن : ج19/ ص 34. والآية في سورة الأنفال : رقم : 60 .

[2] – المرشد الوجيز : لأبي شامة ، ص 34.

[3] – الجامع لأحكام القرآن : ج1/ ص 25.

، من أشهرهم : زيد بن أسلم ، وأبو العالية ، ومحمد بن كعب القرظي .

ومدرسة التفسير في العراق : وكان أستاذها الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ، وقد تخرج في هذه المدرسة كثير من التابعين ، واشتهر من بينهم : علقمة بن قيس ،ومسروق بن الأجدع ، والأسود بن يزيد بن قيس، ومرة الهمداني وعامر الشعبي، والحسن البصري ، وقتادة بن دعامة السدوسي .

وقد كان لمشاهير التابعين في التفسير مجهودات ومرويات وآثار خاصة لكل منهم ، وصلت إلينا عن طريق الكتب الجامعة في التفسير التي جمعت كل ما سبقها من روايات، كتفسير الطبري وغيره .

ثالثا:- عصر التدوين : لقد ظل الأمر على ما ذكرنا حتى استهل القرن الثاني الهجري، وأشرق عصر التدوين للعلوم الإسلامية ، عندما رأى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز- رضي الله عنه - أن يجمع الأحاديث،فأصدر أمره الى علماء الأمصار لجمع أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم-وإثباتها في كتب خاصة ، مخافة أن يضيع منها شيء بذهاب العلماء ،فقام العلماء الأعلام في كل مصر من الأمصار بجمع أحاديث الرسول - ﷺ- وفتاوى الصحابة والتابعين ، ثم رأى بعضهم أن يفرد أحاديث النبي - ﷺ- في مؤلفات خاصة ، وقد كانت المرويات والآثار المتعلقة بالقرآن الكريم والخاصة بتفسيره مدونة ضمن المرويات والآثار الحديثية ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى نشطت حركة التأليف والتدوين نشاطا قويا في هذا العصر ، فحظيت علوم القرآن بنصيب غير قليل من هذا النشاط ، فبدأ كثير من العلماء بجمع ما روي من تفسير القرآن الكريم عن رسول الله - ﷺ- أو عن الصحابة أو عن التابعين ، ووضعها في مصنفات خاصة ، فكان أول ما دون في علوم القرآن بالمعنى الإضافي هو التفسير ،لأنه الأصل في فهم القرآن وتدبره ،وعليه يتوقف استنباط الأحكام ، ومعرفة الحلال والحرام . فألف في تفسير القرآن : **مقاتل بن سليمان** (ت150هـ)، **وشعبة بن الحجاج**(ت160هـ) ، **وسفيان الثوري** (ت 161هـ)، **ووكيع بن الجراح**(ت197هـ) ، **وسفيان بن عيينة**(ت198هـ) ،وغيرهم وكانت تفاسيرهم جامعة لأقوال الصحابة والتابعين بأسانيدها من غير تعقيب ولا تعليق على ما يذكرونه من الروايات ، حتى جاء **محمد بن جريرالطبري** (ت 310)فألف تفسيره المشهور المتميز بتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض ، ثم تلاه خلق كثير من العلماء الذين ألفوا في التفسير وعلوم القرآن ومباحثه المختلفة .

رابعا : المرحلة الرابعة :-عصر الفترة الممتدة من عصر التدوين الى العصر الحديث .

عرفنا مما سبق أن علوم القرآن قد دونت ضمن الحديث النبوي الشريف ، فقد كانت أبواب التفسير في مصنفات الحديث كباب من أبوابها ،ولكن بعد فترة بدأت علوم القرآن ومباحثه تأخذ شكلا مستقلا ،فانفردت في مصنفات خاصة ،وظهرت فيها مؤلفات بدأت تتطور شيئا فشيئا حتى تكاملت وتجمعت في مصنفات جامعة شاملة لكل فروعها وأبحاثها ،وإليك بعضا من المؤلفات التي ظهرت إبان كل قرن من قرون هذا العصر ، لتقف على مدى الاهتمام البالغ الذي حظي به القرآن الكريم وعلومه .

ففي القرن الثالث الهجري : بدأ ظهور مؤلفات في علوم القرآن الكريم ، فألف أبوعبيدة معمر بن المثنى التميمي(ت210هـ)كتابه – مجاز القرآن– ، وألف أبو عبيد القاسم بن سلام (ت224) في الناسخ والمنسوخ ، وألف علي بن المديني شيخ البخاري(ت234هـ) في أسباب النزول ، وألف ابن قتيبة (ت276هـ) في مشكل القرآن وغريب القرآن ، وغيرهم الكثير .

وفي القرن الرابع الهجري:– تتابع التأليف في مباحث علوم القرآن ، فألف محمد بن خلف المرزباني (ت309هـ)الحاوي في علوم القرآن، وألف أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري(ت 328هـ) كتاب الوقف والابتداء ، والمشكل في معاني القرآن ولم يتمه ، وألف أبو جعفر النحاس (ت338هـ) كتابه إعراب القرآن ، ومعاني القرآن ..

وفي القرن الخامس الهجري :– تواصل التأليف وازداد زيادة مطردة في مباحث علوم القرآن ، فألف أبو بكر الباقلاني (ت403هـ) كتابه :إعجاز القرآن ، وألف أبو الحسن الماوردي علي بن حبيب (ت450) كتابا في التفسير سماه – النكت والعيون– وكتابا آخر في أمثال القرآن ، وألف أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت473) مشكل إعراب القرآن.

وفي القرن السادس الهجري:– استمر التأليف في مباحث علوم القرآن ، فألف عبد الرحمن بن محمد أبو البركات الأنباري (ت577هـ)كتابه: البيان في غريب إعراب القرآن ، وألف أبو القاسم عبد الرحمن المعروف بالسهيلي(ت581هـ) كتابا في مبهمات القرآن ، وألف ابن الجوزي (ت597هـ) فنون الأفنان في علوم القرآن ، والمجتبى في علوم تتعلق بالقرآن .

وفي القرن السابع الهجري:– ازداد التأليف في مباحث علوم القرآن ، فألف علم الدين السخاوي (ت641هـ)كتابه : جمال القراء ، ، وألف الإمام أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام المشهور بالعز(ت660هـ) كتابا في مجاز القرآن ، وألف شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المعروف بأبي شامة المقدسي (ت665هـ)كتابا أسماه –المرشد الوجيز الى علوم تتعلق بالكتاب العزيز–

وفي القرن الثامن الهجري:– ترعرع التأليف في علوم القرآن وازداد اتساعا وشمولا ، فألف أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير الاندلسي الغرناطي (ت707هـ) كتابه المسمى : –ملاك التأويل القاطع بذوي الالحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل _ وكتابا آخر أسماه : البرهان في ترتيب سور القرآن . وألف نجم الدين الطوفي (ت716هـ)كتابه – الإكسير في علم التفسير–، وجدل القرآن ، وألف الامام تقي الدين أحمد بن تيمية (ت728هـ)كتابه :مقدمة في أصول التفسير ، وألف بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت794هـ) كتابه الجامع :البرهان في علوم القرآن ، وألف ابن القيم (ت851هـ)كتابه : التبيان في أقسام القرآن .

وفي القرن التاسع الهجري:– تكاثر التأليف وازداد اتساعا وشمولا ، فألف الفيروزآبادي (ت817هـ) كتابه : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، ، وألف جلال الدين البلقيني (ت824هـ)كتابه:مواقع العلوم في مواقع النجوم ، يقول

عنه السيوطي : فرأيته كتابا لطيفا، ومجموعا لطيفا ، ذا ترتيب وتقرير وتنويع وتحبير .[1] (21) ، وألف محمد بن سليمان الكافيجي(ت872هـ)كتابا في علوم القرآن يقول عنه السيوطي : (انه لم يسبق اليه)(20) وهو التيسير في قواعد التفسير ..

وفي القرن العاشر الهجري :- تجمعت مسائل هذا العلم على يد جلال الدين السيوطي (ت911هـ) فألف كتابه : التحبيرفي علوم التفسير ، ثم وضع كتابه : الإتقان في علوم القرآن وغيرها . وكتب الامام شهاب الدين القسطلاني (ت923هـ)كتابه : لطائف الاشارات لفنون القراءات ..

ومن القرن العاشر الى بداية القرن الرابع عشر : قل التأليف في علوم القرآن ، يقول الشيخ عبد العظيم الزرقاني :- وتوفي السيوطي رحمه الله(ت 911 هـ)، في مفتتح القرن العاشر ، وكانت نهايته نهاية لنهضة التأليف في علوم القرآن)[2] (22) ، ومع هذا فإننا لا نقطع بأن التأليف في علوم القرآن قد توقف طوال هذه الفترة الممتدة من القرن العاشر الهجري الى عصر النهضة الحديثة ، فإن الاستقراء غير تام ، وغاية ما يمكننا قوله :لعل العلماء اقتصروا على تسجيل مباحث علوم القرآن في مقدمات تفاسيرهم ، كما فعل الالوسي في مقدمة تفسيره – روح المعاني- وهو من علماء القرن الثالث عشر الهجري – وغيره.[3] (23)

وفي مطلع القرن الرابع عشر الهجري بدأت الهمم تتجه إلى مباحث علوم القرآن الكريم ، وبحث قضاياه ، ومن ثم ظهرت المؤلفات الكثيرة المتتالية التي تعالج الموضوعات القرآنية بأسلوب العصر الحديث .. **ومن هذه المؤلفات :**

– التبيان في علوم القرآن للشيخ طاهر الجزائري ، ومذكرة في علوم القرآن للشيخ محمود أبو دقيقة ، ومنهج الفرقان في علوم القرآن للشيخ محمد على سلامة ..

وألف الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي كتابه القيم : إعجاز القرآن ، وللشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز كتابه الفريد : النبأ العظيم ، وكتاب دستور الأخلاق في القرآن ، وللمرحوم سيد قطب كتابين هما : التصوير الفني في القرآن ، ومشاهد القيامة ..

ولشيخنا عبد المجيد غزلان كتاب : البيان في مباحث من علوم القرآن ، ولشيخنا العلامة الدكتور محمد محمد أبو شهبة كتاب : المدخل لدراسة القرآن الكريم .

---

[1] – الاتقان-3/1

[2] – مناهل العرفان37/1

[3] – المدخل لدراسة القرآن الكريم – ص41 .

.وللشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني كتاب : مناهل العرفان في علوم القرآن – وهو من أشمل الكتب التي تعرضت لهذا الموضوع ، ولشيخنا الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس كتابا شاملا في علوم القرآن مستوعبا لمعظم مباحثه ، بأسلوب علمي مبسط أسماه : **إتقان البرهان في علوم القرآن** .... ولا تزال المطابع تدفع كل يوم كتابا أو بحثا قيما حول هذا المنهل العذب الذي لا ينفد ولا يغيض ،– والمنهل العذب كثير الزحام– الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين. [1].

[1] – مناهل العرفان– 1/21–33 ، وبصائر الجنان د. محمد ابراهيم – 25–50، والمدخل لدراسة القرآن–ص27–43

نزول القرآن

نزل القرآن على رسولنا محمد – ﷺ–، منجما حسب الوقائع والأحوال ، خمس آيات ، وعشر آيات ، أو أكثر أو أقل ، وقد صح نزول عشر آيات في قصة الافك ، وصح نزول (غير أولي الضرر..)(النساء : 95) وهي بعض آية وكذا قوله تعالى (وإن خفتم عيلة..) (التوبة : 28) إلى آخر الآية ، وصح نزول– المرسلات – جملة واحدة ، وصح نزول عشر آيات من أول سورة (المؤمنون) جملة ، وأخرج الطبراني وأبوعبيد في فضائل القرآن عن ابن عباس – رضي الله عنهما– قال:– نزلت سورة الانعام بمكة ليلا جملة ، حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح) [1] ، وتم نزوله في بضع وعشرين سنة .

وكان نزول القرآن على نوعين :

نوع نزل ابتداء ، ونوع نزل عقيب واقعة أو سؤال ...

تثبيتا للنبي – ﷺ–وتسلية له ، وتدرجا مع الاحداث والوقائع ، حتى أكمل الله الدين وأتم النعمة .

النزول في اللغة :

جاءت مادة "نزل" في اللغة بتصريفات كثيرة: نزل، وأنزل، وتنزل، ونزّل.. وغير ذلك. كما جاءت هذه المادة بكثرة في القرآن الكريم بتصريفاتها المختلفة حيث بلغت أربعة وأربعين تصريفاً في (295) آية. (2)

والنزول في الأصل: انحطاط من علو إلى سفل.(3) فيقال نزل فلان من الجبل، ونزل عن الدابة.

ويطلق على الحُلول فيقال: نزل فلان في المدينة أي حل بها، والإنزال: الإحلال، قال تعالى: [رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين] (سورة المؤمنون: 29).

---

[1] – الشوكاني : فتح القدير : 2:96.

(2) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم، وضع مجمع اللغة العربية، مادة نزل (509/2). ومعجم الألفاظ والأعلام القرآنية، د. إسماعيل إبراهيم (227).

(3) مفردات الراغب الأصفهاني (744).

النزول في القرآن الكريم :

ورد لفظ "النزول" في القرآن الكريم، على ثلاثة أنواع:(1)

النوع الأول: نزول مقيد بأنه من الله جل وعلا.

النوع الثاني: نزول مقيد بأنه من السماء.

النوع الثالث: نزول مطلق غير مقيد بهذا أو بذاك.

فالنوع الأول وهو المقيد بأنه من عند الله تعالى اختص بالقرآن الكريم ، فلم يرد إلا معه في آيات كثيرة، كقوله تعالى:

1 - [قل نزله روح القدس من ربك بالحق] (النحل: 102).

2- [تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم] .(2)

وهذا التنصيص بأنه من الله – جل وعلا – وتخصيص القرآن بذلك له دلائله: ففيه بيان أنه منزل من الله ، لا من مخلوق من مخلوقات الله. كما تقول بذلك بعض الطوائف. وفيه بيان بطلان القول بخلق القرآن. وبطلان القول بأنه فاض على نفس النبي – صلى الله عليه وسلم – من العقل الفعال أو غير ذلك من أقاويل أهل الكلام والفلسفة. (3)

وأما النوع الثاني: وهو النزول المقيد بأنه من السماء. فيتناول نزول المطر من السحاب، ونزول العذاب، ونزول الملائكة من عند الله. وغير ذلك.فقد ورد في آيات كثيرة ذكر إنزال الماء من السماء. كقوله تعالى:

1- [وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم](البقرة: 22)

2- [وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها] (البقرة: 164)

والمراد بالسماء في هذه الآيات: السحاب ، أو مطلق العلو ، فالسماء : اسم جنس لكل ما علا وارتفع.

وجاء في إنزال العذاب من السماء قوله تعالى:

1- [فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من العذاب بما كانوا يفسقون] (البقرة: 59)

2- [إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء] (العنكبوت: 34) والرجز هو العذاب.

وأما النوع الثالث: وهو الإنزال المطلق فهو عام لا يختص بنوع خاص من الإنزال. من ذلك قوله سبحانه:

---

(1) انظر: الفتاوى لابن تيمية (12/246،118)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (1/196) والتبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن للشيخ طاهر الجزائري (64).

(2) في ثلاثة مواضع: سورة الزمر/1، وسورة الجاثية/2، وسورة الأحقاف/2.

(3) انظر: الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (12/120).

[وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس] (الحديد: 25) فقد فسر قوله: [وأنزلنا] بجعلنا، وأظهرنا ، وخلقنا.(1) وغيرها من الآيات، حيث لم يرد فيها تعيين المنزل منه. كما ورد في النوعين قبله، فهو إنزال مطلقٌ يفَسر بحسب السياق، أو بما ورد موضحاً له في مواضع أخرى.

مدة نزول القرآن الكريم

اختلف العلماء في تحديد مدة نزول القرآن الكريم على الرسول – ﷺ–، والمعتمد كما يقول ابن حجر أنه– صلى الله عليه وسلم– عاش ثلاثاً وستين سنة ، كما أنه بعث – ﷺ– على رأس أربعين سنة. كما قال النووي: "واتفقوا أنه – صلى الله عليه وسلم– أقام بالمدينة بعد الهجرة عشر سنين ، وبمكة بعد النبوة وقبل الهجرة ثلاثة عشر عاما ، فيكون عمره ثلاثاً وستين ، وبعث على رأس أربعين سنة ، وهو الصواب المشهور الذي أطبق عليه العلماء".(2) وقد حاول الشيخ محمد الخضري اختيار تحديد دقيق للمدة فذكر أن مدة مقامه – صلى الله عليه وسلم– بمكة هي اثنتا عشرة سنة، وخمسة أشهر، وثلاثة عشر يوماً. ومدة إقامته بالمدينة بعد الهجرة هي تسع سنوات، وتسعة أشهر، وتسعة أيام ، فصارت المدة بين مبتدأ التنزيل ومختتمه اثنتان وعشرون سنة وشهران واثنان وعشرون يوماً.(3) والصحيح أن أول يوم أنزل فيه القرآن هو يوم الاثنين. لحديث أبي قتادة الأنصاري الصحيح، وفيه: وسئل عن صوم يوم الاثنين. قال: "ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت ، أو أنزل عليّ فيه"(4) . قال الواحدي: وأول يوم أنزل القرآن فيه يوم الاثنين.(5) واختلفوا في شهر إنزال القرآن الكريم على الرسول – صلى الله عليه وسلم– على أقوال: والراجح أنه في شهر رمضان ، وجعله ابن كثير: هو المشهور. فقال: والمشهور أنه بعث –عليه الصلاة والسلام –في شهر رمضان كما نص على ذلك عبيد بن عمير، ومحمد بن إسحاق وغيرهما.(6)

---

(1) انظر تفسير الماوردي (483/5).

(2) شرح صحيح مسلم للنووي (99/15)، وانظر الزيادة والإحسان (252/1).

(3) انظر تاريخ التشريع (5).

(4) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث طويل. كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام، حديث 1162، (819/2).

(5) أسباب النزول للواحدي. تحقيق السيد أحمد صقر (13).

(6) انظر السيرة النبوية (392/1).

مقدار التنزيل

ثبت نزول الكريم على الرسول- ﷺ- منجماً مفرقاً ابتداء أو حسب الحاجة والوقائع. وغالب القرآن الكريم نزل آيات مفرقات وبعضه نزل سوراً كاملة، ونزلت سورتان من قصار السور معاً هما المعوذتان.

فأول ما نزل من القرآن الكريم الآيات **الخمس الأولى من سورة العلق**. وهي قوله تعالى: [اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم] ثم نزل باقيها بعد نزول سورة المدثر.

كما نزلت **الخمس الآيات الأولى من سورة الضحى** إلى قوله: [ولسوف يعطيك ربك فترضى] وصح نزول عشر آيات من قصة الإفك جملة واحدة من سورة النور. وصح كذلك نزول عشر آيات جملة من أول سورة المؤمنون. ونزلت آية [اليوم أكملت لكم دينكم] (المائدة: 3) في عرفة في يوم جمعة. وصح نزول قوله [غير أولي الضرر]وحدها، وهي بعض آية. فقد أخرج البخاري من حديث البراء بن عازب – رضي الله عنه – قال: لما نزلت: [لا يستوي القاعدون من المؤمنين] (النساء: 95) دعا رسول الله –صلى الله عليه وسلم –زيداً فكتبها فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته: فأنزل الله: [غير أولي الضرر](1) وكذا قوله: [وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم] (التوبة: 28) نزلت بعد نزول أول الآية، فهي بعض آية.(2) وقد تنزل السورة كاملة ومن ذلك سورة الفاتحة، والإخلاص، والكوثر، والمسد، والنصر، والمرسلات، والصف.. وغيرها.(3) ولا شك أن هذه المتابعة الدقيقة من قبل العلماء لجزئيات نزول القرآن الكريم في وقته، وصفته، ومقداره، ويوم إنزاله، وشهره، وكون ذلك ليلاً ونهاراً، حضراً وسفراً؛ دليل عناية الأمة البالغة بالقرآن الكريم التي ميز الله بها كتابه فصارت من خصائصه التي تفرد بها، وجعلها الله وسيلة حفظ كتابه الذي تكفل به في قوله سبحانه: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ](الحجر:9).

نزول القرآن على محمد- ﷺ- دليله وحكمته :

لا يرتاب أحد لا من أهل الإسلام ولا من غيرهم ، أن محمدا- ﷺ- قد ادعى أن قد جاءه قرآن من عند الله ، نزل عليه به جبريل أمين الوحي –عليه السلام- وهو ذلك القرآن الماثل بين أيدينا اليوم ملء السمع والبصر ، فهي إذن دعوى

---

(1) أخرجه البخاري. كتاب التفسير، باب 18 لا يتسوي القاعدون من المؤمنين.. (182/5-) وانظر: سنن أبي داود (17/3) والمرشد الوجيز (34-) وأسباب النزول للواحدي (168-) وانظر الإتقان (155/1).

(2) انظر تفسير الطبري (194/14). والتبيان للشيخ طاهر الجزائري (59).

(3) انظر: الإتقان (136/1). والزيادة والإحسان (399/1).

متواترة ، لها أعظم وأوفر ما يتصور من درجات التواتر المفيد للعلم القطعي الضروري بصدور الدعوى عن صاحبها ، ومع ذلك فقد صرح هذا القرآن المتواتر عن محمد- ﷺ-، في غير ما موضع منه بكونه منزلا من قبل الله ، **يُصَدِّقُهُ في هذا التصريح** : واقع إعجازه ، وصرامة تَحدِّيه التي لا تزال ولن تزال شامخة تطاول النجوم فتطولها ، وتصرخ في سمع الدنيا كلها : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)(الإسراء: 88) . ثم إن هذا القرآن إذا أمعنت النظر فيه من أوله الى آخره ، تجده محكم السرد ، دقيق السبك، متين الأسلوب ، قوي الاتصال آخذ بعضه بزمام بعض في آياته وسوره ، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه الى يائه ، كأنه سبيكة واحدة ، لا يوجد بين أجزائه تفاوت نظمت حروفه وكلماته ، ونسقت جمله وآياته وجاء آخره مساوقا لأوله ، وبدا أوله مواتيا لآخره ، وصدق منزله إذ يقول :- (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)(النساء: 82) . ومع أنه نزل مفرقا منجما ، لكنه تم مترابطا محكما ، تفرقت نجومه تفرق الأسباب ولكن اجتمع نَظمُهُ اجتماع شمل الأحباب ، ولم يتكامل نزوله إلا بعد عشرين عاما ، ولكن تكامل انسحامه بداية وختاما ، أليس ذلك برهانا ساطعا على أنه كلام خالق القوى والقدر بل إن القرآن الكريم ينطق نزوله منجما بأنه كلام الله وحده قال تعالى : - (قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما)(الفرقان: 6) .

ما الذي نزل به جبريل على النبي- ﷺ- من القرآن: ..؟

من الممكن أن يثور في النفس سؤال ، ما الذي نزل به أمين الوحي جبريل- عليه السلام- من هذا القرآن على النبي- صلى الله عليه وسلم- ؟ هل هو لفظ القرآن ومعناه جميعا ، أو هو قد تلقى عن الله تعالى المعنى فحسب ، ثم قام بصياغة القوالب اللفظية لهذا المعنى ؟ أم نزل المعنى فقط على محمد- ﷺ-فصاغ للمعاني ما يناسبها ويفي بها من الألفاظ العربية..؟ وأجاب شيخنا الشيخ عبد الوهاب غزلان-رحمه الله- عن هذه التساؤلات بقوله:- (في القرآن آيات كثيرة تدل أبلغ الدلالة وأوضحها على أن الذي تلقاه جبريل ، ونزل به على النبي-صلى الله عليه وسلم- هو القرآن بألفاظه ومعانيه ، لا أنه تلقى المعاني فقط، وعبر عنها بألفاظ من عنده ،أو نزل بالمعاني فقط على النبي- ﷺ-، وعبر النبي عها بألفاظ من عنده ، ولنذكر بعض الأمثلة :-

1- قال تعالى : - (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا(الإسراء: 45) .

وقال تعالى :- (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم)(النحل : 98) ، دلت هاتان الآيتان على أن القرآن شيء يقرأ بالألسنة ، والذي يقرأ بالألسنة هو الألفاظ لا المعاني مجردة عن الألفاظ .

2- قال الله تعالى : (ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ..)(الجاثية: 7) . دل قوله - يسمع آيات الله تتلى عليه- على أن آيات القرآن شيء يسمع بالآذان ، ويتلى بالألسنة ، والذي يسمع بالآذان

ويتلى بالألسنة ، هو الألفاظ لا مجرد المعاني ، وقد أضيفت الآيات فيها الى الله ، فدل ذلك على أنها من عنده لا من عند غيره .

3- قال الله تعالى :- (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ...)(الكهف: 1) .الكتاب : هو ما يكتب ، والذي يكتب هو الألفاظ لا المعاني .. ومع هذه البراهين القوية الواضحة ، فقد زعم بعض الناس أن ألفاظ القرآن ليست من عند الله ، وإنما الذي هو من عنده هو المعاني فقط ، ثم اختلف أصحاب هذا الزعم في ألفاظ القرآن من أين جاءت ، فادعى بعضهم أنها من صنع جبريل ، فإنه -عليه السلام - ألقيت إليه المعاني فقط ، فوضع لها هذه الألفاظ ، ونزل بها على النبي- صلى الله عليه وسلم-. **وقال بعضهم** :بل هي من صنع النبي- صلى الله عليه وسلم -، فإن جبريل نزل عليه بالمعاني فقط ، فعبر عنها هو بهذه الألفاظ **والقائلون بنزول المعنى دون اللفظ** ، يَدَّعون أن الأسلوب الذي عبر به عن هذا المعنى هو من صنع جبريل ، أو من صنع النبي - ﷺ- لا من صنع الله، وعلى هذا تكون الآيات الدالة على أن القرآن معجز ليست بصادقة . ويستلزم هذا القول أن في القرآن تناقضا وأنه ليس بمعجز ، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا القول عن مسلم صادق في اسلامه ، فهو إما مدسوس على المسلمين في كتبهم، وإما صادر عن من يُعَدُّ في المسلمين وليس في الحقيقة منهم [1] .

الحكم والأسرار في تنجيم القرآن

لاشك أن في نزول القرآن منجما -مفرقا- على حسب الوقائع والأحداث حِكَما وأسراراً عظيمة، كيف وذلك التنجيم ممّن أنزل القرآن وهو سبحانه أعلم بما يُصلح عباده [ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير] (الملك : 14). يعلم سبحانه المنهج الصالح لتربية الأمّة ، المنهج الذي يجعلها أمّةً منقادة لأوامر الله، منتهية عن مساخطه.

ونلخص هنا بعض الحكم التي ذكرها العلماء والباحثون في هذا المجال:-

1- **الحكمة الأولى** : تثبيت فؤاد النبي - ﷺ- وتطمين خاطره وقلبه وقد أشار الحق تبارك وتعالى إلى هذه الحكمة في قوله [كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا] (الفرقان : 32.)ويندرج تحت هذه الحكمة حكم كثيرة.

وقد بين الله أن سنته في أنبيائه السابقين أنهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى جاءهم نصر الله، وبيَّن كذلك أن قومه ما كذبوه إلا استكبارا وعلوا، وردّاً للحَق، فيجد الرسول - ﷺ-في ذلك تسلية له قال تعالى [قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون] (الأنعام : 33).

2 - **من الحكم البارزة تيسير حفظ القرآن الكريم وفهمه على النبي** - ﷺ-فقد كان النبي - ﷺ- حريصاً على ذلك

---

[1] - البيان في مباحث من علوم القرآن : ص 53-60 بتصرف يسير.

غاية الحرص، حتى إنه كان يعاجل جبريل ولاينتظره حتى يفرغ حتى أنزل الله [ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما] (طه الآية 114). وقال تعالى [لاتحرك به لسانك لتعجل به* إن علينا جمعه وقرآنه* فإذا قرأناه فاتبع قرآنه* ثم إن علينا بيانه] (القيامة : 16-19).

هذا وإن القرآن الكريم نزل على أمة أمية لاتعرف الكتابة ولا القراءة وكانت ذاكرتها وحفظها هما السجلُّ لها، فلو نزل القرآن جملة واحدة على هذه الأمة الأمية التي لاتعرف الكتابة ولا التدوين لم يصح لها أن تحفظ القرآن كله بيسر، وكان نزوله مفرقاً أكبر عون لها على حفظه في صدورها وفهمها لآياته.

3- **من الحكم كذلك التدرج في تربية الأمة دينيا وخلقيا واجتماعيا** وهذه الحكمة أشار إليها القرآن في قوله [وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا] (الإسراء : 106)

لقد تدرج القرآن الكريم في انتزاع العقائد الفاسدة والعادات الضارة والمنكرات الماحقة، فقد بعث النبي - ﷺ- إلى قوم يعبدون الأصنام ويشركون بالله، ويسفكون الدماء، ويئدون البنات ويشربون الخمر ويقتلون النفس لأتفه الأسباب، ويفعلون القبائح ، ومعلوم أن النفس يشق عليها ترك ما ألفته وتعودته مرة واحدة، كما يصعب رجوعها وإقلاعها عما اعتقدته بمجرد النهي عنه ، فللعقائد والعادات سلطان على النفوس، والناس أسرى ماألفوا ونشأوا عليه، فلو أن القرآن نزل جملة واحدة، وطالب بالتخلي عما هم منغمسون فيه من الكفر والجهل والمنكرات مرة واحدة ، لما استجاب إليه أحد.

لذلك اقتضت حكمة الله أن يتدرج القرآن في انتزاع العقائد الفاسدة فينهى أولا عن عبادة غير الله فإذا ما أقلعوا عنه، أخذ في النهي عن منكر آخر وهكذا تدرج القرآن معهم في انتزاع المنكر الواحد كما حدث في تحريم الخمر ... وقد أشارت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - إلى هذه الحكمة كما في صحيح البخاري[1] قالت عائشة: إنما نزل من القرآن أول مانزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لاتشربوا الخمر لقالوا لاندع الخمر أبدا، ولو نزل لاتزنوا لقالوا لاندع الزنى أبدا.

4 -- **من الحكم كذلك، تثبيت قلوب المؤمنين وتعويدهم على الصبر والتحمل** بذكر قصص الأنبياء، ومالاقوه وأن العاقبة للمتقين كقوله تعالى [وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم](النور الآية 55) وكقوله [الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين] (العنكبوت الآية 1-3).

5 - **التحدي والإعجاز:** فالمشركون تمادوا في غيهم وبالغوا في عتوهم، وكانوا يسألون أسئلة تعجيز وتحدّ يمتحنون بها

---

(1) مناهل العرفان في علوم القرآن 56/1،ومابعدها، صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن رقم الحديث 4993.

رسول الله – ﷺ– في نبوته، وحين عجبوا من نزول القرآن منجماً بين الله لهم الحق في ذلك، فجاءت الآية عقب اعتراضهم [لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة] (الفرقان:32). ويشير لهذه الحكمة ماجاء في بعض الروايات من حديث ابن عباس عن نزول القرآن : فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً. (1).

فنزوله منجماً مفرقاً من أقوى الأدلة على أنه معجز وأنه كلام الله، إذ لو أنزله الله جملة واحدة لكانت لهم حجة أن يقولوا شيء نزل علينا مرة واحدة، فلو نزل علينا مفرقا لعارضناه فقطع الله عليهم تلك الحجة فكأنه يقول لهم إن كنتم تقولون إنه ليس كلام الله، فأتوا بسورة مثله أو بعشر سور، أو آية، فسجل عليهم العجز الأبدي. ومع نزوله مفرقاً على مدى بضع وعشرين سنة كان غاية في روعة الأسلوب ورصانة الألفاظ، لاتفاوت فيه، فكان بذلك معجزا. (2)

6 – ومن الحكم كذلك: الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد. فمن المعلوم أن القرآن الكريم نزل مفرقا على مدى ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث، ومع طول هذه الفترة، كانت تنزل منه الآية والآيات الكثيرة، والآيات القليلة على اختلاف الموضوعات ومع ذلك كان أسلوبه أسلوباً واحداً لم يتغير في فصاحته وجزالته وقوته، فأسلوبه واحد، مترابط بعضه ببعض، لا انفكاك فيه متناسق الآيات والسور كأنه عقد واحد [كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير] فلو كان من كلام البشر وقد قيل في مناسبات كثيرة، وموضوعات مختلفة متباينة، لوقع فيه التفكك والانفصام قال تعالى [ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً] (النساء : 82) .

---

(1) – انظر : الاتقان في علوم القرآن 116/1 ومابعدها .

(2)– انظر : الاتقان في علوم القرآن 116/1 ومابعدها ، ومناهل العرفان في علوم القرآن 46/1–55 . ومنة المنان : 99–111. وانظر بحث د. محمد عمر حوية :نزول القرآن وتاريخه

أول ما نزل من القرآن ... وآخر ما نزل

أول القرآن نزولا :

المدار في هذا المبحث على التوفيق والنقل عن الصحابة ومن تبعهم ، ومجال العقل فيه لا يعدو الجمع بين الروايات التي يظهر التعارض بينها ، والترجيح بين الأدلة .

وقد ذكر العلماء في ذلك أربعة أقوال:

القول الأول : – إن أول ما نزل قوله تعالى [اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم] (العلق: 1–5) . روى الحاكم في مستدركه والبيهقي في دلائل النبوة وصححاه عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت أول سورة نزلت من القرآن [اقرأ باسم ربك] ومرادها بالسورة : صدرها (1).

القول الثاني:– أن أول مانزل قوله تعالى [يأيها المدثر ... إلى قوله ... والرجز فاهجر] ..من رواية جابر بن عبد الله وأجاب أهل القول الأول عن هذا بأجوبة أحسنها : أن [يأيها المدثر] أول مانزل بعد فترة الوحي، أما اقرأ فهي أول ما نزل على الإطلاق(2). **و لا تعارض بين القولين** ، لأن قصد – جابر– أن سورة المدثر نزلت بكمالها ، قبل نزول تمام سورة اقرأ ، إذ أن أول ما نزل منها صدرها ، وعلى هذا لا يكون هناك خلاف بين جابر وعائشة – رضي الله عنهما – في أن قوله تعالى (يا أيها المدثر) ليس أول ما نزل من القرآن ، بل هو مسبوق بنزول(اقر باسم ربك). [3]
والقول بأولية المدثر أولية مطلقة من حيث النزول هو من الباطل ، كما حلا للنووي أن يصفه في شرح مسلم [4]

القول الثالث: – أن أول مانزل سورة الفاتحة وقد عزا هذا القول الزمخشري في كشافه(5) إلى أكثر المفسرين، ورد عليه

---

1 – الاتقان في علوم القرآن 68/1.

2 – الاتقان 68/1، المدخل 104/1.

[3] – كتاب البيان في مباحث من علوم القرآن : 76–79.

[4] – انظر : منة المنان : 1: 327 . وانظر : شرح النووي لصحيح مسلم : 2: 206. وفتح الباري : 2: 480 .

5 – مستدرك الحاكم 240/2 رقم 2873.

الحافظ ابن حجر[1] بأن هذا القول لم يقل به إلا عدد أقل من القليل . وقال النووي في شرح مسلم :- (وأما قول من قال من المفسرين : أول ما نزل : الفاتحة ، فبطلانه أظهر من أن يذكر ..)[2]

القول الرابع:- إن أول مانزل [بسم الله الرحمن الرحيم] وهذا القول ضعيف ، ولضعفه أعرض الزركشي عنه ولم يشر إليه . وعلى هذا يتضح أن صدر سورة العلق هو أول ما نزل من القرآن على الاطلاق ، وهو أصح الأقوال ، وذلك لقوة أدلته ، وأن أول ما نزل بعد نجم العلق ، هو نجم المدثر .. والله أعلم .

آخر ما نزل من القرآن مطلقاً

لم يرد في آخر ما نزل من القرآن الكريم شيء مرفوع الى النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وإنما ورد في ذلك أقوال وآثار مروية عن بعض الصحابة والتابعين ، استنتجوها من مشاهداتهم للنزول، وملابسات الأحوال ..

ومن هذه الأقوال :

1 - **القول الأول** : إن آخر ما نزل قوله تعالى في آخر سورة البقرة [واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون] (البقرة : 281)..

2- **القول الثاني:** - أن آخر ما نزل هو قوله تعالى في سورة البقرة [ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا إن كنتم مؤمنين] (البقرة : 278) .

3 - القول الثالث: - أن آخر آية نزلت آية الدين[ياأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه] (البقرة : 282). **هذا: وقد جمع السيوطي في الإتقان** بين هذه الأقوال الثلاثة فقال: (ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا ، وآية الدين، لآن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ، ولأنها في قصة واحدة)[3] .

وقد رد الدكتور ابراهيم خليفة ، رأي الشيخ أبو شهبة في ترجيحه لآخرية (واتقوا يوما ...) كما رد ترجيح الشيخ الزرقاني ، وقال : (إن جملة ما قاله شيخنا أبو شهبة في هذا المجال مما لا وزن له ، لا من حيث الصنعة الحديثية ، ولا من حيث التحقيق العلمي السليم وأن جَمْعَ السيوطي بين الأقوال الثلاثة هو على غاية ما يكون من الاستقامة ، وإصابة شاكلة الصواب ، وبحيث لا يسوغ العدول عنه لمنصف ...)[4] .

---

1 - فتح الباري 8/550-551.

[2] - شرؤح النووي لصحيح مسلم : 2: 208 .

[3] - انظر : هامش البيان في مباحث من علوم القرآن : 84.

[4] - منة المنان : 2: 369-372.

التنبيه الى خطأ شائع

قال الشيخ عبد الوهاب غزلان : – (مما يتبادر إلى الذهن من أن المراد بإكمال الدين فيها : أنها آخر ما نزل من القرآن ، لم يقل به أحد من علماء السلف فيما أعلم ، وإنما الخلاف بينهم في أنه هل نزل بعدها آيات في الحلال والحرام ، فيكون المراد بإكمال الدين فيها : إكمال سلطانه .. أو لم ينزل بعدها آيات في الحلال والحرام ، وإنما الذي نزل بعدها كان في أغراض أخرى ، فيكون المراد بإكمال الدين فيها : إكمال أحكامه وعلى كل من القولين : لا يكون المراد بإكمال الدين فيها : أن القرآن تم نزوله بنزولها ، خلافا لما ذهب إليه بعض أجلة العلماء المتأخرين ....)[1] .

[1] – – قال بذلك الشيخ محمد الخضري في كتابه : تاريخ التشريع الاسلامي ص 6 ، والشيخ محمد عبد العزيز الخولي في كتابه : القرآن ...ص4–5 .وانظر : البيان في مباحث من علوم القرآن : ص 89–90.

ب – أسباب النزول

يعد علم أسباب النزول من أهم العلوم القرآنية للمفسر ، لأنه يحول دون الفهم الخاطئ والتأويل الباطل ، وكأين من آية إذا شرحت دون معرفة سبب نزولها فإن تفسيرها لا يسلم من الاضطراب أو التناقض مع غيرها من الآيات ، والقرآن الكريم كتاب الله المحكم ، لا يعرف تناقضا أو تعارضا بين آياته [1]، (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)(النساء: 82) .

وليس من الضروري أن يكون لكل آية من القرآن الكريم سبب نزول ، بمعنى : حادثة معينة اقتضت نزولها ، فمن الآيات ما أنزلها الله ابتداء من غير أن يكون لها سبب ، وهذا كثير في القرآن الكريم ، مثل آيات الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، ومثل الآيات التي قصت علينا قصص الأنبياء والمرسلين ، فإن ذلك كله كان ينزل ابتدءاً ، من قبل الله تعالى للتشريع أو التذكير .

ومن الآيات ما أنزلها الله تعالى ولها سبب اقتضى نزولها ، وهذا أيضا يمثل جانبا لا بأس به من القرآن الكريم ، مثل الآيات التي نزلت في قصة الإفك ، والآيات التي نزلت إجابة على أسئلة أهل الكتاب والمشركين عن الروح وغيرها، على سبيل التعنت والإحراج أو على أسئلة من قبل المسلمين ، على سبيل التعلم والاسترشاد ، وليس القصد فيما نحن بصدده استقصاء هذه الآيات النازلة على أسباب ، وإنما القصد هو بيان قواعد هذا العلم ، وأصوله ، وفروعه ، مما سيأتي بيانه .

معنى أسباب النزول :–

لفظ أسباب النزول مركب إضافي من كلمتين : فالأسباب جمع سبب ، **والسبب** هو : كل ما يتوصل الى غيره ، قال ابن منظور :– (وفي الحديث : كل سبب ونسب ينقطع إلا سببي ونسبي) – النسب بالولادة والسبب بالزواج –، وهو من السبب ، وهو الحبل الذي يتوصل به الى الماء ، ثم استعير الى كل ما يتوصل به الى شيء ، كقوله تعالى (وتقطعت بهم الأسباب) – البقرة : 166) – أي : الوصل والمودات)[2] ...

وقد استعير السبب الى الحادثة التي من أجلها نزلت آية أو آيات من القرآن الكريم لأنه يتوصل به الى معنى تفسير الآية ، أو الوقوف على قصتها ، وإزالة الإشكال عنها .

---

[1] – انظر مفتاح السعادة ومصباح السيادة :– طاش كبرى زاده 349/2

[2] – لسان العرب 440/1

والنزول:- قال الراغب في مفرداته :- (النزول في الأصل هو الانحطاط من علو ، يقال نزل عن دابته ، ونزل في مكان : إذا حط رجله فيه ، ونزل بكذا وأنزله ، بمعنى ... وإنزال الله نعمه ونقمه على الخلق وإعطاؤهم إياها ، وذلك إما بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن ، وإما بإنزال أسبابه ، والهداية إليه ، كإنزال الحديد واللباس.. ونحو ذلك)[1] .**وعلى هذا يكون معنى هذا المركب الإضافي هو** : ما يتوصل به الى معرفة سبب نزول القرآن .

تعريف سبب النزول في الاصطلاح :-

لسبب النزول تعريف عند علماء التفسير والدراسات القرآنية ، فقد عرفوه بقولهم :- (**هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه ، أو مبينة لحكمه أيام وقوعه ، كحادثة أو سؤال**)[2] فهو حادثة وقعت في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم _ ، أو سؤال وجه إليه فتنزل الآية أو الآيات من الله تعالى لبيان ما يتصل بتلك الحادثة أو جواب هذا السؤال ...

والسؤال – كما أسلفنا – إما أن يكون من قبل المسلمين على سبيل التعلم والاسترشاد ، كسؤالهم عن الأهلة ، وعن الخمر والميسر ، وعن الإنفاق وعما ينفقون وإما أن يكون من اليهود والمشركين على سبيل التعنت والإحراج ، كسؤالهم عن الروح ، وعن ذي القرنين ، وعن الساعة ، وغير ذلك .

وقولهم (ما) في التعريف : هو اسم موصول بمعنى الذي .. وهو عبارة عن حادثة أو سؤال ، والحادث إما أن يكون **خاصا أو عاما والخاص** ..كقصة الإفك ، التي كانت سببا في نزول قوله تعالى :- (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لاتحسبوه شراً لكم بل هو خيراً لكم ... الآيات) (النور:11)

أما العام : كغزوة بدر ، التي كانت سببا لنزول قول الله تعالى :(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ..) (الأنفال : 5) .

وقولهم في التعريف :- (أيام وقوعه) :- قيد للاحتراز عن الآية أو الآيات التي تنزل ابتداء من غير أسباب ، بينما هي تتحدث عن بعض الوقائع والأحوال الماضية ، مثل الحديث عن بعض قصص الأنبياء السابقين وأممهم ، والأحوال والوقائع المستقبلية، مثل الحديث عن الساعة وما يتصل بها ، وهو كثير وواضح في القرآن الكريم . ولذلك يكون من الإفراط في علم سبب النزول ، أن يجعل منه ما هو من قبيل الإخبار عن الأحوال الماضية ، والوقائع الغابرة .. فالحوادث القديمة ، وقصص الأنبياء السابقين ، لا تعتبر أسبابا للنزول لأنها لم تقع في زمن النبي – ﷺ- .

---

[1] – مفردات الراغب ص 488

[2] – الإتقان 31/1 ، وانظر مناهل العرفان 99/1

قال السيوطي :- (والذي يتحرر في زمن النزول : أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ، ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره لسورة الفيل ، من أن سبب نزولها ، قصة قدوم الحبشة به ، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء ، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود ، وبناء البيت ونحو ذلك ، وكذا ذكره في قوله (واتخذ الله إبراهيم خليلا) (النساء : 125) سبب إتخاده خليلا ، فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى) [1] وهذا لا يمنع أن يكون لبعض هذه القصص والأخبار الماضية أسباب نزول .

كما روى الواحدي [2] عن سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – في نزول قوله تعالى :- (نحن نقص عليك أحسن القصص ..) – (يوسف :3) – قال : – أنزل الله القرآن على رسول الله – ﷺ- فتلاه عليهم زمانا ، فقالوا يا رسول الله ؛ لو قصصت علينا ، ، فأنزل الله تعالى :- (الر . تلك آيات الكتاب المبين.. إلى قوله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص .) -(يوسف : 1-3) ، فنلاحظ هنا أن سبب النزول هو قول الصحابة – رضي الله عنهم – لو قصصت علينا ، وهذا القول سؤال وقع في زمن النبي – ﷺ- فنزلت بعدها الآيات ، وليس السبب ما تحدثت عنه الآيات عن قصة يوسف – عليه السلام – لأنها وقعت في الأزمان الماضية .

فوائد معرفة سبب النزول :-

لا ريب في أن علم أسباب النزول يبين أحوال وملابسات نزول كثير من آيات القرآن الكريم ، ولابد أن يلم به كل من يشتغل في تفسير الكتاب العزيز ، وقد أكد على ذلك أئمة الإسلام وعلماء التفسير .**وقال ابن تيميه** :- (معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب)[3] **وقال ابن دقيق العيد** : -(معرفة سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن)[4] ... وقد جعل الزركشي[5] والسيوطي [6] معرفة أسباب النزول من الأمور التي لابد منها للمفسر .

---

[1] – الإتقان 31/1

[2] – أسباب النزول للواحدي ص 203 ، وأنظر تفسير ابن كثير ، 467/2

[3] – الإتقان 38/1

[4] – الإتقان 28/1

[5] – الموافقات 225/3

[6] – البرهان 13/1

وقال شيخنا الدكتور محمد حسين الذهبي : – (معرفة أسباب النزول وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات تعين على فهم كثير من الآيات)[1] .فالعلم بأسباب النزول ضروري لكل من يشتغل بعلوم الشريعة الإسلامية من مفسر، وأصولي ، وفقيه ، لما يترتب على ذلك من فوائد كثيرة نجملها فيما يلي :–

الفائـدة الأولـى :– إزالـة الإشكال الوارد على الآيـة ، والوقوف على معناها الصحيح ، فهناك آيات يرد على ظاهرها إشكال ، أو يتراءى لقارئها أنها قول على غير ما تقرر من الأحكام ، لكن بمجرد معرفة سبب نزولها يتضح المعنى ، ويزول هذا الإشكال ..

المثـال الأول :– قال الله تعالى : –(ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا وجوهكم فثم وجه الله .. ..) – (البقرة /155) – فهذا اللفظ الكريم يدل بظاهره على أن للإنسان أن يصلي إلى أي جهة يشاء ، ولا يجب أن يولي وجهه شطر البيت الحرام ، لا في سفر ولا في حضر ، وهذا غير مراد من النص، وحينما نعرف سبب النزول ، لا يتعذر فهم المراد من الآية .**قال في البرهان** :– (فإننا لو تركنا ومدلول اللفظ ، لأقتضى أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة سفرا ولا حضرا ، وهذا خلاف الإجماع ، فلا يفهم مراد الآية حتى يعرف سببها ، وذلك أنها نزلت لما صلى النبي – صلى الله عليه وسلم – على راحلته ، وهو مقبل من مكة إلى المدينة ، حيث توجهت به ، فعلم أن هذا المراد)[2]

ومن ذلك نعلم أن الآية نزلت في نافلة السفر خاصة ، حيث يباح التوجه الى أي جهة تبعا للراحلة ، أو أنها نزلت فيمن تحرى القبلة وصلى بإجتهاده ، ثم بان له خطؤه فإنه يعذر في ذلك .. وقيل غير ذلك .[3] وأيا ما كان الأمر ، فالآية لما عرف سبب نزولها ، عرف معناها وزال إشكالها .

المثال الثاني : قال الله تعالى : – (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ..) – (البقرة /158) – فقد فهم عروة بن الزبير عدم فرضية السعي بين الصفا والمروة ، لأن نفي الجناح يفهم منه عدم التكليف .

روى البخاري أن عروة قال لخالته أم المؤمنين عائشة– رضي الله عنها – [أرأيت قول الله تعالى (إن الصفا والمروة من

---

[1] – الإتقان 232/2

[2] – تفسير التحرير والتنوير 41/1 .

[3] – الإتقان 43/1

شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما .. الآية) فو الله ما على أحد جناح ألا يطوف بهما قالت :- بئس ما قلت يا ابن أختي ، إن هذه لو كانت كما أولتها عليه لكانت ، : لا جناح عليه ألا يطوف بهما – لكنها أنزلت في الأنصار ، كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة [1] الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، فكان من أهلَ ، يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة ، فأنزل الله (إن الصفا والمروة .. الآية) ثم قالت عائشة : – قد سن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما] . [2] فبالرجوع إلى سبب نزول الآية زال الإشكال عنها الذي أدى الى فهم خاطئ وهو : عدم شرعية السعي ، وأن من تركه لا إثم عليه ، والأمر خلاف ذلك كما دل عليه سبب النزول .

المثال الثالث : قول الله تعالى :- (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم أنفقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين)- (المائدة /93) ، وقد نزلت عقيب آخر ما نزل في الخمر ، فالذي لا يعرف سبب نزول هذه الآية قد يشتط في فهمها ، ويستنبط منها أن الخمر مباحة ، وقد حدث ذلك فعلا روي أن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه – استعمل – قدامة بن مظعون – على البحرين ، فقدم الجارود على عمر فقال : – إن قدامة شرب فسكر ، فقال عمر : – من يشهد على ما تقول ، فقال الجارود : أبو هريرة يشهد على ما أقول ، فقال عمر :- يا قدامة إني جالدك ، قال :- والله لو شربت كما تقول ما كان لك أن تجلدني ، قال عمر : ولم ؟ قال لأن الله يقول :- (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا .. الآية) فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، شهدت مع رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ بدرا وأحدا والخندق والمشاهد ، فقال عمر : – ألا تردون عليه قوله ؟ .

فقال ابن عباس :- إن هذه الآية نزلت عذرا للماضين ، وحجة على الباقين ، لأن الله تعالى يقول :- (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) – (المائدة / 90) قال عمر :- صدقت)[3] فبين سبب النزول أن الجناح إنما هو مرفوع عمن كانوا يشربونها قبل نزول تحريمها ، فسبب نزول الآية قد أزال

---

[1] – مناة :- نصب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة ، كانت الأوس والخزرج ، ومن ينزل المدينة ومكة وما حولهما وكل العرب يعظمونه ويذبحون ويهدون له – أنظر الأصنام لابن الكلبي ص 1

[2] – انظر صحيح البخاري – وبهامة عانية السندي (201- 202)

[3] – التفسير والمفسرون 10/1

الإشكال ، وبين المراد من الآية ، وبه استعان عمر – رضي الله عنه – في الرد على من أساء فهم الآية ، ولولا سبب النزول لبقي هؤلاء على خطئهم في فهم معنى الآية ، وقد وردت أسباب أخرى ، هي بمعنى ما ذكر[1]

الفائدة الثانية : –

تشريعات الإسلام حافلة بالحكم الكثيرة ، ودراسة أسباب نزول الآيات يعين على إدراك هذه الحكم ، وذلك من خلال دراسة الظروف والأحداث التي نزلت فيها الآيات . ومن هذه الحكم التي يمكن استفادتها ، التيسير على الناس ، ورفع المشقة والحرج عنهم ، ورعاية المصالح العامة للمجتمع الإسلامي والتدرج في التشريع فيزداد المؤمن إيمانا وحرصا على طاعة الله ، وتنفيذ أحكامه ، حينما يقف على هذه الحكم ، ويتجلى له ما فيها من المصالح والمزايا.

ومن الأمثلة على ذلك : الآيات التي نزلت في أمر الخمر ، فعندما نتدبر هذه الآيات نجد أن الله سبحانه وتعالى– وهو العليم الخبير – ، يتدرج بعباده ويربيهم الى أن يصل بهم الى ما يحبه ويرضاه ، وإقتلاع العادات الضارة التي تفسد أنفسهم وأبدانهم .

وأنظر الى آيات اللعان ، والظهار ، حيث يبين سبب النزول في كل منهما ، أن الحكم الذي شرعه الله لهم في ذلك ، قد أزال بالفعل حرجا كان بعض الناس واقعا فيه .

فلولا أسباب النزول ، ما اهتدينا الى هذه الحكم النافعة على وجه التفصيل ومعرفة هذه الحكم تزيد المؤمن إيمانا وثقة في دينه، وما شرعه الله لهم من الأحكام النافعة المبنية على مقاصد عظيمة ، وترغب النافر في الإيمان إذا تبين له سمو التشريع الإسلامي ويسره وسهولته ، وما اشتمل عليه من المنافع والمصالح والمقاصد الحسنة .

الفائدة الثالثة :– معرفة اسم من نزلت فيه الآية ، وتعيين المبهم فيها ، ومثال ذلك في قوله تعالى : (والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن ، إن وعد الله حق ، فسيقول ما هذا إلا أساطير الأولين) – (الأحقاف : 17) فقد أخرج النسائي عن محمد بن زياد قال :– لما بايع معاوية – رضي الله عنه – لإبنه، قال مروان :– سنة أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – فقال عبد الرحمن بن أبي بكر :– رضي الله

[1] – أنظر تفسير ابن كثير 347/1

عنهما – : سنة هرقل وقيصر ، فقال مروان هذا الذي أنزل الله فيه (والذي قال لوالديه أف لكما) فبلغ ذلك عائشة – رضي الله عنها – ، فقالت :– كذب مروان ، والله ما هو به ، ولو شئت أن أسمي الذي أنزلت فيه لسميته) [1]

الفائدة الرابعة :– تيسير الحفظ ، وتسهيل الفهم ، وتثبيت الوحي في قلب من يسمع الآية إن عرف سببها ، وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات ، والأحكام بالحوادث ، والحوادث بالأشخاص ، كل أولئك من دواعي تقرير الأشياء ، وانتقاشها في الذهن ، وسهولة إستذكارها عند إستذكار مقارناتها في الذهن ، وذلك هو قانون تداعي المعاني ، المقرر في علم النفس . [2]

الفائدة الخامسة :– إن معرفة أسباب النزول تعين على فهم مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها .

ومن أمثلة ذلك ما رواه البخاري ومسلم في سبب نزول هذه الآية .. عن عائشة – رضي الله عنها – قالت :– (فلما أنزل الله في براءتي ، قال أبو بكر الصديق –رضي الله عنه – وكان ينفق على مسطح – لقرابته منه وفقره – ، والله لا أنفق على مسطح شيئا بعد الذي قال لعائشة ما قال ، فأنزل الله (ولا يأتل أولوا الفضل منك والسعة ..الآية) ، قال أبو بكر :– بلى والله ، إني أحب أن يغفر الله لي ، فرجع الى النفقة التي كان ينفق عليه وقال :– والله لا أنزعها عنه أبدا)[3]

طريق معرفة أسباب النزول :

لا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح عن الصحابة الذين عاصروا التنزيل ، وشاهدوا الوقائع والحوادث والملابسات التي أحاطت بنزول الآيات ، وعرفوا عنها من رسول الله – ﷺ– ما لم يعرفه غيرهم ، فعنهم وحدهم يؤخذ هذا العلم . وقد اشترط العلماء لقبول سبب النزول الشروط التالية :–

1- أن يصح سنده عن الصحابي .
2- أن يكون مما لا مجال للاجتهاد فيه .
3- أن يكون الصحابي ممن لا يأخذون عن الإسرائيليات .
4- وأن يكون صريحا في السببية .

---

[1] – تفسير ابن كثير 159/4

[2] – مناهل العرفان 106/1–107

[3]– فتح الباري 475/8 ، وانظر أسباب النزول للواحدي ص 335

فإذا توفرت فيه هذه الشروط فله حكم الرفع ، ويعتبر سببا في نزول الآية ، ويؤخذ به في توضيح معناها ، ولا يجوز رده بحال من الأحوال ، كما قرر ابن الصلاح في مقدمته. [1] أما إذا روي سبب النزول عن التابعي فهو خبر مرسل،[2] لسقوط الصحابي منه ، **وحكمه** :- أنه لا يقبل إلا إذا صح سنده ، واعتضد بمرسل أخر ، وكان الراوي من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة – رضوان الله عنهم- كمجاهد ، وعكرمة، وسعيد بن جبير .. [3]

---

[1]- أنظر مقدمة ابن الصلاح – شرح العراقي ص70

[2]- اختلف العلماء في الاجتماع بالمرسل على أقوال ، أنظر (جامع التحصيل لأحكام المراسيل) – للعلائي -تحقيق – عمر حسن ص46

[3] – انظر الإتقان 41/1

المكي..... والمدني

من شواهد اهتمام المسلمين بالقرآن الكريم ، ذلك التتبع الدقيق لمراحل الوحي ، ومعرفة مواطن نزول الآيات ، أو أوقاتها ، وقد أداهم ذلك إلى تمييز ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها ، وما نزل بالنهار وما نزل بالليل ، وما نزل في الحضر وما نزل بالسفر، إلى غير ذلك من الدقة في الاستقراء والاستقصاء ، وهذا يزيدنا ثقة بوصول القرآن الكريم إلينا كما أنزله الله ، لم يلحقه تغيير أو تحريف ، لآن هذا الاهتمام البالغ بمعرفة أماكن نزول الآيات أو زمنها ، يدل على أن الصحابة كانوا حماة لهذا الكتاب الخالد ، فليس معقولا أن يغفلوا بعضه ، أو أن يدعوا أحدا يحاول أن يعبث به ، أو يسيء إليه .

وقد اشتهر مصطلح (المكي والمدني) بين العلماء والباحثين ، أثناء تتبعهم مراحل الوحي ونزول الآيات ، وعنوا به عناية فائقة وأفرده بعضهم بالتأليف والبحث.. لقد تتبعوا منازل الوحي ، في جميع مراحله ، فعينوا وقت نزول الآيات ومكانها ، وضموا إلى ذلك ضوابط لأسلوب الخطاب فيها ، واهتموا بموضوع السورة أو الآية ، ولم يقتصر اهتمامهم على هذا ، فلو نزلت آيات في مكان ما ، وحملها أحد الصحابة فور نزولها لإبلاغها في مكان آخر ، ضبط العلماء هذا النازل كذلك ، فقالوا : ما حمل من مكة إلى المدينة وما حمل من المدينة إلى مكة ، واعتبروا ذلك من الشروط الأساس التي لا بد أن تتوافر في المفسر لكتاب الله تعالى . لذا يقول (أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري) : (من أشرف علوم القرآن علم نزول وجهاته ، وترتيب ما أنزل بمكة ابتداء ووسطا وانتهاء ، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك ، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدني ، وما نزل بالمدينة في أهل مكة ، ثم ما يشبه نزول المكي في المدني ، وما يشبه نزول المدني في المكي ، ثم ما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس ، وما نزل بالطائف ، وما نزل بالحديبية ، ثم ما نزل ليلا ، وما نزل نهارا ، وما نزل مشيعا ، وما نزل مفردا ، والآيات المدنيات في السور المكية ، والآيات المكيات في السور المدنية ، وما حمل من مكة إلى المدينة ، وما حمل من المدينة إلى مكة ، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة ثم ما نزل مجملا ، وما نزل مفسرا ، وما اختلفوا فيه ، فقال بعضهم مدني وبعضهم مكي، فهذه خمسة وعشرون وجها ، من لم يعرفها ويميز بينها، لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى) [1].

---

[1]– انظر مقدمة كتاب (التنبيه على فضل علوم القرآن) لابي القاسم الحسن بن محمد بن الحسن بن حبيب – مخطوطة مصورة عن نسخة المكتبة الظاهرية رقم 16 /عام /3763 – دمشق

وتقسيم القرآن إلى مكي ومدني ، من عمل الصحابة والتابعين ، ولم يرد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في ذلك قول ، وهذا التقسيم باعتبار الغالب والكثير ، وإلا فإن بعض السور المكية توجد فيها آيات مدنية ، وهو كثير في القرآن ، وقليل من السور المدنية توجد فيها آيات مكية .

وليس من غرضنا في هذا البحث أن نقصي بالتفصيل آيات القرآن الكريم وسوره ، لتبين ما كان فيها مكيا ، وما كان مدنيا ، ولكن حسبنا أن نبين معنى المكي والمدني ،والضوابط لمعرفة كل منها ، وما يتعلق بهذا الموضوع من سمات وخصائص ومميزات ، ثم تذكر بعض الشبه التي أثيرت من بعض المستشرقين وتلاميذهم ، ونرد عليها ونفندها ، إحقاقا للحق ، وإبطالا لكيد المبطلين .

فائدة العلم بالمكي والمدني:

هنالك فوائد عظيمة لمعرفة المكي والمدني ،ذكرها العلماء ، ونوجزها فيما يلي :

1–الاستعانة بها في تفسير كتاب الله تبارك وتعالى ، فهي سلاح من الأسلحة التي من اللازم أن يتسلح بها دارس القرآن الكريم ، فإذا عرف الدارس مكان وزمان نزول السورة أو الآية ، ساعده ذلك على فهم مراد الله سبحانه ، والسير في التفسير الصحيح .

ومثال ذلك : **(سورة الكافرون)** (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون... الآيات) إذا قرأها المرء جاهلا بزمن نزولها ومكانه وسببه ، احتار في معناها ، والتبس عليه مرماها ، وقد يفهم منها عدم مشروعية الجهاد وأنه غير مأمور به ، لكن حينما يعلم أنها نزلت في مكة ، حين قال صناديد الشرك لرسول الله "صلى الله عليه وسلم" (تعال يا محمد نعبد إلهك يوما وتعبد آلهتنا يوما) أدرك أن هذه السورة كانت علاجا لمرحلة من مراحل الدعوة ، وطورا من أطوارها في مكة ، وليست دليلا على أنها تدعو إلى الموقف السلبي من الكفار ، والعزلة عنهم، وعدم مجابهتهم .

2– تفيد دراسة المكي والمدني في معرفة تطور الدعوة ، وبيان المشكلات التي اعترضت طريقها ، وكيف كان التغلب عليها حتى زالت دولة الشرك، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

3– تفيد أيضا في معرفة مراحل التشريع وتدرجه ، وأثر ذلك في ترسيخ المفاهيم القرآنية بين المؤمنين ، ومن هنا كان منهج القرآن في التدرج التشريعي من أنجح المناهج في تكوين النفوس المستنيرة ، المشبعة بالحكمة والخلق المتين ، فهو منهج لا يعامل الناس في مرحلة الانتقال بنفس الطريقة التي يعاملهم بها بعد أن وصل نضجهم إلى مرحلته الأخيرة ، إنه منهج يتدرج بالأحكام حسب تقدم القدرة على الفهم والاستجابة ، حتى يكون الإنسان رقيبا على نفسه ، يحترم التشريع بوازع داخلي قبل الوازع الخارجي ، وهذا هو مناط الفرق بين التشريعات الإلهية ، والتشريعات الوضعية .[1]

---

[1]– انظر مدخل إلى القرآن الكريم – لأبي شهبة صـ161 .

4-تذوق أساليب القرآن ومعرفة أسلوبها في الدعوة إلى الله تعالى ، فإن لكل مقام مقال ، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة . فمعرفة الصبغة التي يصطبغ بها كل من التنزيل المكي أو المدني تعمل على صقل التذوق الأسلوبي لدى المتصدي لفهم كتاب الله تعالى ، وتقدم له درسا بلاغيا في أسلوب التخاطب ، ومعرفة طرائقها ، وكيفية التوصل إلى الخطاب الملائم في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب ، حيث يجد اختلاف الأساليب وتلونها تابعا لاختلاف أنماط الناس وأحوالهم ، مما يزيد إحساسه بجمال الأسلوب القرآني .

5- التعرف على المكي والمدني يعين على معرفة سيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم-فتتابع الوحي ساير تاريخ الدعوة بأحداثها في كلا العهدين المكي والمدني ، والقرآن في حد ذاته يعتبر مرجعا أصيلا لهذه السيرة ، ويقطع دابر الخلافات عندما تتضارب الروايات، وتختلف الآراء. [1]

6- يفيد التعرف على المكي والمدني في إدراك الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ، فنزول الآية لم يكن هو الذي يحدد موضعها في المصحف ، ولا زمان نزولها كذلك ، فقد تنزل آية في المدنية ثم تلحق بسورة مكية ، والعكس صحيح ، مما يدل على وجود وحدة موضوعية لكل سورة من سور القرآن الكريم ، فلو كان القرآن مختلط الموضوعات بلا رابطة، كما يقول المستشرقون وتلاميذهم ، ما كان هناك معنى لالحاق آية مدنية بسورة مكية ، ولا آية مكية بسورة مدنية ، ولكان الأولى أن توضع حيث نزلت في أية سورة متجانسة معها في الزمان والمكان ، بل إن وضعها في سورة غير متحدة معها في الزمان والمكان، في موضع معين منها بالذات، لهو أشد دلالة على أنها ذات صلة موضوعية بالسورة التي ألحقت بها، وإن كانت لم تنزل معها . ولقد عني صاحب الظلال - رحمه الله - بهذه الوحدة الموضوعية في كل سورة بذاتها ، فبينها بما لا يحتاج منا إلى مزيد .

7- ومن فوائد العلم بالمكي والمدني كذلك ، زيادة الثقة بالقرآن الكريم ، وأنه وصل إلينا سالما من كل تحريف وتبديل ، يدلنا على ذلك بوضوح ، تلك العناية العظيمة التي أحاط العلماء بها القرآن الكريم من جميع النواحي ، مصداقا لقوله تعالى:-((إنا نحن نزلنا الذكر وان له لحافظون)) -(الحجر/9) -

تعريف المكي والمدني:-

للعلماء في تعريف المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة:-

الأول : أن المكي ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة . وهذا الاصطلاح لوحظ فيه الزمان ، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة أو عرفة مدني ، كما روي في قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) -

---

[1]- انظر مباحث في علوم القرآن - للقطان صـ55

(النساء/58)-. فقد روي أنها نزلت عام الفتح الأعظم ، في جوف الكعبة [1]. وأيضا قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) (المائدة/3).فهذه الآية الكريمة نزلت بعرفة في حجة الوداع ،[2] ولكنها على هذا التقسيم تعتبر آية مدنية

أما ما نزل في سفر الهجرة فانه مكي . وفي ذلك يقول السيوطي : (أخرج عثمان بن سعد الرازي بسنده إلى يحيى بن سلام قال : ما نزل بمكة ، وما نزل في طريق المدنية – قبل أن يبلغ النبي– ﷺ– المدينة – فهو من المكي ، وما نزل على النبي – ﷺ– في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو مدني) وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل في سفر الهجرة مكي اصطلاحا . [3]

وهذا الاصطلاح هو الراجح : لوحظ فيه زمن النزول ، ومن هنا فهو تقسيم صحيح ، سليم، ضابط ، حاصر .

الثاني : أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، ويدخل في مكة ضواحيها كمنى ، وعرفات ، والحديبية ، والطائف .

والمدني : ما نزل بالمدينة ، ويدخل في المدينة : ضواحيها كبدر ، واحد ، وقباء ، وقد لوحظ في هذا الاصطلاح أنه روعي فيه المكان ، ولكن يُرَد عليه بأنه غير حاصر ، فلم يدخل فيه ما نزل بالأسفار ، كقوله تعالى في سورة التوبة : (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ..) –(التوبة/43)–. فهذه الآية نزلت في تبوك ، وأيضا آية التيمم في سورة النساء –(آية /43) –، اخرج ابن مردويه عن الأسلع بن شريك أنها نزلت في بعض أسفار النبي – صلى الله عليه وسلم –[4].

والمعتبر في هذا التعريف – كما هو واضح – إنما هو مكان النزول .

الثالث: أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة ، وفي هذا الصدد نسب إلى ابن مسعود – رضي الله عنه – انه قال : (كل شيء نزل فيه –يا أيها الناس – فهو بمكة ، وكل شيء نزل فيه – يا أيها الذين آمنوا – فهو بالمدينة) [5].

---

[1]– الاتقان 31/1 .

[2]– البرهان 187/1 .

[3] – الاتقان 23/1 .

[4]– الاتقان 52/1 .

[5]– البرهان 190/1 .

وقد عللوا لهذا القول : بان الغالب على اهل مكة الكفر ، فخوطبوا بـ –يا أيها الناس – ، وان كان غيرهم داخلا فيهم . وان الغالب على أهل المدينة : الأيمان . فخوطبوا بـ – يا أيها الذين آمنوا – وان كان غيرهم داخلا فيهم . [1]

ولوحظ في هذا القسم المخاطب ، ولكن يرد عليه انه غير حاصر ولا ضابط ، ذلك أن في القرآن الكريم آيات كثيرة لم تبدأ بـ – يا أيها الناس –، و بـ – يا أيها الذين آمنوا – . ثم إن سورة البقرة وهي مدنية جاء فيها قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم ..) –(البقرة /21)–. وسورة النساء –وهي مدنية أيضا – افتتحت بقوله سبحانه (يا أيها الناس اتقوا ربكم ..) –(النساء /1)–.

والإثر المنسوب إلى ابن مسعود وغيره ، خرج مخرج الغالب . بل صرح أبو الحسن بن الحصار المالكي وغيره من العلماء – بضعف هذا الأثر .[2] **ومن هنا ننتهي إلى القول بان الرأي الأول هو الراجح وهو الصحيح لحصره واطراده .**

الطريق إلى معرفة المكي والمدني :–

لا طريق إلى معرفة المكي والمدني سوى النقل الصحيح عن الصحابة والتابعين من بعدهم ، فالصحابة وحدهم هم الذين شاهدوا بأنفسهم منازل الوحي ، فأحاطوا علما بالأزمنة والأمكنة التي نزل فيها القرآن ، فهم المرجع في ذلك دون غيرهم .

ولم يروى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – بيان للمكي والمدني ، لان المسلمين في زمانه لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان ، كيف وهم يشهدون مكانه وزمانه، وأسباب نزوله ، عيانا وليس بعد العين بيان .قال عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – : والله الذي لا اله غيره ، ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا اعلم أين نزلت ، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا اعلم فيما نزلت ، ولو اعلم أن أحدا اعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه [3] .

وهذا المنهج السماعي هو ما يعتمده العلماء في معرفة الكثير الغالب من المكي والمدني ..

ويلحق بهذا: أن تتحدث السورة عن أمر عرف زمانه ومكانه ، كسورة الأنفال ، التي نزلت بصدد قسمة الغنائم عقب يوم بدر ، **أو كسورة الفتح** التي جاءت متصلة بصلح الحديبية ، **وكآيات الإفك** العشر من سورة النور ، فإنها جاءت متصلة بما اتهمت به السيدة عائشة –رضي الله عنها – من الريبة الآثمة ظلما ، **وكسورة الأحزاب** التي جاءت متعلقة بغزوة الخندق ، **وكسورة عبس وتولى** التي نزلت عتابا لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – على ما كان من إعراضه عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى ، لاشتغاله بالحديث عن الإسلام مع بعض زعماء القبائل الوافدين عليه ، **وكسورة الإسراء** التي تحدثت عن واقعة الإسراء، إلى غير ذلك مما يتصل بأحداث اشتهرت وعرف وقت وقوعها .

---

[1] – البرهان 187/1

[2]– الدر النظيم في مباحث من علوم القرآن الكريم – د. إبراهيم توفيق صـ19 .

[3]– صحيح البخاري – باب فضائل القرآن .

وإذا ورد عن الصحابة والتابعين – رضوان الله عليهم أجمعين – شيء صحيح في بيان المكي والمدني فلا اجتهاد مطلقا ، لأنهم الحجة في هذا الباب، إلا إذا ورد أكثر من رواية في موضوع واحد ، فهنا لا بد من أعمال العقل والفكر – عند التعارض – بالجمع أو الترجيح .

وبجانب النقل عن صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو الطريق الأساس في بيان المكي والمدني .. **هناك منهج قياسي اجتهادي** يستند إلى ضوابط وخصائص المكي والمدني ، فمثلا : إذا ورد في السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني قالوا انها مدنية ، وإذا ورد في السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي قالوا إنها مكية ، وإذا وجد في السورة آية تحمل خصائص المكي قالوا إنها مكية ، وإذا وجد فيها خصائص المدني قالوا إنها مدنية [1].

وهذا المنهج – كما قلنا – يقوم على الاجتهاد والقياس ، وهو يدل فقط على إمارات وعلامات ، وليس قاطعا في تمييز كل منهما . والأولى أن يعتمد على المأثور والمنقول عن أصحاب رسول الله – ﷺ–.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني : (إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين ، ولم يرو عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في ذلك قول لأنه لم يؤمر به ، ولم يجعل ذلك من فرائض الأمة وان وجب في بعضه على أهل العلم ، ومعرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول – ﷺ–)[2] .

ومن المعلوم أن اجتهاد العلماء إنما يأتي فيما لم يرد فيه نص ، فان ورد شيء من ذلك فلا اجتهاد مع وجود نص كما لا يخفى .

ضوابط المكي والمدني :

ذكر العلماء ضوابط عامة يعرف بها المكي والمدني من سور القرآن الكريم ، وهذه الضوابط توجد في بعض السور دون البعض الآخر، وقد استنبطها العلماء بطريق الاستقراء والتتبع للآثار الواردة في هذا الموضوع ، وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الضوابط إنما هي في الكثرة الغالبة فقط . ومن ذلك قولهم :

1- كل سورة فيها سجدة فهي مكية ، سوى سورة الحج، عند من يقول بأنها مدنية.وهي مكررة أربع عشرة مرة في السور التالية : (الأعراف ، الرعد ، النمل ، الإسراء ، مريم ، وفي الحج سجدتان ، والفرقان ، والنحل ، وألم تنزيل ، وفصلت ، والنجم ، والانشقاق ، واقرأ) .

---

[1]– انظر مباحث في علوم القرآن – للقطان صـ61 .

[2] – الإتقان 23/1 ، ومناهل العرفان 186/1 .

2- كل سورة فيها (كلا) ، وتكرر هذا اللفظ ثلاثا وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة ، كلها في النصف الأخير من القرآن ، ابتداء من مريم ولم تذكر في جميع السور المكية . قال الديريني – رحمه الله – :

وما نزلت كلا بيثرب فاعلمن ..... ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى[1]

وقد وردت في السور المكية على النحو التالي : (في سورة مريم مرتان ، المؤمنون مرة واحدة، ، المعارج مرتان ، المدثر مرة واحدة ، القيامة ثلاث مرات ، عبس مرتان ، المطففين أربع مرات ، الفجر مرتان ، الهمزة مرة واحدة ، الشعراء مرتان ، سبأ مرة واحدة ، النبأ مرتان ، العلق ثلاث مرات ، التكاثر ثلاث مرات ، الانفطار مرة واحدة) . [2]

3- كل سورة في أولها حروف المعجم فهي مكية سوى البقرة وآل عمران ، وفي الرعد خلاف .

4- كل سورة فيها قصص الأنبياء ، وآدم وإبليس ، والأمم السابقة فهي مكية سوى البقرة . اخرج البيهقي في الدلائل قال : **(كل شيء نزل من القرآن فيه ذكر الأمم والقرون فإنما نزل بمكة ، وما كان من الفرائض والسنن فإنما نزل بالمدينة)**.[3]

ولم ير الدكتور فضل حسن عباس – رحمه الله – ضرورة لهذا الاستثناء ، لأن ما ذكر في البقرة من ذكر موسى–عليه السلام – كان عما جرى بين موسى وبين بني إسرائيل ، والحديث عن إبراهيم –عليه السلام – كان عن بناء الكعبة وما يتصل بها ، وقال : ثم إذا استثنينا سورة البقرة فلا بد أن نستثني غيرها من السور المدنية كآل عمران، إذ فيها قصة امرأة عمران وزكريا ، وكالمائدة لأن فيها قصة موسى –عليه السلام –.[4]

5- كل سورة فيها (يا أيها الناس) أو (يا بني آدم) فهي مكية ، أما إذا اجتمع النداءان (ياأيها الناس) و(يا أيها الذين آمنوا) في سورة واحدة ، فالسورة مدنية مثل: البقرة ، والنساء ، وفي الحج خلاف ، فقد اجتمع فيها النداءان . وأخرج الحاكم عن ميمون بن مهران قال : ما كان في القرآن بـ(يا أيها الناس) أو (يا بني آدم)فانه مكي ، وما كان بـ (يا أيها الذين آمنوا) فإنه مدني . وقد اتفق الناس على إن النساء مدنية ، وأولها (يا أيها الناس) وعلى أن الحج مكية ومنها (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) [5].

6- كل سورة فيها ذكر الحدود والفرائض فهي مدنية .

---

[1]– الإتقان 48/1 .

[2]– نظرات في القرآن – للمرحوم الشيخ محمد الغزالي صـ259 .

[3]– الإتقان 48/1 .

[4]– من محاضرة لفضيلة الشيخ فضل حسن عباس – بقسم الدراسات العليّا بكلية أصول الدين في الجامعة الأردنية عام 1992م.

[5]– الإتقان 47/1 – والبرهان 189/1 – 190 .

7- كل سورة فيها إذن بالجهاد ، وبيان أحكامه فهي مدنية ، أما ذكر كلمة (الجهاد) فقط فلا يدل على أنها مدنية ، بل قد تكون مكية ، كسورة العنكبوت.. قال تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) –(سورة العنكبوت/69)– .

8- كل سورة فيها ذكر المنافقين وكشف أخبارهم فهي مدنية ، ما عدا سورة العنكبوت .[1] ولعل السر في هذا إن المنافقين لم يظهروا إلا في المدينة . قال تعالى : (ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ، لا تعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم)–(التوبة /101)– .

وظهور النفاق في المدينة دليل على ظهور قوة المسلمين هناك . أما في مكة فكان المسلمون قلة مستضعفين ، والمشركون في كثرة وقوة ، فكانوا يعلنون رأيهم بصراحة تجاه المسلمين .

خصائص المكي والمدني من القرآن الكريم

هناك بعض الخصائص والمميزات التي يذكرها العلماء للقرآن المكي ، والقرآن المدني ، تتعلق بأبرز الموضوعات والقضايا والمقاصد والأغراض التي عالجها كل منهما في سوره وآياته ، وبالمزايا الأسلوبية التي يمتاز كل منهما عن الآخر ، وهي أمور دقيقة يتوقف العلم بها على شيء من إعمال الفكر والروية وإمعان النظر والتأمل والإلمام بعلوم الشريعة واللغة .

شبهات حول المكي والمدني وتفنيدها

أدرك أعداء الإسلام عموماً، والمستشرقون والمبشرون على وجه الخصوص، أنه لا يمكن ضرب الإسلام إلا من خلال التشويش، وإثارة الشبهات، وبث الشكوك بين المسلمين وقرآنهم فأخذوا يخططون لتنفيذ ذلك، مستهدفين فصم كل العرى التي تربط المسلمين بكتابهم حتى تخبوا جذوة إيمانهم، فتضعف قوتهم وبذلك تسهل السيطرة والقضاء عليهم .

وسنعرض لبعض هذه الشبه–وهي في مجملها مغالطات وسفه جهول –ونقرنها بما يدفعها ويبطلها:

1- **قالوا:** أن أسلوب القران المكي قد تفرد بالعنف والشدة وإن فيه سباباً وإقذاعاً، وأن هناك تعارضاً بينه وبين أسلوب القرآن المدني، **وتبطل هذه الشبهة** إذا علمنا أن العنف والشدة أو التهديد و الوعيد ليس خاصاً بالقرآن المكي بل يوجد بالقرآن المدني كذلك كقوله تعالى " فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة " (البقرة 24)وكقوله تعالى " إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار " (آل عمران 10) وإذا لم يكن

---

[1] – الصواب أن سورة العنكبوت مكية – ما عدا الآيات الإحدى عشرة من أولها فإنها نزلت في المدينة ، كما أخرجه ابن جرير في نزولها .انظر الإتقان 43/1 .

التهديد والوعيد خاصاً بالقرآن المكي، فإن اللين والصفح والترغيب ليس خاصاً بالقرآن المدني ،حيث نجد في السور المكية آيات كثيرة تفيض ليناً وصفحاً، وتقطر سماحة وعفواً، من ذلك قوله سبحانه في سورة فصلت المكية " ومن أحسن قولاً ممن دعى إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين " (فصلت 33) والمتتبع لآيات القران مكيها ومدنيها يجد أن فيها شدة وعنفاً ولیناً وصفحا، وأسلوبه في الحالتين يمتاز بكل أنواع السمو والرفعة، فهو إذا اشتد فعلى الفاسقين والكافرين والمفسدين يشتد، وإذا لان فللمؤمنين والصالحين الأخيار يلين..

وإذا كنا نلاحظ الشدة والتهديد والوعيد تكثر في القرآن المكي، فلأن أهل مكة كانوا أشداء العارضة ، ومسرفين في العناد لم يتركوا باباً من الشر إلا دخلوه على الرسول –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه، والقرآن الكريم قد قام كله على رعاية حال المخاطبين، فالملائم بحال المكيين أن تكون الشدة في خطابهم أكثر من اللين، ومع ذلك كان القرآن في حملته عليهم وأمثالهم بالقوة، بعيداً عن كل معاني السباب، متذرعاً بالحكمة والأدب الكامل في الإرشاد والإقناع، حاثاً على الصبر والعفو ، قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم في سورة الأنعام المكية "(ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) " (الأنعام 34) . أما عن زعمهم عن انقطاع الصلة بين القرآن المكي والمدني والتعارض بين أسلوبيهما، فهو زعم يرفضه الواقع بدليل أننا نلاحظ آيات مكية منبثه بين آيات سور مدنية، ونلاحظ آيات مدنية منبثه بين آيات سور مكية، ومع ذلك لا يحس أحد بالتفاوت أو الانقطاع المزعوم، بل يروعك ما بين الجميع من جلال الوحدة، وكمال الاتصال، وجمال التناسق والانسجام، مما يجعل القرآن كله على طوله سلسلة واحدة محكمه الحلقات، أو عقداً رائعاً منتظم الحبات(فظاهرة هذا النظم العجيب هو معجزة القرآن كله ، المكي منه والمدني على السواء .والدليل على هذا هي أننا لو وضعنا آيات القرآن الكريم بين ثنايا أي كلام بليغ ، لدلت هذه الآيات على نفسها بنفسها، ولأعلنت عن وجودها ، لأنها تختلف في نسقها واتساقها وفي نظمها ونغمها عن أي جمل أخرى وفي أي كلام آخر) [1] " (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلم والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً)" (النساء 166)

2- **قالوا** : أن السور المكية قصيرة ، والسور المدنية طويلة والمقتضي لهذا القصر والطول في زعمهم هو التأثر بالوسط والبيئة ، فلما كان محمد – صلى الله عليه وسلم – في مكة ؟؟ جاءت سور المكي وآياته قصيرة ، ولما وجد في المدنية بين مستنيرين ، جاءت سور القران المدنية وآياته طويلة ، وغرضهم من إلقاء هذه الشبهة : التشكيك في أن القرآن من عند الله ، حيث يزعمون أن القصر والطول في سور القرآن انعكاس لتأثر محمد –صلى الله عليه وسلم– بالوسط

---

[1]– النبأ العظيم – صـ 103 ط 2 .

والبيئة ، فيكون القرآن من صنع محمد – ﷺ– وليس كلام رب العالمين .

ونقول :– (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) – الكهف/5 .

فالطول بالآيات ليس خاصاً بالصور المدنية ، كما أن القصر فيها ليس خاصاً بالصور المكية ، فهناك سور مكية طويلة مثل سورة الأنعام، والأعراف، ويونس، وهود، وهناك سور مدنية قصيرة مثل سورة النصر، والكوثر، والإخلاص، وغيرها ، أما كون معظم القرآن المكي قصير الآيات موجزاً في معظمها، فلأن القرشيين في مكة كانوا في الذروة من الذكاء والفصاحة والبلاغة بين قبائل العرب ، فلا غرابة أن يخاطبهم القرآن بالقصير من سوره وآياته ، رعاية لحق قانون البلاغة في خطاب البليغ النابه، بغير ما يخاطب به من كان دونهم من البلاغة والفصاحة . كما أن القرآن قد تحدى الناس جميعاً ، مكيهم ومدنيهم ، وعربيهم وأعجميهم ، أن يأتوا بمثل أقصر سورة من تلك السور القصيرة فعجزوا أجمعين ، فلو كان القصر أثراً للانحطاط كما يقول أولئك المفترون، لكان في مقدور الممتاز غير المنحط أن يأتي بمثل ذلك ، بل بأرقى منه ، وعدم فعلهم ذلك دل على إعجازه .

3– **قالوا** :– إن القرآن المكي خلا من التشريع والأحكام ، وذلك يدل في زعمهم على أن القرآن من صنع محمد –صلى الله عليه وسلم– وتأليفه ، تبعاً لتأثره بالوسط الذي يعيش فيه . فهو حين كان في مكة بين الأميين جاء قرآنه المكي خالياً من العلوم والمعارف العالية ، ولما حل في المدينة بين قوم مثقفين وأهل كتاب ، جاء قرآنه مليئاً بالعلوم والمعارف العالية ! ويُبطل هذه الشبهة أن القرآن المكي لم يخل من التشريع كما يزعمون ، وقد بينا ذلك في بحث الخصائص التشريعية للقرآن المكي .

ثم إن المشركين في مكة كانوا ينازعون في أصول الدين الإسلامي ، وهي التوحيد ، والنبوة ، والبعث ، فحق للقرآن أن يركز على هذه الأمور العقدية . ولما انتقل الإسلام إلى المدينة ، وأسس دولته ، أتى بالأحكام والقوانين والتشريعات مفصلة موضحة .

وهل كان يريد هؤلاء المفترون أن يعرض الإسلام على كفار مكة أحكام المواريث والزواج وسائر المعاملات وهم ينازعون في أصل العقيدة الإسلامية ..الوحدانية ، وفي رسالة محمد – ﷺ– ولا يدينون لـه !؟ إن الحكمة تقتضي أن يتم التركيز على أصل الإيمان أولاً ، ثم الانتقال بعد ذلك إلى فروعه من أحكام وتشريعات .

4– **قالوا** :– إن وجود التشريعات والأحكام في القرآن المدني أثر من آثار البيئة اليهودية حيث اختلط محمد –صلى الله عليه وسلم– بهم في المدينة ، فتعلم منهم ، حتى استطاع أن يأتي بهذا القرآن المتضمن للأحكام والتشريعات والحجج والبراهين !!

ونقول : – هذا افتراء سخيف واضح ، وزعم باطل .. لأن القرآن جاء يصلح عقائد أهل الكتاب جميعاً ، من يهود ونصارى ويبين لهم أخطاءهم في التشريع والتحليل والتحريم .. فكيف يأخذ المصيب من المخطئ ؟ .

وما قيل عن استفادة النبي – ﷺ– من اليهود والنصارى لم يكن كافياً لإيحاء القرآن من حيث قصصه، وتشريعاته، ونظراته الكونية، وحقائقه التي فندت كل اعتقادات النصارى واليهود ، وكيف يستفيد من النصارى واليهود ما يمكنه من انتقادهم، وإبطال معتقداتهم ؟

بل نجد أن القرآن يشير إلى أن محمداً – ﷺ– لم يكن له علم بأخبار الأولين ، ولا تفاصيل الرسالات السماوية السابقة، ومن بين تلك الآيات الواضحة في هذا المعنى قوله تعالى بعد إيراد طائفة من أخبار الأنبياء في سورة هود " (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين)" (هود/49). فهل يجوز عقلاً أن يقول رجل لقومه إنهم يجهلون أخبار الأنبياء في حين يعلم أنهم يعرفونها ؟ ويعلن أيضاً أنه يجهلها قبل الوحي ، وهم يعلمون أنه يعلمها، وأنه تلقاها من اليهود والنصارى أنفسهم ؟ .

وثانياً : لو كان القرآن المدني نتيجة لاختلاط محمد – ﷺ– باليهود في المدينة كما يزعمون – لظهر أثر هؤلاء اليهود على من خالطهم من فصحاء العرب قبل محمد– ﷺ– ولسبق هؤلاء الفصحاء محمداً – ﷺ– إلى وضع مثل هذا القرآن .. وهذا لم يحدث لا من فصحاء العرب، ولا من تجار قريش الذين كانوا يختلطون بأهل الكتاب في المدينة والشام أيما اختلاط .

بل لم يحدث من اليهود أنفسهم على الرغم من أن القرآن الكريم تحدى المكيين والمدنيين من عرب وغير عرب ، فلم يستطيع أحد مجاراته ، ولو بمقدار سورة صغيرة منه .

وثالثاً : – لو كان ما زعموه صحيحاً من تأثر محمد – ﷺ– باليهود والنصارى وأخذه عنهم ، لوجدنا في حديث القرآن عنهم إعجاباً بهم ، وتقديراً لأخلاقهم وتدينهم ، وإشادة بعلمهم ، كما هو شأن المتعلم مع معلمه .

ونظرة واحدة إلى القرآن الكريم، نجده يرى في اليهود أسوأ مثل في العلم والخلق والدين ، بل لعنهم الله في أكثر من آية لضلالهم وتحريف شريعتهم ، وكتمان العلم ، وفقد الأمانة ، واستحلال الخيانة والكذب وأكلهم السحت وغير ذلك من النقائص .. قال تعالى " (وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ...)" (المائدة:64). وقال : "(لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) " (المائدة : 78). وقال : " (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) " – (الجمعة :5).

وقال في شأن النصارى : " (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ..) " (المائدة:17) – إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة... التي تمثل لنا موقف الرسول – ﷺ– من اليهود ، بأنه موقف المعلم لا المتعلم ، بل موقف الحاكم والمهيمن على الكتب السماوية السابقة .

5 – **قالوا** :– إن القرآن المكي يكثر فيه القسم بالأشياء الحسية كالضحى ، والتين ، والزيتون ... الخ وهذا يدل –في

زعمهم- على تأثر القرآن بالبيئة المكية لأن القوم فيها كانوا أميين ، لا تعدوا مداركهم حدود الحسيات ، أما بعد الهجرة واتصال محمد بأهل المدينة – وهم قوم متعلمون – فقد تأثر القرآن بهذا الوسط الراقي ، وخلا من تلك الأقسام الحسية الدالة على البساطة والسذاجة في زعمهم وقد بينا تهافت هذا القول أثناء حديثنا عن الخصائص الأسلوبية للقرآن المكي... وقلنا بأن في القرآن الكريم تسع عشرة سورة مكية افتتحت بالقسم "على وفق ما الفه العرب من أساليب، وأيضاً الابتداء بصورة القسم يدل على أن المقسم عليه أمر عظيم، تتوافر الدواعي على الإصغاء إليه وكان العرب يتحرزون من الأيمان الفاجرة ويقولون:- إنها تترك الديار بلاقع " [1] ولشد أذهانهم إلى موضوع القسم ليتدبروه ويهتدوا به .

6 - **قالوا** :- إن القرآن المكي قد خلا من الأدلة والبراهين، وكان يهرب من المناقشة بخلاف القرآن المدني فإنه مليئ بالأدلة، وهذا مما يدل على تأثر القرآن بالوسط الذي عاش فيه محمد - ﷺ- !؟

ويكفينا في إبطال هذه الشبهة الرجوع إلى القرآن المكي نفسه ، حيث نجده مليئاً بالأدلة والبراهين كالمدني ، وأنه ما كان يهرب من المناقشة ، بل كان يقرع الحجة بالحجة ، ويصول بالدليل . كقوله سبحانه في سورة (المؤمنون) المكية تدليلاً على وحدانيته سبحانه ونفياً للشرك " ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من آله إذن لذهب كل آله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عمّا يصفون "(المؤمنون: 91). وقال في سورة الأنبياء المكية :- "لو كان فيها آله إلا الله لفسدتا .." (الأنبياء: 22) . وقال في سورة العنكبوت المكية مدللاً على نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- "وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون" (العنكبوت:48)إلى غير ذلك من أدلة ساطعة وبراهين بارعة لا تكاد تخلو منها سورة من السور المكية ، ولكن القوم استحبوا العمى على الهدى فاستمرءوا هذا الكذب والبهتان .. " يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " (التوبة: 32-33)

---

[1]- غرائب القرآن ورغائب الفرقان 6/23 .

جمع القرآن

الجمع في لغة العرب :- الضم والاحاطة والاستقصاء ،قال الراغب :- الجمع : ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض ...[1]

واذا أطلق معنى الجمع على كلام الله فيراد به معنيان :-

الأول :- **حفظه واستظهاره في الصدور** .. ومنه قول عبد الله بن عمرو (جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة)[2] أي :- حفظت القرآن .**الثاني** :- **تدوينه وكتابته في السطور** ..ومنه قول أبي بكر -رضي الله عنه - لزيد بن ثابت - رضي الله عنه - (تتبع القرآن فاجمعه) [3] أي : اكتبه كله في السطور وقد علل الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز -رحمه الله- سبب تسمية المصحف بالقرآن والكتاب فقال :- (روعي في تسميته قرآنا كونه متلوا بالألسن ، كما روعي في تسميته كتابا كونه مدونا بالاقلام ، فكلا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه ، وفي تسميته بهذين الاسمين اشارة الى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد ، أعني : يجب حفظه في الصدور والسطور معا) [4].

وقد مر جمع القرآن بمراحل ثلاث هي :-

1- جمعه في عهد النبي - ﷺ- .

2- جمعه في عهد أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- .

3- جمعه في عهد عثمان -رضي الله عنه -.

وسنتحدث عن كل جمع منها مبينين دواعيه وأسبابه ومميزاته .

جمع القرآن في عهد النبي- ﷺ-

جمع القرآن في عهد الرسول - ﷺ- بكلتا الوسيلتين .. الحفظ في الصدور ... والكتابة في السطور .

جمع القرآن في عهد النبي - ﷺ- بمعنى حفظه في الصدور :-

كان القرآن ينزل على النبي- ﷺ- منجما ، فيقرأه على أصحابه ، وكان شديد الحرص على حفظه واستظهاره فور سماع

---

[1] - المفردات : ص 94.

[2] - فتح الباري : ج9/ ص 60.

[3] - فتح الباري / ج9/ ص 14.

[4] - النبأ العظيم : ص 12-13.

ألفاظه من جبريل – عليه السلام –، يدلنا على ذلك ما كان يعانيه من شدة في تلقي الوحي ، وحرصه على تحريك لسانه بالوحي قبل أن ينتهي منه جبريل خوف تفلته ، واستعجالا لحفظه .

روى البخاري بسنده عن ابن عباس –رضي الله عنهما – أن رسول الله – ﷺ– كان يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك به شفتيه ، فأنزل الله (لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه) أي : إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم نقرؤه (فاذا قرأناه) أي:– اذا أنزلناه عليك (فاتبع قرآنه) فاستمع وأنصت (ثم ان علينا بيانه) أن نبينه بلسانك ، وفي لفظ :علينا أن نقرأه ، فكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بعد ذلك اذا أتاه جبريل أطرق ، وفي لفظ : استمع ..فاذا ذهب قرأه كما وعد الله) [1]..

وهذا تحقيق لوعد الله سبحانه (سنقرئك فلا تنسى) (سورة الأعلى : آية / 6). ومن وجوه التكفل الإلهي له – ﷺ– بحفظه ، أن جبريل –عليه السلام– كان يعارضه القرآن في كل عام مرة ، وفي العام الذي توفي فيه النبي – ﷺ– عارضه جبريل بالقرآن مرتين . ثم انه – ﷺ– كان يقرأه على صحابته في تؤدة وتمهل ،كي يحفظوا لفظه ويفهموا معناه ، وكان الصحابة يتسابقون في حفظه وتدبر معانيه ، وكيف لا يكون هذا وقد علموا أن في القرآن عزهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة ، ومما ساعدهم على سرعة حفظه دون مشقة ، ظروف العرب أنفسهم الطبيعية ، وما فيها من صفاء وسعة ، تدعو الى نشاط الذهن وصفاء القريحة . كما كان النبي– ﷺ– يبعث الى من كان بعيدا من يقرئهم ويعلمهم القرآن ، فقد بعث مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم –رضي الله عنهما– الى أهل المدينة قبل هجرته – ﷺ– يعلمانهم الاسلام ويقرئانهم القرآن ،وأرسل معاذ بن جبل –رضي الله عنه– الى مكة بعد هجرته للتحفيظ والاقراء [2] . وهناك كثير من الاحاديث التي تدعو الى حفظ القرآن وتعلمه ، روى البخاري –رضي الله عنه– عن النبي– ﷺ– أنه قال :– (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) [3].

وأما عن أجر قارئه وحافظه في الآخرة ، فقد وردت أحاديث كثيرة كذلك ، منها :– ما رواه ابن مسعود قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : – (من قرأ حرفا من كتاب الله له حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح [4]. لقد اهتم الصحابة بالقرآن ، وحفظوه على مدى السنين الأولى من صدر الإسلام .

---

[1] – صحيح البخاري : ج6/ ص 101.

[2] – مناهل العرفان : ج1/ ص 242.

[3] – صحيح البخاري : ج6/ ص 236.

[4] – رياض الصالحين : ص 362–363.

ويتلخص مما سبق أن عوامل الحفظ عند الصحابة هي :

إن القرآن مصدر التشريع الأول ، ولم تكن لديهم وسيلة سهلة متيسرة لمن يريد تسجيله ، فسجلوه في صدورهم .

ثم إن الآيات والأحاديث الكثيرة حثت على حفظ القرآن ، وبينت ثواب ذلك ، منها قوله تعالى : - (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور)(سورة فاطر : آية / 29) .

والقرآن سبب عزهم في الدنيا ، إذ به يسوسون الناس ، وسبب عزهم في الآخرة ، حيث يشفع لهم ، ويرفع مراتبهم .

وفي القرآن من الخصائص البلاغية ، والمزايا البيانية التي لا تعرف في أي كلام آخر على وجه الإطلاق ، مما حببهم في الإكثار من قراءته ، وتكراره ، وحفظه ، وكانوا يجدون في قراءتهم له متعة نفسية وروحية .

ومما ساهم في استمرار حفظ الصحابة للقرآن ، ما ورد من الوعيد الشديد لمن حفظ شيئا من القرآن ثم نسيه .. [1] .

جمع القرآن بمعنى كتابته في السطور في عهد النبي - ﷺ- :

نزل القرآن على رسول الله - ﷺ- شيئا فشيئا ، الآية ، والآيتين والسورة ، وكان كلما نزل شيء بادر النبي - ﷺ- بتبليغه لأصحابه ، وكان يملي على كتبة الوحي ما ينزل عليه من القرآن ، فكتب كله في عهد النبي - ﷺ- ، لكنه لم يكن مرتب السور ، ولا مجموعا بين دفتين ، بل كان مفرقا في العُسب ، والرقاع ، واللخاف ، والأقتاب ونحوها ، مع كونه محفوظا في الصدور . .. روى الحاكم عن زيد بن ثابت قال : - (كنا عند رسول الله - ﷺ- نؤلف القرآن من الرقاع .. الحديث).. وعنه أيضا : - قال : (كنت أكتب الوحي عند رسول الله - ﷺ- وهو يملي علي ، فإذا فرغت قال : إقراه ، فإذا كان فيه سقط أقامه ..) [2]. وروى الإمام أحمد ، وأصحاب السنن الثلاثة ، وصححه ابن حبان ، والحاكم ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن عثمان - رضي الله عنه - قال : - (كان رسول الله - ﷺ- مما يأتي عليه من الزمان ، ينزل عليه من السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول : ضعوا هذا في السورة التي فيها كذا ...) [3] . فهذه الأحاديث تدل على أن القرآن قد كتب بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وما نزل شيء من القرآن - آية أو سورة - إلا وضع موضعه بتوقيفه ، وإعلام الصحابة بذلك .

---

[1] - انظر : البيان في مباحث من علوم القرآن : ص 146.

[2] - انظر : المستدرك : ج2/ ص 229 . والفتح الرباني : ج18/ ص 30 .

[3] - فتح الباري : ج9/ ص 18 .

على أي شيء كان يدون القرآن ...؟

شاع في أوساط بعض الكاتبين في علوم القرآن من مسلمين ومستشرقين ، أن الأدوات التي سجل عليها الوحي إبان عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – كانت من المواد الخشنة ، كالحجار ، والعظام ، وجريد النخل ، وغيرها ، وقد جاء ذكر هذه الأدوات في روايات مختلفة ، عن زيد بن ثابت – رضي الله عنه – عند جمعه القرآن في عهد أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – قال : – (فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع ، والعسب ، واللخاف ، وصدور الرجال ... وفي رواية : فجعلت أتتبع القرآن من صدور الرجال ، ومن الرقاع ، والأضلاع ...) [1] وهناك روايات أخرى .

وهذه الروايات – في ظني –تشير إلى أن هذه الأدوات كانت مما يكتب عليه الكاتبون من الصحابة لأنفسهم ، أما ما كتب عليه الوحي في بيت النبي – ﷺ– فتشير إليه رواية أخرى لزيد يقول فيها : – (كنا عند رسول الله – ﷺ– نؤلف القرآن من الرقاع) وهي جمع رقعة ، قد تكون من : جلد ، أو ورق ، أو كاغد . وقد وجد المستشرقون في الروايات السابقة مرتعا خصبا أثار نهمهم في إثارة الشبهات حول القرآن ، فقد رأوا في تلك الأدوات استحالة مادية في استيعاب النص القرآني كله ..)[2] وكأن هذه الأدوات هي الحقيقة المقررة والوحيدة في قصة تدوين القرآن ، على أن الواقع خلاف ذلك . فقد وردت كلمة – القراءة – وما اشتق منها في القرآن حوالي (تسعين مرة) ووردت كلمة (الكتابة) وما اشتق منها نحوا من (ثلثمائة مرة) ، وكثيرا ما حكى القرآن عن المشركين أنهم يطلبون من النبي – ﷺ– كتابا يقرؤونه ، أو (صحفا منشرة) ، كما حكى عنهم وصفهم للوحي المنزل بأنه (أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا)(الفرقان :5) . وذكر القرآن أيضا كلمات : القرطاس ، والمداد ، والقلم ،والصحف ، والسجل ، والرق ، وكل ذلك موجه إلى أولئك العرب الذين لصقت بهم صفة الأمية خلال التاريخ ، وهي أقرب إلى الأمية الدينية – حسب رأي البعض – منها إلى أمية الجهل بالقراءة والكتابة ، فمعرفة العرب بالكتابة لم تكن بالحداثة التي تصفها تلك الروايات المشهورة ..) [3] .

إن أقرب الأشياء إلى الواقع : أن العرب كانوا يعرفون من وسائل الكتابة أدواتها اللينة ، كالجلد ، والورق ، وبخاصة إذا تصورنا أن مكة كانت تمثل بيئة تجارية في أرض الجزيرة ، تقوم التجارة فيها على توثيق العقود ، وتدوين الحسابات .

وكلنا يعلم نبأ **الصحيفة** التي كتبتها قريش لمقاطعة بني هاشم ، وعندما قام نفر منهم لشق تلك الصحيفة الظالمة ، وجدوا أن الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم) ، وفي ذلك دليل على أنها كانت من الأدوات اللينة ، وهناك كثير من الصحف غيرها كتبت على الأدوات اللينة ، كصحيفة صلح الحديبية ورسائل النبي – ﷺ– إلى الزعماء ، والحكام ، لدعوتهم إلى

---

[1] – كتاب المصاحف : ص : 8، 9، 20 .

[2] – القرآن : بلاشير ، ص 29.

[3] – انظر : تاريخ القرآن ، ص 134–135. ومصادر الشعر الجاهلي : ص 24–41.

الإسلام ، ورقاع الوحي التي كتب فيها زيد القرآن بحضرة النبي – ﷺ– ، وبعض مخطوطات الصحابة التي كتبوا فيها القرآن عن النبي – ﷺ– والتي أمر عثمان – رضي الله عنه – بإحراقها بعد نسخ مصاحفه .. وكيف لا يعرف المسلمون هذه الأدوات اللينة وقد جاوروا جاليات كبيرة من أهل الكتاب ، وفي أيديهم كتبهم يتدارسونها ، وقد تكررت إشارات القرآن إلى هذه الكتب ، ولا ننفي أن يكون بعض القرآن قد كتب على بعض هذه المواد الخشنة – كما تقول الروايات – ، لكن ننفي أن تكون هي الوسيلة الوحيدة ، أو الأكثر استعمالا في كتابة القرآن .. وربما كان استعمالها لضرورة ، كندرة الأدوات اللينة في ظرف ما ، أو أنها استخدمت بصورة مؤقتة لعدم تيسر غيرها فور نزول الوحي ريثما ينقل إلى مكانه من سجلات القرآن ، وهي الرقاع المشار إليها في حديث زيد السابق [1] . ... وأيا كان الأمر فقد ورد في الروايات أن الصحابة استخدموا في كتابة القرآن الأدوات التالية :–

1- **العُسُب** :– جمع عسيب ، وهي جريدة من النخل مستقيمة ، كانوا يكشطون الخوص ، ويكتبون في طرفها العريض .

2- **الكرانيف** : – جمع _ كرناف – (بالكسر أو بالضم) ، وهي الأصول التي تبقى في جذوع النخلة ، أو الجريدة بعد قطع السعف ، ومفردها كرنافة .

3- **اللِّخاف** : – جمع لخفة ، وهي صفائح الحجارة الرقاق .

4- **الأكتاف** : – جمع كتف ، وهي عظم عريض يكون في أصل البعير أو الشاة .

5- **الصحف** : وهي قطعة من جلد أو قرطاس يكتب فيه .

6- **الظرر** : بضم الظاء وفتح الراء ، وهي الحجارة العريضة .

7- **الرقاع** : – جمع رقعة – بالضم – ، وهي القطعة من النسيج أو الجلد .

8- **الأضلاع** : وهي عظام الصدر المعروفة للحيوان ، فإذا جفت ويبست كتبوا عليها .

9- **الأديم** : – قطع الجلد كانوا يدونون عليها القرآن .

10- **الأقتاب** : – جمع قتب (بفتحتين) وهو رَحل البعير ، وقيل : هو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير .

11- **الألواح** : – جمع لوح ، واللوح : كل صحيفة عريضة من خشب أو غيره ، ويلحق بها ما يقوم مقامها ، إذا كتب عليها سميت لوحا . ولم ينقض العهد النبوي المبارك إلا والقرآن مجموع ومكتوب في صحف متفرقة .. [2]

عند هذا الصحابي أو ذاك ، لكن ترتيبه كان محفوظا عند الجميع بتعريف النبي – ﷺ– وقراءته وهم يسمعون ،

---

[1] – انظر : عن القرآن : لمحمد صبيح ، ص 86. وكتاب القرآن المجيد : ص 77–79.

[2] – انظر :الاتقان : ج2/ ص 168. والنهاية في غريب الحديث : ج4/ ص 10.

على الترتيب الذي ارتضاه الله عزوجل لكتابه ، وأوحى به اليه ، ولم ينتقل الرسول – ﷺ– إلى الرفيق الأعلى إلا وقد كان القرآن كله محفوظا في الصدور ، ومكتوبا في السطور .

كتاب الوحي

حظي القرآن الكريم بأوفى نصيب من عناية النبي – ﷺ– ، وعناية أصحابه ، فلم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره عن عنايتهم بنقشه وكتابته ، فاتخذ النبي – ﷺ– كتابا للوحي ، فكان كلما نزل شيء من القرآن أمرهم النبي – ﷺ– بكتابته ، مبينا لهم موضعه ، زيادة في التوثيق ، والضبط ، والاحتياط ، حتى تظاهر الكتابة الحفظ . وهؤلاء الكتبة من خيرة أصحاب رسول الله – ﷺ– ، وقد بلغ عددهم ثلاثة وأربعين كاتبا ، كان من اكثرهم ملازمة للنبي – ﷺ– وكتابة له : زيد بن ثابت ، وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنهم أجمعين – [1] .

ومن كتاب الوحي : (الخلفاء الأربعة ، والزبير بن العوام ، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص بن أمية ، وحنظلة بن الربيع الأسدي ، ومعيقيب بن أبي فاطمة ، وعبد الله بن الأرقم الزهري ، وشرحبيل بن حسنة ، وعبد الله بن رواحة .. وآخرين) [2] . وعن البيهقي بسند حسن عن عبد الله بن الزبير : أن النبي – ﷺ– قد استكتب عبد الله بن الأرقم ، فكان يكتب له إلى الملوك ، وبلغ من أمانته عنده أنه كان يأمره أن يكتب ويختم ولا يقرأه ..) ثم استكتب زيد بن ثابت ، فكان يكتب الوحي ، ويكتب إلى الملوك ، وكان إذا غاب كتب جعفر بن أبي طالب ، وكتب له أحيانا جماعة من الصحابة) [3] . وأول من كتب له بمكة من قريش : عبد الله بن أبي السَّرح [4] . وأول من كتب له بالمدينة : أُبَيّ بن كعب ، وكتب له قبل زيد بن ثابت .

ومن كتاب الوحي أيضا : ثابت بن قيس ، وأبو سفيان وابناه : معاوية ، ويزيد ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وعامر بن فهيرة ، والعلاء بن الحضرمي ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وحذيفة بن اليمان ، وحويطب بن عبد العزى) [5]. وكثير غيرهم . ولم ينقض العهد النبوي المبارك إلا والقرآن مجموع ومكتوب في صحف مفرقة – كما أسلفنا – ، وترتيبه معروف بتعريف النبي – صلى الله عليه وسلم – إياهم ، وعلى النحو الذي هو عليه الآن .

---

[1] انظر : كتاب الوحي : د. وليد الأعظمي .

[2] – انظر : فتح الباري : ج19/ ص 26 .

[3] – فتح الباري : ج27/ ص213.

[4] – هو أخ لعثمان من الرضاعة ، وكان قد ارتد ثم عاد إلى الإسلام يوم الفتح ، شهد فتح مصر ، وكان صاحب الميمنة ، وغزا إفريقية ، وذات الصواري ، وكان واليا على الصعيد زمن عمر ، ثم ضم إليه عثمان مصر كلها ، ولما وقعت الفتنة سكن عسقلان ، ولم يبايع لأحد بعد عثمان ، وقيل شهد صفين ، وعاش إلى سنة 57هـ ، وجهاده في الإسلام أعظم من أن تقبل فيه افتراءات المستشرقين ذوي الأغراض الدنيئة ، أنظر الإصابة ج2/ ص316 .

[5] – انظر : الإصابة : ج2/ ص316. والطبقات الكبرى : ج7/ ص 190 .

جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق – رضي الله عنه –

انتقل الرسول – ﷺ– إلى الرفيق الأعلى ، والقرآن كله كان محفوظا في الصدور ، ومكتوبا في السطور ، إلا أنه كان متفرقا ، غير مجموع بين دفتين ، وأول من جمعه بين دفتين في مصحف واحد بعد وفاة الرسول – ﷺ– هو : أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – بإشارة من عمر – رضي الله عنه – ، لما استحر (أي : اشتد) القتل بالقراء يوم اليمامة ، في زمن خِلافته ، في أواخر العام الحادي عشر للهجرة ، فخشي عمر – رضي الله عنه – أن يتكرر مثل هذا في المستقبل ، وقد يكون عند من يستشهد منهم شيء من القرآن لا يحفظه غيره ، وليس ببعيد أن يفقد مع استشهادهم قطع كتب عليها شيء من القرآن بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وقد يكون ما كتب في هذه القطع لا يحفظه إلا القراء الذين استشهدوا ، وبذلك يضيع شيء من القرآن فأشار على أبي بكر بجمع القرآن في صحف متماثلة المقدار ، ثم يجعلها بين دفتين حتى يمكن صيانتها من الضياع .

فندبا زيد بن ثابت – رضي الله عنه – إلى ذلك ، فجمعه غير مرتب السور بعد تعب شديد ، يدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله السباق ، أن زيد بن ثابت – رضي الله عنه – قال (أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب– رضي الله عنه – عنده ، قال أبو بكر : – رضي الله عنه – : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن فقلت لعمر : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله – ﷺ–..؟ قال عمر : هذا والله خير . فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر .

قال أبو بكر : إنك شاب عاقل ، ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفني نقل حبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن ، فقلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله – ﷺ–..؟ فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر . فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع ، والأكتاف ، والعسب ، وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبي خزيمة الأنصاري .. لم أجدها مع غيره : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم .. الآيتين) فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر – رضي الله عنها –)[1] . وكان زيد لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان ، فقد قال أبو بكر لعمر ولزيد : اقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه)[2].

---

[1] – انظر : فتح الباري : ج6/ ص 225–226.

[2] – الإتقان : ج1/ ص 165.

فهذه الرواية تدل دلالة واضحة على أنهم ما كانوا يكتبون بمجرد وجدان شيء من كتاب الله مكتوبا ، حتى يشهد به من تَلَقَّاه سماعا ، زيادة في الاحتياط . قال ابن حجر : وكان المراد بالشاهدين : شاهد الحفظ ، وشاهد الكتابة .

وقال السخاوي : المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله – ﷺ– ، والمراد : أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن [1] .

وقد يتساءل سائل : لماذا لم يأمر أبو بكر أو عمر – رضي الله عنهما – الناس أن ينسخوا مصاحف مما كتبه زيد بن ثابت ..؟ ولماذا لم يحرص كبار الصحابة على أن يكون لدى كل واحد منهم ، أو لدى بعضهم على الأقل نسخة من هذه الصحف التي تتضمن كتاب الله ..؟

فيجاب : إن أبا بكر – رضي الله عنه – لم يجمع القرآن لحدوث خلل في قراءته ، وإنما جمعه خوفا من ذهاب حملته باستشهادهم في الغزوات ، وكان جمعه له بالأحرف السبعة ، والناس يقرءون بها إلى زمن عثمان – رضي الله عنه – ، فلا يختلف مصحف أبي بكر عما يقرؤه الناس ويحفظونه ، فلا داعي إذن لحمل الناس على مصحفه ..

أما عثمان – رضي الله عنه –: فإنه لم يجمع القرآن إلا بعد أن رأى اختلاف الناس في قراءته ، حتى أن بعضهم كان يقول للبعض الآخر : إن قراءتي خير من قراءتك ، وكان جمعه له بحرف واحد وهو حرف قريش الذي نزل به القرآن ابتداء ، وترك الأحرف الستة الباقية ، فكان من الواجب حمل الناس على اتباع مصحفه ، وعلى قراءته بحرف واحد فقط ، قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ..

وقد كان لزيد بن ثابت – رضي الله عنه – مؤهلات خاصة رشحته للقيام بهذا العمل ، منها : –

1- أن زيد بن ثابت كان من كتاب الوحي بين يدي رسول الله – ﷺ–.
2- كان من حفظة القرآن ، وشهد العرضة الأخيرة .
3- شبابه وقوته ، حتى لا تفتر عزيمته ، أو يضعف أمام هذا العمل الذي يحتاج إلى جهد وصبر .
4- رجاحة عقله وفطانته ، حتى يكون عمله متكاملا بعيدا عن أي خلل أو نقص .
5- أمانته وتقواه ، حتى يكون بعيدا عن الريبة والشك .. وقد تكون هذه الصفات موجودة في كثير من حفظة القرآن ، ولكنها قد لا تكون مجتمعة في واحد منهم كما اجتمعت في شخصية زيد بن ثابت – رضي الله عنه – ، فأهلته للقيام بهذا العمل ، فقام بهذه المهمة في صحف أبي بكر ، ومصحف عثمان – رضي الله عنهم جميعا – ، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء

---

[1] – الإتقان : ج1/ ص 167.

مزايا جمع أبي بكر

لجمع القرآن في عهد أبي بكر مزايا عديدة منها : -

1- البحث عن القطع التي كتب بها القرآن من قبل وجمعها قبل ضياع شيء منها أو تآكلها ، وتجديد كتابتها في صحف مجتمعة متساوية المقدار ، وفي هذا ضمان وصيانة للقرآن ، بحفظه في السطور بجانب حفظه في الصدور .

2- اتصال السند الكتابي ، وتجلى ذلك بالأخذ عن الصحف التي كتبت بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وذلك كاتصال السند المتواتر في الرواية ، فتكون كتابة أبي بكر بمثابة الطبقة الثانية من الشيوخ ، وكتابة عثمان بمثابة الطبقة الثالثة ، وفي هذا زيادة في التوثيق والاحتياط بشأن القرآن وضبطه .

3- اقتصر في هذا الجمع على ما لم تنسخ تلاوته – عند القائلين بنسخ التلاوة – ، وجرد من كل ما ليس بقرآن .

4- لم يكتب فيها إلا ما اجمع الصحابة على أنه قرآن ، وتواترت روايته ، فقد جاءهم عمر رضي الله عنه – بآية الرجم فلم يكتبوها مع شهادة عمر بها ، ورؤيتهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يرجم ، ومع معرفتهم بأنها من فرائض الله ، إلا أنهم لم يكتبوها لأن عمر – رضي الله عنه – جاء بها وحده . [1]

5- رتبت الآيات دون السور ، ثم جمعت هذه الصحف بين دفتين [2].

6- قال الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز : - (يتميز أول مصحف رسمي عن النسخ الأخرى الكاملة أو الناقصة التي عند الأفراد ، بمطابقته المطلقة للنص المنزل ، إذ استبعد منه كل ما لم يتضمنه النص الأصلي طبقا للعرضة الأخيرة . فبينما ابن مسعود ، أو أبي بن كعب كانا يكتبان من الذاكرة على مصحف كل منهما ، فيضيفان كلمة قد ترجع إلى تاريخ سابق ، أو قد يوضحان في الهامش أو بين السطور – وغالبا بلون مختلف – (أي للمداد) بعض التفسيرات ، أو بعض أدعية الصلاة الخارجة عن النص ، فإن المصحف الرسمي يخلو حتى من أسماء السور ..) [3]

هذه بعض المزايا التي تمتعت بها صحف أبي بكر ، والتي جعلت الصحابة – رضوان الله عليهم – يلهجون بالثناء على أبي بكر – رضي الله عنه – بجمعه القرآن ، وحفظه من الضياع ، قال علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – : (أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع كتاب الله ..) [4] .

---

[1] – انظر : الإتقان : ج1/ ص 58.

[2] – المدخل لدراسة القرآن الكريم : ص 273.

[3] – المدخل لدراسة القرآن الكريم : ص 273.

[4] – انظر : مناهل العرفان : ج1/ ص253. والمدخل لدراسة القرآن الكريم : ص 273.

جمع القرآن في عهد عثمان – رضي الله عنه وأرضاه –

إذا كان أبو بكر الصديق – رضي الله عن – أول مجدد لأمر الإسلام بأعماله الحاسمة ، ومواقفه الخالدة في أحداث الردة ، فإن عثمان – رضي الله عنه – أول مصلح في الإسلام قام بأعظم عمل قلد به الأمة الإسلامية أَجَلَّ المِنَن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بجمعه القرآن الكريم على حرف واحد ، وتوحيد المصاحف ، وجمع كلمة الأمة على نص موحد لدستورها ، المهيمن على أنحاء حياتها ، ما تعاور عليها الليل والنهار ، وكرت بها السنون والأحقاب .

روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – : _ (أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وآذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ...) [1]

وقد قيض الله تعالى الخليفة الثالث عثمان –رضي الله عنه – بإجماع أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – للقضاء على هذه الفتنة ، وجمع الناس على مصحف واحد ، وكان ذلك في سنة (25 هـ) في السنة الثانية أو الثالثة من خلافته ، قال : وغفل بعض من أدركناه ، فزعم أنه كان في حدود سنة ثلاثين ، ولم يذكر مستندا ..) [2] , وقام عثمان – رضي الله عنه – بنفسه للإشراف على هذا الأمر الجلل ، يدلنا على ذلك اختلافهم في لفظ (التابوت) وتحاكمهم إليه ، وأمره أن يكتبوه بلغة قريش .

وروى الدَّاني عن حذيفة قال : – (فأرسل عثمان إلى زيد بن ثابت ، وإلى عبد الله بن عمرو بن العاص ، وإلى عبد الله بن الزبير ،وإلى ابن عباس ، وإلى عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال : انسخوا هذه الصحف في مصحف واحد) [3]

وقد اقتصر فيه على لغة قريش التي نزل القرآن بها ابتداء ، بعد مشورة أهل الرأي من الصحابة .

أخرج ابن أبي داود بإسناد صحيح عن سويد بن غفلة قال : – (قال علي : لا تقولوا في عثمان إلا خيرا ، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا على ملأ منا ، قال : فقد بلغني أن بعضهم يقول : إن قراءتي خير من قراءتك ، وهذا يكاد

---

[1] – صحيح البخاري : ج6/ ص 99.

[2] – فتح الباري : ج10/ ص 391.

[3] – المقنع : ص 5.

يكون كفرا ، قلنا : فما ترى ..؟ قال : أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا اختلاف ... قلنا : نِعم ما رأيت ..) [1] .

الفرق بين جمع عثمان وبين جمع أبي بكر – رضي الله عنهما –

هناك بعض الفروق بين جمع عثمان وجمع أبي بكر منها : –

1- تقدم أن أبابكر جمع القرآن بإشارة من عمر – رضي الله عنه – ، وسببه الخوف من ضياع القرآن باستشهاد القراء في الغزوات والمواطن ... أما في خلافة عثمان – رضي الله عنه – فقد كثر اختلاف الناس في قراءة القرآن ، فخشي عثمان عاقبة هذا الأمر الخطير ، وقام بجمع القرآن على حرف واحد من الأحرف السبعة ، وهو حرف قريش الذي نزل به القرآن ابتداء ، وترك الأحرف الستة الباقية حرصا منه على جمع المسلمين على مصحف واحد في حرف واحد ، وعزم على كل من كان عنده مصحف مخالف لمصحفه الذي جمعه أن يحرقه ، فأطاعوه واستصوبوا رأيه .
فالمصحف العثماني لم يجمع إلا بحرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن وهو : حرف قريش وأما القراءات المعروفة الآن جميعها ، فهي في حدود ذلك الحرف الواحد فقط ، وأما الأحرف الستة الباقية فقد اندرست معرفتها بتاتا من الأمة .

2- إن الصديق أبابكر أمر بكتابة نسخة واحدة لتبقى في دار الخلافة مرجعا للمسلمين ، أما عثمان فأمر بكتابة بضعة نسخ ، ووزعها على الأمصار الإسلامية ، وأرسل مع كل نسخة قارئا حافظا .

3- جمع أبي بكر للقرآن كان نقلا لما كان مفرقا في الرقاع وغيرها ، وجمعها بين دفتين ، أما جمع عثمان فكان نسخا للمصحف الذي جمعه أبو بكر ، مع الاقتصار على حرف واحد ، وهو حرف قريش ، بعد زوال الضرورة التي استدعت قراءته بالأحرف السبعة [2] .

4- كان جمع عثمان فيه ترتيب للسور كما هو مكتوب الآن في المصاحف التي بين أيدينا ..

فإن قيل : – لم لم يحرق عثمان – رضي الله عنه – الصحف البكرية التي عند حفصة ، كما أحرق غيرها من مصاحف الأفراد ..؟

ويجاب : – لأن تلك الصحف كانت لها صفة رسمية ، وانعقد عليها الإجماع ، وهي أصل المصحف العثماني الذي انتقلت اليه الصفة الرسمية ، فكان من الخير أن يبقيها حتى يتم ذيوع هذا المصحف بين عامة المسلمين وخاصتهم ، ويأخذ مكانه

---

[1] – انظر البرهان : ج1/ ص 239.

[2] – انظر : مناهل العرفان : ج1/ ص 262.

في مدارساتهم وتعلمهم ، وتعليمهم ، ولتقوم الحجة بتلك الصحف على من تحدثه نفسه بشق عصا الطاعة ، ورجع الأمة إلى الخلاف .

جاء في كلام – بدر الدين العيني – : فإن قيل : فما قصد عثمان بإحضار الصحف من بيت حفصة ، وقد كان زيد بن ثابت ومن أضيف إليه – ليعاونه – من حفاظها ...؟

قيل : – الغرض من ذلك سد باب القالة ، ولئلا يزعم زاعم أن في الصحف قرآنا لم يكتب ، ولئلا يرى إنسان فيما كتبوه شيئا مما لم يقرأ به فينكره ، فالصحف شاهدة لجميع ما كتبوه ، ولذلك عندما انتهى هذا الدور ، بمرور عهد الخلافة العثمانية ، وعهد خلافة علي – كرم الله وجهه – وقام بالأمر معاوية – رضي الله عنه – ، طلب – مروان بن الحكم – ، وكان واليا على المدينة من قبل معاوية – هذه الصحف فغسلها .

قال ابن شهاب الزهري ، كما رواه ابن حجر ، أخبرني سالم بن عبد الله بن عمر قال : – كان مروان يرسل إلى حفصة يسألها الصحف التي كتب فيها القرآن ، فتأبى أن تعطيه ، فلما توفيت حفصة ورجعنا من دفنها ، أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ليرسلن اليه تلك الصحف ، فأرسل بها اليه ، فأمر بها مروان فشققت ، وقال : – إنما فعلت ذلك لأني خشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب ..) [1]

وفي عمل مروان بن الحكم ، وغسله الصحف وتشقيقها بعد وفاة أم المؤمنين حفصة – رضي الله عنها – لفتة من لفتات العقل الوثاب ، يرشد إلى ذلك التعليل الفاحص الذي يشعر بصحة هذا العمل الخطير من عمل عثمان – رضي الله عنه – . وبقاء الصحف البكرية عند حفصة إلى عهد معاوية ، وولاية مروان على المدينة ، وقد جاوزت فيما تخطت من عهود الخلاف ة عهد أمير المؤمنين علي – كرم الله وجهه – ، رافع لكل شبهة تختلج في صدور مرضى القلوب ...

عدد المصاحف العثمانية

المصاحف : جمع مصحف ، والصحيفة : قطعة من الجلد أو غيره يكتب فيها ، وقد يقال مصحف – بكسر الميم – .[2]

وفي الاصطلاح : صار لفظ المصحف علما على ما يجمع فيه القرآن كله ، وقد عرف اسم المصحف منذ عهد الصديق – رضي الله عنه – ، إلا أن ما كتب في عهده اشتهر لدى العلماء الباحثين باسم الصحف ، أما ما كتب في عهد الخليفة عثمان – رضي الله عنه – فقد اشتهر باسم المصحف .

---

[1] – انظر : الخليفة المفترى عليه ، ص 119–120 . والمصاحف : ج1/ ص 25.

[2] – انظر : منهج الفرقان : ص 113.

وقد اختلفت الروايات في عدد المصاحف التي فرقها عثمان في الآفاق ، فقيل : إنها أربعة ، وهو الذي اتفق عليه أكثر العلماء ، وقيل : إنها خمسة ، وقيل : إنها ستة ، وقيل : سبعة ، وقيل : ثمانية . [1]

ونرجح بأن عثمان – رضي الله عنه – قد أرسل بنسخة من المصحف إلى كل قطر فتحه المسلمون آنذاك ، ويدل على ذلك العقل والنقل ..

أما العقل : فإن الغرض من إرسال المصاحف إلى الأمصار هو القضاء على الفتنة التي كانت قائمة حينئذ بسبب اختلاف المسلمين في القراءة ، والمنع من حدوث مثلها مرة أخرى في أقطار المسلمين ، وهذا لا يتحقق إلا بإرسال المصاحف إلى جميع الأمصار .

وأما النقل : – فهو حديث أنس الذي منه : (وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا .)[2] . وكلمة أفق تدل بعمومها على أنه أرسل المصاحف إلى جميع الأمصار لا إلى بعضها دون البعض الآخر .وكتبت بالخط الكوفي ، وبغير نقط ولا شكل ، ولم يكن فيها علامات للأجزاء والأحزاب ، ونحوها . وبعث – رضي الله عنه – مع كل مصحف من يرشد الناس إلى قراءته ، بما يحتمله رسمه من القراءات مما صح وتواتر ..
فكان عبد الله بن السائب مع المصحف المكي ، والمغيرة ابن شهاب مع المصحف الشامي ، وأبو عبد الرحمن السلمي مع المصحف الكوفي ، وعامر بن قيس مع المصحف البصري ، وأمر زيد بن ثابت أن يقرئ الناس بالمصحف المدني ..

مقارنة بين جمع القرآن في عهوده الثلاثة :

1- كتب القرآن في عهد النبي – ﷺ– لكنه لم يجمع في مكان واحد إلا بعد وفاته ، ولم يجمع في مكان واحد إلا في عهد أبي بكر وعثمان ، وكان في عهوده الثلاثة مجردا من النقط والشكل ، والأعشار ، والأحزاب .

2- لم يكن القرآن في عهد الرسول – ﷺ– مرتب الآيات والسور ، أما في عهد أبي بكر – رضي الله عنه – فقد كان مرتب الآيات دون والسور ، وفي عهد عثمان – رضي الله عنه – رتبت آياته وسوره .. [3]

3- كتب القرآن في عهد الرسول – ﷺ– وعهد أبي بكر بالوجوه التي نزل بها القرآن ، والمعبر عنها بالأحرف السبعة ، أما في عهد عثمان – رضي الله عنه – فكتب بحرف قريش خاصة . وكان بعضهم يكتب لنفسه أحيانا

---

[1] – انظر : تاريخ القرآن : ص 76.

[2] – فتح الباري : ج9/ ص 21.

[3] – منهج الفرقان : ص 109 .

حسبما تلقى من رسول الله – ﷺ– بما يوافق لغته من الحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، ولما حصل الخلاف زمن عثمان ، أحرق عثمان تلك المصاحف ، وأبقى حرف قريش خاصة ، الذي نزل به القرآن ابتداء ...

4- كان جمع القرآن في عهد النبي – ﷺ– مع أنه محفوظ في الصدور ، لكمال العناية به ، ولحفظه ، وصيانته . وكان جمع أبي بكر للقرآن خشية ضياع شيئ من القرآن بموت حفظته في المواطن ، وفي ميادين الجهاد ، ولتكون الصحف مرجعا يرجعون اليه عند الحاجة .

وأما جمع عثمان : فقد كان لرفع الخلاف الناجم في قراءة الأحرف السبعة ، فجمعه على حرف قريش الذي نزل به القرآن ابتداء .. **وفي الختام نقول** : –

إن القرآن الذي نقرؤه اليوم ، هو القرآن المعجز الذي أنزله الله على رسوله – ﷺ– بلا زيادة ولا نقصان ، ولا تبديل ، وأي طعن فيه ساقط لا يرتكز على أساس سليم ، وليس يعتبر في صحة نقل القرآن أن لا يخالف فيه مخالف ، وإنما المعتبر في ذلك مجيئه عن قوم بهم يثبت التواتر وتقوم الحجة ، وصدق الله العظيم القائل : – (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (فصلت: 41) . وغير معقول أن نبطل ما أجمع عليه المسلمون بروايات معظمها موضوع وما صح منها فله مجامل صحيحة تحمل عليه ، وليس نصا على ما يزعم الزاعمون ، وأن من يزعم أن القرآن نقص منه شيء ، أو زيد فيه شيئ ، فهو كمن يزعم أن الصلوات المفروضة كانت عشرا فأنقصها المسلمون إلى خمسة ، فإذا صح في العقول شيئ من هذا صح ما تقولوه على القرآن الكريم ...

وصدق الله العظيم إذ يقول : (إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) (الحج : 46) وما زال القرآن الكريم يُطِلُّ من عليائه ، ويتحدى كل كذاب أَشِر أن يأتي بمثل أقصر سورة منه ...

القراءات القرآنية

القراءة لغة :- جمع قراءة ،وهي في الأصل مصدر سماعي لقرأ ..يقرأ ..قراءة .. و قرآنا .[1]

وفي الاصطلاح : - علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزو لناقله .[2]

نشأة القراءات وتدوينها :

نزل القرآن الكريم على رسول الله - ﷺ- في ثلاثة وعشرين عاما منجما ، تيسيرا على المسلمين ليقرؤوه على مكث وتثبت ، قال تعالى : (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) (الإسراء : 106) وكان الرسول - ﷺ- يتلقى الآيات من جبريل - عليه السلام - فيتلوها على صحابته فور نزولها ، وكان تلقيهم من النبي - ﷺ- حرفا حرفا ، وكلمة كلمة ، لم يهملوا فيه حركة ولا سكونا ، ولا إثباتا ولا حذفا ، فكانوا على تثبت منه ... وقرأ الناس القرآن بالحروف التي تلقوها عن رسول الله - ﷺ- أو عن الصحابة ، رضي الله عنهم أجمعين .وكان قراء القرآن يختلفون في الأداء كل حسب تلقيه من رسول الله - ﷺ- كما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري بسنده عن عمر بن الخطاب والذي يقول : (سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله - ﷺ- ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله - ﷺ- ، فكدت أساوره في الصلاة ، فتصبرت حتى سلم ، فلببته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ..؟ قال : أقرأنيها رسول الله - ﷺ- ، فقلت : كذبت .. فان رسول الله - ﷺ- قد أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت أقوده إلى رسول الله - ﷺ- فقلت : إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال رسول الله - ﷺ- أرسله ، اقرأ يا هشام ، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ ، فقال رسول الله - ﷺ- كذلك أنزلت، ثم قال : اقرأ يا عمر ، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرءوا ما تيسر منه ..)[3] وهكذا كان الرسول - ﷺ- يتولى إزالة أسباب الاختلاف في القراءة بين أصحابه كلما ظهرت بوادرها ، (ولما انتهى ذلك الاختلاف إلى من لم يعاين صاحب الشرع ، ولا علم بما أباحه من ذلك ، أنكر كل قوم على الآخرين قراءتهم ، واشتد الخصام بينهم) [4]وذلك لما اتسعت رقعة

---

[1] - لسان العرب - مادة - قرأ- ج5/ ص 3563 . والقاموس المحيط فصل القاف باب الهمزة ج1/ ص25 .

[2] - منجد المقرئين - ص61.

[3] - فتح الباري ج8/ ص 639- 640 .

[4] - الإبانة عن معاني القراءات ص 27 .

الإسلام ، وتفرق المسلمون في الأمصار ، في خلافة سيدنا عثمان – رضي الله عنه وأرضاه – حينما اجتمع لغزو أرمينية وأذربيجان أهل الشام وأهل العراق .

يروي الإمام البخاري بسنده عن أنس بن مالك : (أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ..) [1]

وجردت هذه المصاحف من النقط والشكل ليحتملها ما صح نقله وثبت تلاوته عن النبي – ﷺ– إذ كان الاعتماد على الحفظ لا على مجرد الخط ، وكان على الأحرف التي أشار إليها النبي – ﷺ– بقوله : (أنزل القرآن على سبعة أحرف ..) ، فكتبت المصاحف على اللفظ الذي استقر عليه في العرضة الأخيرة عن رسول الله – ﷺ– ، وقرأ أهل كل مصر بما في مصحفهم ، وتلقوا ما فيه عن الصحابة الذين تلقوه من في رسول الله – ﷺ– ، ثم قاموا بذلك مقام الصحابة الذين تلقوه عن النبي – ﷺ–. وقد لمع في سماء هؤلاء الأئمة نجوم مهروا في القراءة حتى أصبحوا من الشهرة بمكان فنسبت القراءة إليهم نسبة التزام لا نسبة اختراع ..

فكانوا بالبصرة على قراءة : أبي عمرو ويعقوب .

وبالكوفة : على قراءة حمزة ، وعاصم .

وبالشام : على قراءة ابن كثير .

وبالمدينة : على قراءة نافع ..

ثم إن القراء بعد ذلك كثروا وتفرقوا بالبلاد ، وانتشروا ، وخلفهم أمم بعد أمم ، عرفت طبقاتهم ، واختلفت صفاتهم ، فكان منهم المتقن للتلاوة ، المشهور بالرواية والدراية ، ومنهم المقتصر على وصف من هذه الأوصاف ، وكثر بينهم لذلك الاختلاف ، وقل الضبط ، واتسع الخرق ، وكاد الباطل يلتبس بالحق ، فقام نفر من علماء الأمة ، وبينوا الحق المراد ،

---

[1] – فتح الباري ج8/ص627 .

وجمعوا الحروف والقراءات ، وعزوا الوجوه والروايات ، وميزوا بين المشهور والشاذ ، والصحيح وغيره ، بأصول أصلوها ، وأركان فصلوها .. [1].

هل القراءات السبع هي الأحرف السبعة ..؟

أجمع العلماء على أنه ليس المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع المشهورة المنسوبة لسبعة من القراء ، وان كانت قراءتهم لا تخرج عن الأحرف السبعة.وكيف يكون المراد بالقرءات السبع الأحرف السبعة .. ولم يكن القراء السبعة قد وجدوا عند نزول الأحرف السبعة ..؟ بل جمع قراءاتهم – ابن مجاهد – بعد ذلك في نهاية القرن الثالث الهجري ...فالقراء السبعة لم يكونوا قد وجدوا ، ولا تلقوا ما كانوا يقرءون به ، وكان المسلمون قبلهم يقرءون بما سمعوا من النبي– صلى الله عليه وسلم – وأصحابه ، مما يوافق ما قرأه هؤلاء السبعة أو يخالفه ، معتدين في ذلك على الرواية المتصلة بالنبي – صلى الله عليه وسلم – ، ولو كان المراد بالسبعة الأحرف في الحديث قراءة هؤلاء القراء المعروفين ، لما ساغ لأحد قبلهم أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء إذا ولدوا وتعلموا القراءة اختاروا القراءة به ، وإلا كان قارئا بغير ما أنزل من القرآن ، وذلك ظاهر البطلان ، قال أبو شامة :– (ظن قوم أن القرء ا ت السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث ،وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة ، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل)[2]

فلما جاء – ابن الجزر ي– أراد أن يرفع هذا الوهم عمليا من أذهان الناس فوضع كتابه (النشر في القراءات العشر) ، وقد نص هو على هذا الدافع الذي حدا به إلى تأليف كتابه فقال : – (وإنما أطلنا في هذا الفصل لما بلغنا عن بعض من لا علم له أن القراءات الصحيحة هي التي عند هؤلاء السبعة ، وأن الأحرف السبعة التي أشار إليها النبي – ﷺ– هي قراءة هؤلاء السبعة ، بل غلب على كثير من الجهال أن القراءات الصحيحة هي التي في الشاطبية ، والتيسير) [3]

فوائد اختلاف القراءات : –

من الواضح عند التأمل في القراءات أن الاختلاف في القراءة لا يؤدي آلي تناقض في المقروء ، بل هو اختلاف تنوع يصدق بعضه الآخر ، لا اختلاف تضاد ، وهذا الاختلاف له فوائد كثيرة منها :

1 : – بيان حكم مجمع عليه ، كقوله تعالى :– (وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما

---

[1] – انظر النشر ج1/ ص7–9 .

[2]– انظر فتح الباري ج9/ص30 ، وتفسير الطبري ج1/ ص65 .

[3] –النشر .. لابن الجزري ج1/ص36 .

السدس) (النساء : 12) قرأ سعد بن أبي وقاص : (وله آخ أو أخت من أم) بزيادة لفظ (من أم) فظهر بها أن المراد بالاخوة هنا هم : الاخوة لأم ، وهذا أمر مجمع عليه ، [1]

2 : – ترجيح حكم اختلف فيه ..كقوله تعالى في كفارة اليمين : (فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهلاكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة)(المائدة :89) ، فقراءة (أو تحرير رقبة مؤمنة) بزيادة لفظ (مؤمنة) [2] فيها ترجيح لاشتراط الإيمان ، كما ذهب إليه الشافعي ، ومالك ، فانهما اشترطا ذلك خلافا لأبي حنيفة .[3]

3 :– الجمع بين حكمين مختلفين : كقراءة (يَطْهُرْنْ) و (يَطَّهَرْنْ) ، بالتخفيف والتشديد ، وهما قراءتان صحيحتان [4] ، فقد قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وفي رواية خفض عنه (يطهرن) بتخفيف الطاء ، وضم الهاء . .. وقرأ حوزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية أبي بكر والمفضل عنه (يطهرن) بتشديد الطاء وفتح الهاء ..[5] وصيغة التشديد تفيد المبالغة في طهر النساء من الحيض ، أما قراءة التخفيف فلا تفيد تلك المبالغة . .. وبمجموع القراءتين يحكم بأمرين : – أحدهما :– إن الحائض لا يقربها زوجها حتى يحصل أصل الطهر ، وذلك بانقطاع الحيض .. ثانيهما :– أنه لا يقربها زوجها إلا إذا بالغت في التطهر وذلك بالاغتسال ، فلا بد من الطهورين كليهما لجواز قربان النساء بعد الحيض ..[6].. وهذا ما ذهب اليه الإمامان : مالك ، والشافعي والجمهور .[7]

4 :– الدلالة على حكمين شرعيين ، كقراءة (وأرجلكم) بالخفض ، والنصب ، في قوله تعالى : (فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ..) (المائدة : 6) والقراءتان صحيحتان ، فقد قرأ نافع ، وابن عامر ، والكسائي ، ويعقوب ، وحفص ، (أرجلكم) بفتح اللام ، وقرأ بقية العشرة بخفضها . [8]

فقراءة النصب تفيد : طلب غسل الرجلين ، لعطفها على لفظ (وجوهكم) و (أيديكم) المغسول وهو منصوب ...

وقراءة الجر :– تفيد مسحها ، عطفا على لفظ (رءوسكم) المجرور وهو ممسوح . .. ثم بين الرسول – ﷺ– أن

---

[1] –علما بأن هذه القراءة شاذة وغير متواترة _– أنظر في رحاب القرآن ج1/ ص227 .

[2] – وهي قراءة شاذة غير متواترة – انظر في رحاب القرآن ج1/ ص227 .

[3] –انظر بداية المجتهد ج1/ ص419

[4] – المهذب في القراءات السبع وتوجيهها – د. محمد سالم محيسن ج1/ ص91 .

[5] – انظر السبعة –لابن مجاهد ص 182 .

[6] – انظر مناهل العرفان ج1/ص148 .

[7] –بداية المجتهد ج1/ ص57–58 .

[8] – انظر النشر .. ج2/ ص254 .

المسح يكون للابس الخف ... وأن الغسل يجب على من لم يلبس الخفين . .. روى البخاري ومسلم – واللفظ لمسلم – عن ابن عمر أن رسول الله – ﷺ– قال:– (ويل للأعقاب من النار ، وأسبغوا الوضوء) [1]

5 : – دفع توهم ما ليس مرادا .. كقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ..) (الجمعة : 9) فقرأ بعضهم : (فامضوا) وهي قراءة شاذة [2] بدلا من (فاسعوا) وهي القراءة الصحيحة المتواترة .. فالقراءة الأولى : قد يفهم منها وجوب السرعة في الذهاب إلى صلاة الجمعة ، لكن القراءة الثانية رفعت هذا الفهم ، لأن المضي يفهم منه مطلق الذهاب ولا يدل على السرعة فيه ..

6 :– بيان لفظ مبهم على البعض ..كقراءة (كالصوف المنفوش) – وهي قراءة شاذة – في قوله تعالى (وتكون الجبال كالعهن المنفوش)(القارعة : 5) [3] ، فبينت القراءة الثانية أن العهن هو الصوف .

7 :– بيان معتقد ضل فيه بعض المسلمين .. كقراءة (وملكا) بكسر اللام في قوله تعالى :

(وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا) (الإنسان :20) وقد وردت هذه القراءة عن ابن كثير وغيره [4]، وفيها دليل على رؤية الله تعالى في الآخرة .

8 : – بيان فضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم ، من حيث تلقيهم كتاب ربهم هذا التلقي ، وإقبالهم عليه هذا الإقبال ، والبحث في ألفاظه ، لفظة ،والكشف عن صيغه ، صيغة صوابه ، وإتقان تجويده ، فلم يهملوا تحريكا ، ولا تسكينا ، ولا تفخيما ، ولا ترقيقا ، حتى ضبطوا مقادير المدات ، وتفاوت الامالات ..

12-ظهور سر الله تعالى في توليه حفظ كتابه العزيز ، وصيانة كلامه المنزل ، فلم يخل الله تعالى عصرا من العصور من إمام حجة ، قائم بنقل كتاب الله تعالى وإتقان حروفه ورواياته ، وتصحيح وجوهه وقراءاته ، وذلك مصداقا لقوله تعالى : _ (إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)[5]

---

[1] – فتح الباري ج1/ص326 ، وصحيح مسلم ج3/ ص168 .

[2] – في رحاب القرآن – د. محمد سالم محيسن ج1/ص288.

[3] – وهي القراءة الصحيحة المتواترة ، أنظر في رحاب القرآن ج1/ ص288 ..

[4] – انظر مناهل العرفان ج1/ ص141–142 .

[5] –النشر في القراءات العشر ج1/ 28 ، ومناهل العرفان ج1/ 147–148 . والآية في سورة الحجر رقم / 9 .

أنواع القراءات

جعل ابن السبكي القراءات على ضربين : **المتواتر** : وهو ما نقله جمع لايمكن تواطؤهم على الكذب ، **والشاذ** :- وهو غير المتواتر ، وجعل القراءات السبع والعشر متواترة ، والشاذ ما وراء ذلك . [1]

والذي حرره ابن الجزري ونقله عنه السيوطي وغيره : **أن أنواع القراءات ستة** : -

النوع الأول : المتواتر : - وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب ، عن مثلهم ، ومثاله : ما اتفقت الطرق في نقله عن السبعة أو عن غيرهم ، وهذا هو الغالب في القراءات .

النوع الثاني : - **المشهور** :- وهو ما صح سنده بأن رواه العدل الضابط عن مثله ، ووافق العربية ولو بوجه ، ووافق أحد المصاحف العثمانية ، سواء أكان عن الأئمة السبعة أو غيرهم من الأئمة المقبولين ، واشتهر عن القراء ، فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ ، إلا أنه لم يبلغ درجة التواتر . وهذان النوعان هما اللذان يقرأ بهما ، مع وجوب اعتقادهما ، ولا يجوز إنكار شيء منهما .

النوع الثالث : - **الآحاد** :- وهو ما صح سنده ، وخالف الرسم آو العربية ، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور ، وهذا النوع لا يقرأ به ، ولا يجب اعتقاده . من ذلك : ما أخرجه الحاكم من طريق عاصم الجحدري عن أبي بكرة ، أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قرأ (متكئين على رفارف خضر وعباقري حسان) بينما القراءة المتواترة (متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان) [2] . وأخرج من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه – صلى الله عليه وسلم – قرأ (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرات أعين) .. والقراءة المتواترة : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين)[3]

النوع الرابع : الشاذ : - وهو ما لم يصح سنده ، كقراءة (ابن السميقع) (فاليوم ننحيك ببدنك) بالحاء المهملة ، (لتكون لمن خلفك آية) (يونس : 92) ، وبفتح الخاء وسكون اللام من كلمة (خلفك) [4]ومن ذلك أيضا : قراءة (ملك يوم الدين) بصيغة الماضي في (ملك) ونصب (يوم) ..[5] وهذا لا يجوز اعتقاده ، ولا يقرأ به ، لا في الصلاة ولا في غيرها .

النوع الخامس : - **الموضوع** :- وهو ما نسب إلى قائله بغير أصل .. ومثل ذلك : - القراءات التي جمعها محمد بن

---

[1] - انظر منهج الفرقان ج1/ ص173 ، والنشر ج1/ 45-46.

[2] -انظر المستدرك – للحاكم ج2 / 250 ، والآية في سورة الرحمن رقم / 76 .

[3] -المستدرك للحاكم ج2/ ص 250 ، والآية في سورة السجدة رقم / 27 .

[4] - قرأ العشرة : ننجيك، بالجيم ،وشددها تسعة منهم ، وخففها يعقوب، أنظر النشر ..ج2/ 259

[5] - منهج الفرقان ج1/ 174 .

جعفر الخزاعي ، ونقلها عنه أبو القاسم الهذلي ، ونسبها إلى الإمام أبي حنيفة .. مثل قوله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (فاطر : 28) برفع لفظ الجلالة (الله) ونصب همزة (العلماء) ، مع أن هذه القراءة لا أصل لها . [1]

النوع السادس : – ما يشبه المدرج :– وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير .. ومثاله : ما روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قراءة (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج)ة بزيادة (في مواسم الحج) [2]، وقراءة سعد بن أبي وقاص (وله أخ أو أخت من أم) بزيادة (من أم) [3]..... (وربما كانوا يدخلون التفسير في القرآن إيضاحا ، اعتمادا على أنهم محققون لما تلقوه عن رسول الله – ﷺ– على أنه قرآن ، فكان الالتباس عندهم مأمونا ، فلما كتبت المصاحف في عهد عثمان – رضي الله عنه – جُرِّدَت من ذلك لأنها صارت مرجعا عاما ..)[4]

أركان القراءة المقبولة

قال ابن الجزري :– (كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا ، وصح سندها ، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ، ولا يحل إنكارها ، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ..ووجب على الناس قبولها ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة ، أطلق عليها : ضعيفة أو شاذة ، أو باطلة ، صرح بذلك الإمام الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني ، نص عليه في غير موضع الإمام أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي ،وحققه الإمام الحافظ عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة ، وهو مذهب السلف ، الذي لا يعرف عن أحد منهم خلافه .)[5]

ويجمع هذا الضابط قول ابن الجزري في الطيبة :–

فكل ما وافق وجه النحو ... وكان للرسم احتمالا يحوي

وصح إسناداً هو القرآن .... فهذه الثلاثة الأركان .

---

[1] – منهج الفرقان ج1/174 .

[2] – فتح الباري ج8/ ص34 .

[3] – الإتقان ج1/ص102 .

[4] – انظر النشر ج1/ ص32، والإتقان ج1/ ص102 ، ومنهج الفرقان ج1/ ص174 .

[5] –انظر النشر ج1/ص10 ، والإبانة لمكي بن أبي طالب ص 39 .

وحينما يختلُّ ركنٌ أثبتِ ..... شذوذه لو أنه في السبعة .[1]

ولا تقبل قراءة تُعزى إلى إمام سواء أكان من السبعة أم من غيرهم ، ولا يطلق عليها لفظ الصحة ، إلا إذ أدخلت في هذا الضابط ، وانطبقت جميع الأوصاف عليها ، فإن الاعتماد إنما هو على استجماع تلك الأوصاف لا على من تنسب إليه ..

الركن الأول : – موافقة العربية ولو بوجه من وجوه النحو ، سواء أكان أفصح أم فصيحا ، مجمعا عليه أم مختلفا فيه اختلافا يضر مثله ، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع ، وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح ، إذ هو الأصل الأعظم ، والركن الأقوم ، وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية ، فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو ، أو كثير منهم ، ولم يعتبر إنكارهم ، بل أجمع الأئمة المقتدى بهم من السلف على قبولها ، كإسكان (بارئكم) و(يأمركم) ونحوه ..[2]

ومن أمثلة ما أنكره النحاة وغيرهم من القراءة المتواترة : قراءة : حمزة ، وقتادة ، وإبراهيم ، (والأرحام) بالجر .. (وقرأ بقية القراء – والأرحام – بالنصب)[3] في قوله تعالى : (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا)(النساء : 1) وهذا الخلاف يدور حول عطف الاسم الظاهر (والأرحام) على الضمير المجرور في كلمة (به) دون إعادة حرف الجر (الباء)وردها معظم النحاة البصريين ، فاتهموها حينا بالخطأ ، وحينا آخر باللحن ، وتارة بالقبح ، وتأولها فريق آخر ..

بخلاف الكوفيين [4] ، فقد أجازوا ذلك دون قيد أو شرط ، فليس هناك إذن إجماع في هذه المسألة .

توجيه الآية الكريمة :

أجاز فريق من النحاة عطف الاسم الظاهر على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض ،وفي مقدمة هؤلاء : الكوفيون عامة ..[5] وتبعهم في مذهبهم هذا ، جمع غفير من النحاة ، منهم : يونس ..[6]،

---

[1] – طيبة النشر : ج1:ص10

[2] – انظر الكلمتين في الآيتين (54) و (67) في سورة البقرة .

[3] – انظر النشر ج2/ 247 ، والبحر المحيط ج3/ ص 157 ، والكشاف ج1/ ص375 .

[4] – شرح الأشموني ج3/429–430 .

[5] – شرح الأشموني ج2/ 429 ، وانظر توضيح المقاصد والمسالك ج3/ ص 232 .

[6]– توضيح المقاصد والمسالك ج3/ ص332.

والأخفش([1]) .. والشلوبين ، وابن مالك [2].. وأبو حيان ..[3]

الترجيح :

ما ذهب اليه الكوفيون هو الأقرب إلى الصواب ، وذلك لأدلة كثيرة ، منها ما يتصل بالقراءة ، ومنها ما يتصل بالقياس ، ومنها ما له علاقة بالسماع من العرب .

أما من حيث القراءة : فان قراءة حفص (والأرحام) قراها حمزة ، والظاهر أنه لم يأت بهذه القراءة من عند نفسه ، بل رواها عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وذلك يوجب القطع بصحة هذه اللغة ، والعجب من هؤلاء النحاة يستحسنون إثبات هذه اللغة ببيتين مجهولين ، ولا يستحسنون إثباتها بقراءة حمزة ومجاهد ، مع أنهما كانا من أكابر علماء السلف في علم القراءة) .. ولها شاهد من كلام العرب ، ومما جاء في كلام العرب ، قول الشاعر :–

بنا أبدا لا غيرنا تدرك المنى ..... وتكشف غماء الخطوب الفوادح .[4]

فقد عطف الاسم الظاهر (غيرنا) على الضمير المخفوض في (بنا) . ..

وقال شاعر آخر :–

أكر على الكتيبة لا أبالي .....أحتفي كان فيها أم سواها ..[5]

فقد عطف الاسم الظاهر (سواها) على الهاء في (فيها) ..من غير إعادة الخافض . **وقال ابن المنير** : – (وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية ، بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة)[6]. لذا لا يجوز ألبته إخضاع القراءة لقواعد اللغة ، إذ أنها ليست حكما على القراءة .

---

[1] - المرجع السابق نفسه ج3/ ص 232.

[2] - شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ج2/ ص239 .

[3] - البحر المحيط ج 3/ ص 157 .

[4] – الإنصاف ج2 /ص465 .

[5] – البحر المحيط ج2/ص148 .

[6] –الانتصاف من الكشاف ج1/ ص472 .

فقراءة حمزة قراءة متواترة عن رسول الله – ﷺ– ، قرأ بها سلف الأمة ، واتصلت بأكابر قراء الصحابة ، الذين تلقوا من – في – رسول الله – ﷺ– بغير واسطة : عثمان ، وعلي ، وابن مسعود ، وزيد ، وأبي بن كعب – رضي الله عنهم أجمعين –) [1]

الركن الثاني : – موافقة أحد المصاحف العثمانية .. والمراد به :– أن توافق أحد المصاحف التي نسخها عثمان – رضي الله عنه – وأرسل بها إلى الأمصار ، كقراءة – ابن عامر – : (قالوا اتخذ الله ولدا) (البقرة : 116) بدون واو ... وقوله تعالى : – (وبالزبر وبالكتاب المنير) (آل عمران : 184) بزيادة الباء في الاسمين ، ونحو ذلك ، فانه ثابت في المصحف الشامي .

وكقراءة – ابن كثير – قوله تعالى : (جنات تجري من تحتها الأنهار) (التوبة : 100) فان ذلك ثابت في المصحف المكي .... وكذلك قوله تعالى : (فان الله هو الغني الحميد) (الحديد : 24) ، إذ قرأ (نافع ، وابن عامر) بحذف (هو) ، كما في مصاحف أهل مكة ، والعراق .

وكذا قوله تعالى : (سارعوا ..) (آل عمران :173) بحذف الواو ، إذ قرأ (المدنيان ، وابن عامر) بغير واو قبل السين ، وهي كذلك في مصاحف المدينة والشام ، وقرأ بقية العشرة بالواو ، إلى غير ذلك في مواضع كثيرة .
والمراد بقوله : (ولو احتمالا) : يعني ما يوافق الرسم ولو تقديرا ، نحو قوله تعالى : (مالك يوم الدين) (الفاتحة : 4) ، فانه كتب في جميع المصاحف بلا ألف ، مع أنه قرىء بها وبدونها ، فقراءة الحذف توافق رسم المصحف تحقيقا ، وقراءة الإثبات توافقه تقديرا ، فحذفها في الخط اختصارا (مالك الملك) (آل عمران :26) .

الركن الثالث : _ صحة السند :–

والمراد به : أن يروي تلك القراءة العدل الضابط عن مثله وهكذا حتى تنتهي ، وأن تكون مشهورة عن أئمة هذا الشأن الضابطين له ، غير معدودة عندهم من الغلط ، أو مما شذ بها بعضهم .. [2] . وما ذكره ابن الجزري وغيره ، وتبعه الإمام السيوطي ، من أن صحة السند مع الشهرة يكفيان لقبول القراءة هو خلاف ما عليه الجمهور، فلا بد من التواتر .. فالتواتر شرط في جميع القرآن الكريم ، وهو المعتبر عند جمهور العلماء من الأصوليين ، وفقهاء المذاهب الأربعة ، والمحدثين ،

---

[1] – السبعة – لابن مجاهد ص 72–74 .

[2] – النشر ج1/ ص11–13 .

والقراء ،فيرون أن اشتراط القراءة الصحيحة هو التواتر ، ولا تثبت بالسند الصحيح غير المتواتر ..[1] ولذا عرفوا القرآن الكريم بأنه : (الكلام المنزل على الرسول – ﷺ– المكتوب في المصاحف ، المنقول إلينا نقلا متواترا) [2]

قال الإمام النويري : – (عدم اشتراط التواتر قول حادث ، مخالف لاجماع الفقهاء والمحدثين وغيرهم ، لأن القرآن عند الجمهور من أئمة المذاهب الأربعة هو : ما نقل بين دفتي المصحف نقلا متواترا) [3]

وقال صاحب مسلم الثبوت وشارحه : (ما نقل آحادا فليس بقرآن قطعا ، ولم يعرف فيه خلاف لواحد من أهل المذاهب ، والمنقول آحادا ليس متواترا فليس قرآنا ..) [4]

التعريف بأئمة القراءات :

هم الأئمة الذين نسبت إليهم القراءات السبع أو العشر أو الأربع عشرة ..

فأئمة القراءات السبع هم : نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وعبد الله بن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي .

وأئمة القراءات العشر هم : هؤلاء السبعة مضافا إليهم : أبو جعفر ، ويعقوب ، وخلف .

وأئمة القراءات الأربعة عشر هم : هؤلاء العشرة مضافا إليهم : الحسن البصري ، وابن محيصن ، ويحيى اليزيدي ، والشنبوذي ..[5]

القراء السبعة :

1 –**الإمام ابن عامر الشامي** (ت118 للهجرة) : هو عبد الله بن عامر الشامي اليحصبي، ويكنى : بأبي عمرو ، وهو من التابعين ، ومن علماء الطبقة الثالثة . قال ابن عامر : ولدت سنة ثمان من الهجرة بضيعة يقال لها **رحاب** ، ويعتبر ابن عامر إمام أهل الشام في القراءة .

قال ابن الجزري : – (كان ابن عامر إماما كبيرا ، وتابعيا جليلا ، وعالما شهيرا ، أَمَّ المسلمين بالجامع الأموي سنين كثيرة في أيام عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – ، فكان يأتم به ، وهو أمير المؤمنين ، وجمع له بين الإمامة والقضاء ، ومشيخة الإقراء بدمشق ، فأجمع الناس على قراءته ، وعلى تلقيها بالقبول ، وهم الصدر الأول الذين هم أفاضل المسلمين .

---

[1] – غيث النفع في القراءات السبع ص 6 .

[2] – إرشاد الفحول ص 29 .

[3] – شرح طيبة النشر ج1/ ص121 – باختصار _

[4] – فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت ج2/ ص9 .

[5] – انظر النشر ج1/ص 112 ، ومعرفة القراء الكبار ج1/90–92 .

وقرأ على أبي هاشم المغيرة بن أبي شهاب (ت91 للهجرة) ، وأبي الدرداء : عويمر بن زيد بن قيس (ت 52 للهجرة) وغيرهما . وتتلمذ عليه عدد كبير منهم : ابن ذكوان : عبد الله بن أحمد القرشي الدمشقي (ت 242 للهجرة) وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، وخلاد بن يزيد بن صبيح المزي وغيرهم .. [1]

2-- **الإمام ابن كثير المكي** : (ت120 للهجرة) : - هو عبد الله بن كثير بن عمر بن عبد الله ، من علماء الطبقة الثالثة ، قال ابن الجزري : (كان ابن كثير إمام الناس في القراءة بمكة ، لم ينازعه فيها منازع)، تلقى القراءة عن : أبي السائب عبد الله بن السائب المخزومي (ت 68 للهجرة) ،وعن أبي الحجاج مجاهد بن جبر المكي ، وغيرهما ، وتتلمذ عليه عدد كبير .

3-**الإمام عاصم الكوفي** : هو عاصم بن بهدلة ، أبي النجود السدي ، ويكنى بأبي بكر ، وهو من التابعين ، ومن علماء الطبقة الثالثة ..

4 – **أبو عمرو بن العلاء البصري** (ت 154 للهجرة) : هو زبان بن العلاء بن عمار بن العريان المازني التميمي البصري ، وقيل : اسمه يحيى ، وكان إمام البصرة ومقرؤها . قال أبو عبيده معمر بن المثنى (ت 210 للهجرة) : (كان أبو عمرو أعلم الناس بالقراءات ، والعربية ، وأيام العرب ، والشعر ، وأيام الناس) .. [2]

5 -الإمام **حمزة الكوفي** (ت 156) : هو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات ، ويكنى أبا عمارة ، وهو من علماء الطبقة الرابعة .

6 – الإمام **نافع المدني** : (ت 169 للهجرة) : هو أبو رويم نافع بن أبي نعيم الليثي ، أصله من أصفهان ، وهو من علماء الطبقة الرابعة ، وكان شديد سواد اللون . قال مالك بن أنس – رضي الله عنه – : نافع إمام الناس في القراءة .

7 – الإمام السابع : **علي بن حمزة النحوي** (ت189 للهجرة) :- ويكنى أبا الحسن ، وقيل له الكسائي من أجل أنه أحرم في كساء وهو من علماء الطبقة الرابعة ...قال ابن الجزري : كان الكسائي إمام الناس في القراءة في زمانه ، وأعلمهم بالقراءة [3] .

---

[1] – انظر معرفة القراء الكبار ج1/67-79 . ، والنشر لابن الجزري ج1/ 144 .

[2] – النشر ج1 / 123 ، ومعرفة القراء الكبار ج1/ 86 ، والمهذب في القراءات العشر ج1/ ص 7 .

[3] – معرفة القراء الكبار ج1/ ص 100 والنشر ج1/ ص 172 ،.

افتراءات المستشرقين

يزعم المستشرقون – وعلى رأسهم – المستشرق اليهودي جولد زيهر .. صاحب كتاب – مذاهب التفسير الإسلامي –على أن الاختلاف في القراءات ليس عن توقيف ورواية ، بل أخذت من الرسم العثماني ، لخلو القرآن أول الأمر من النقط والشكل ، فاختلاف القراءات – في زعمه – إنما كان عن هوى ورأي واختيار من القراء ، لا عن توقيف وسند ورواية ، فليس لهذه القراءات سند إلى رسول الله – ﷺ– ، وليس للوحي مدخل فيها ...؟ [1]

وهذا زعم باطل ، تصادمه الحقائق التاريخية الثابتة التي لا يرقى إليها الشك ، وتعارضه الأدلة النقلية المتواترة الدالة على أن مصدر القراءات هو الوحي الإلهي ، ومنبعها هو النقل المتواتر عن النبي – ﷺ– ، الدالة على أن القراءة سنة متبعة ... فلو كانت القراءة مأخوذة من رسم المصحف ، وساغ لكل قارئ أن يقرأ بما يحتمله رسم المصحف ، لم يكن ثمة حاجة أن يرسل عثمان – رضي الله عنه – قارئا مع كل مصحف أرسله إلى الآفاق لتعليم المسلمين القراءة وفق المصحف المرسل ، وفي هذا دليل واضح على أن القراءة تعتمد على التلقي والرواية والسماع ، لا على الرسم والكتابة ، ولو كان خلو المصحف من الشكل والاعجام سببا في تنوع القراءات واختلافها ، لكانت كل قراءة يحتملها رسم المصحف معتبرة ، والواقع غير ذلك ..

ففي القرآن الكريم كلمات تكررت في أكثر من موضع ، ورسمت برسم واحد ، ولكن في بعض المواضع اتفق القراء على قراءتها بوجه وحد ، لأن غيره لم يصح به النقل ، ولم تثبت به الرواية ، مع أن الرسم يحتمله ، ومن الأمثلة على ذلك :

1- كلمة (**غشاوة**) : فقد تكررت هذه الكلمة في القرآن الكريم في موضعين :

الأول : في قوله تعالى : (وعلى أبصارهم غشاوة)(البقرة : 7)

والثاني : في قوله تعالى : (وجعل على بصره غشاوة) (الجاثية : 23) ، وهذه الكلمة مرسومة في جميع المصاحف العثمانية بحذف الألف بعد الشين في الموضعين معا ، ومع ذلك اتفق القراء على قراءتها في موضعها من سورة البقرة : بكسر الغين ،وفتح الشين ، واثبات الألف بعدها .. واختلفوا في قراءتها في موضعها من سورة الجاثية ، فقرأها بعضهم : بكسر الغين ، وفتح الشين ، واثبات الألف بعدها ، وقرأها بعضهم الآخر بفتح الغين ، وسكون الشين .. [2]، ومعنى

---

[1] – انظر مذاهب التفسير الإسلامي ص 8-9 .

[2] – قرأ حمزة والكسائي : (**غشوه**) بفتح الغين ، واسكان الشين ، من غير ألف بعدها ، والباقون : (**غشاوة**) بكسر الغين وفتح الشين ، واثبات الألف بعدها ..أنظر : إرشاد المريد فى مقصود القصيد – للشيخ علي بن محمد الشهير بالضباع ص 464 ، بهامش : إبراز المعاني لأبي شامة المقدسي .

القراءتين واحد ، فلو قرىء في موضع البقرة بفتح الغين وسكون الشين لكان ذلك صحيحا لغة ومعنى ، ولكن لم يقرأ أحد بهذه القراءة في هذا الموضع لعدم ثبوتها فيه ، وهذا يدل على أن القراءة إنما تؤخذ بالمشافهة والسماع ، ولا تؤخذ من خط المصحف ورسمه ..

2 – وكذلك كلمة (**الصاعقة**) : فقد ذكرت هذه الكلمة معرفة ومنكرة في القرآن الكريم في ستة مواضع :

الأول : – في قوله تعالى : (فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) (البقرة : 55)

الثاني : في قوله تعالى : (فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) (النساء : 153) .

الثالث والرابع : في قوله تعالى : (فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) (فصلت : 13) .

الخامس : في قوله تعالى : (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون)(فصلت : 17) .

السادس : في قوله تعالى : (فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) (الذاريات : 44) . وهذه الكلمة مرسومة في جميع المصاحف العثمانية في المواضع الستة بدون ألف بعد الصاد ، والقراء أجمعوا على قراءتها في المواضع الخمسة بإثبات ألف بعد الصاد مع كسر العين ، واختلفوا في الموضع السادس ، فقرأ بعضهم : بإثبات الألف بعد الصاد مع كسر العين ، وقرأ بعضهم الآخر بحذف الألف مع سكون العين ، ومعنى القراءتين واحد .. [1]، فلو كان تنوع القراءات تابعا للرسم لاختلف القراء في المواضع الخمسة كما اختلفوا في الموضع السادس ، ولكنهم اتفقوا في المواضع الخمسة ، واختلفوا في السادس ، فكان ذلك دليلا على أن العمدة في ثبوت القراءة إنما هو : التوقيف والرواية ، وليس لرسم المصحف دخل في هذا ألبته .. ..وقد ساق – جولد زيهر – طائفة أخرى من الدعاوى ، التي لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب المستشرقين ، لا سيما فيما يتصل بالدين بسبب أو نسب ، يمليها عليهم إلف ملازم ، أو هوى متبع ، أو قصد جائر ، كما أن هناك أخطاء يتورط فيها المستشرقون لغرابة المادة العربية والإسلامية على تفكيرهم ، أو لقلة بصرهم بالذوق العربي ، وعجزهم عن التغلغل في أسرار اللسان ، ومسالك البيان .[2]

---

[1] – قرأ الكسائي : (فأخذتهم الصعقة) بدون ألف بعد الصاد ، وإسكان العين ،

والباقون : (الصاعقة) بالألف بعد الصاد ، وكسر العين ، انظر إرشاد المريد ص 469 .

[2] – مذاهب التفسير الاسلامي ص 5 ، وانظر المستشرقون والقرآن الكريم ج1/ص 78 ، والقراءات في نظر المستشرقين والملحدين ص 48 وما بعدها .

ترتيب آيات القرآن وسوره

الآيات جمع آية ، وقد ذكر النحاة عدة أقوال في اشتقاق كلمة آية ، وفي وزنها الصرفي .

فقال الخليل : – أصلها : أيية ، ووزنها فعلة (بفتح الفاء واللام والعين) ، وقال غيره : إن أصلها فعلة (بفتح الفاء واللام وسكون العين) فقلبت الياء ألفا لانفتاح ما قبلها ، وهو قلب شاذ غير مقيس عليه ..

وقال آخرون : إن وزنها فعلة (بفتح الفاء واللام وسكون العين) من الأصل : أوية ، على أن الواو منها قلبت ياء ، وقد قلبت الواو ياء لأن الواو والياء اجتمعتا في كلمة وسبقت إحداهما بالسكون ..

ورأى آخرون : أن وزنها فاعلة ، فذهبت منها اللام أو العين تخفيفا ..

وكلهم مجمعون على أن الكلمة مأخوذة من الفعل : تأيا الشيء : تعمد آيته أي : شخصه ، قال لقيط بن يعمر الايادي :

أبناء قوم تآيوكم على حنق لا يشعرون أضر الله أم نفعا [1]

والآية في اللغة تطلق على معان متعددة منها :

1- **المعجزة** : ومنه قوله تعالى : (وما كان لرسول الله أن يأتي بآية إلا بإذن الله ..الآية)(غافر: 78) ..

2- **العلامة** : ومنه قوله تعالى : (إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت .. الآية) (البقرة : 248)

وقال طرفة بن العبد : فغيرت آيات الديار مع البلى ..... وليس على ريب الزمان كفيل [2]

3- **العبرة** : – ومنه قوله تعالى : (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون)(العنكبوت : 15) أي: عبرة لمن يعتبر .

ومن الجدير بالذكر أن الذين بحثوا في معاني الكلمات الاسلامية لم يخرجوا معنى كلمة آية عن هذين المعنيين (العلامة ، والعبرة) قال في الأشباه والنظائر : (تفسير آية على وجهين : فوجه منها آية يعني عبرة ، والوجه الثاني ، آية يعني : علامة) ثم مضى يورد الآيات الشاهدة على ذلك .. [3]

4- **الأمر العجيب** :– ومنه قوله تعالى : – (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) (المؤمنون : 50). قال الراغب : وإنما قال : وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، ولم يقل : آيتين .. لأن كل واحد صار آية بالآخر [4].

5- **الجماعة** : – ومنه قولهم : خرج القوم بآيتهم أي : بجماعتهم .. وقال برج بن مسهر الطائي :

---

[1] – انظر التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن – ص 497–498 .

[2] – ديوان طرفة ص 117 .

[3] – الأشباه والنظائر في القرآن الكريم –دراسة وتحقيق د. عبد الله محمود شحاتة ص 300 .

[4] – مفردات الراغب ص 33–34 .

خرجنا من النقبين لا حي مثلنا ... بآيتنا نزجي اللقاح المطافلا [1] .

6- **الدليل** : ومنه قوله تعالى :(ومن آياته خلق السموات والأرض ..الآية) (الروم : 22) أي : من أدلة وجوده وقدرته .وهذه كلها إطلاقات لغوية ، وبعضها قد يستلزم بعضها الآخر.

ومن الواضح البين مناسبة المعنى اللغوي للآية القرآنية ، فهي القرآن المعجز ، وهي علامة على صدق الآتي بها – صلى الله عليه وسلم – ، وفيها عبرة لمن أراد أن يعتبر ، وهي من الأمور العجيبة لسمو أسلوبها ومعناها ، وفيها معنى الجماعة لأنها مؤلفة من الحروف والكلمات ، وفيها معنى الدليل ، لأنها برهان على ما تضمنته من هداية وعلم .

وأما حد الآية القرآنية : فهو قرآن مركب من جمل ولو تقديرا ، ذو مبدأ ومقطع مندرج في سورة ..

أو : طائفة من القرآن منقطعة عما بعدها وما قبلها ، ليس بينها شبه بما سواها وليس معنى هذا أن الآية لا تعلق لها بمعنى سابقتها ولاحقتها ، بل المراد أنه مستقلة في العد ، ولا تكون جزءا مما قبلها أو بعدها . [2].

قال أبو عمرو الداني : لا نعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله تعالى (مدهامتان). وقال غيره : بل فيه غيرها مثل : (والنجم) ، (والضحى) ، (والعصر) ، وفواتح السور عند من عدها آية [3]

طريقة معرفة الآيات

لا طريق لمعرفة الآيات سوى النقل عن الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – الذين سمعوا القرآن من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فقد كان يحدد بقراءته مبادئ الآيات وخواتيمها ، حتى علم ذلك أصحابه ، فنقلوا إلينا عدد الآيات في كل سورة ، كما وقفوا عليه من قراءته – ﷺ–.

قال الزمخشري : (الآيات علم توقيفي لا مجال للقياس فيه ، ولذلك عدوا (ألم) آية حيث وقعت وهي ست ، و(المص) ، ولم يعدوا (المر) و(الر) وهي في خمس سور ، وعدوا (حم) آية في سورها وهي سبعة ، و(حم عسق) آيتان ، وكذا (طه) و(يس) ، ولم يعدوا (طس) النمل ، و (طسم) آية في الشعراء ، والقصص .

وسبب اختلاف السلف في عدد الآي : أن النبي – ﷺ– كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف ، فإذا علم محلها وصل للتمام ، فيحسب السامع جينئذ أنها ليست فاصلة ، ثم إن بعض القراء يعد البسملة آية من كل سورة ، وبعضهم لا يعدها ، والخطب في ذلك سهل ، لأنه لا يترتب عليه في القرآن زيادة ولا نقص ..[4]

---

[1]– لسان العرب مادة (أيا)

[2]– انظر البيان في مباحث في علوم القرآن لشيخنا عبد الوهاب غزلان ص 219–220 .

[3]– البرهان في علوم القرآن ج1/ 260 . وانظر الإتقان للسيوطي ج1/ 66–67

[4]– انظر مناهل العرفان ج1/336–337 ، والمدخل لدراسة القرآن ص 281 ، وفصل الخطاب ص 13

ترتيب آيات القرآن :

ترتيب الآيات في سورها توقيفي ثابت بالوحي ، وبأمر رسول الله – ﷺ– ، وكانت الآيات تتنزل عليه ، ويأمر كتاب الوحي بوضعها في مكانها من السور بتبليغ من جبريل – عليه السلام – . وقد ترادفت النصوص على كون ترتيب الآيات توقيفيا ووقع الإجماع على ذلك ، وقد نقل الإجماع غير واحد من العلماء منهم : الزركشي ، حيث قال : – (فأما الآيات في كل سورة ، ووضع البسملة في أوائلها ، فترتيبها توقيفي بلا شك ، ولا خلاف فيه ، ولهذا لا يجوز تعكيسها ..) [1] . فترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه – ﷺ– وامره ، من غير خلاف في هذا بين المسلمين . وقال الباقلاني :– ترتيب الآيات أمر واجب ، وحكم لازم ، فقد كان جبريل يقول : ضعوا آية كذا في موضع كذا ، وقال أيضا : – إن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ورتبه عليه رسوله من آي السور ، لم يقدم من ذلك مؤخر ، ولا أخر منه مقدم ، وإن الأمة ضبطت عن النبي – ﷺ– ترتيب آيات كل سورة ومواضعها ، وعرفت مواقفها ، كما ضبطت عنه نفس القراءة وذات التلاوة)[2] .

ومن النصوص التي تدل على أن ترتيب الآيات توقيفي : –

1 – روى الترمذي والحاكم وابن حبان وأبو داود وأحمد من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما– قال : – (كان رسول الله – ﷺ– يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء ، دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ..) [3] .

2– قال مكي بن أبي طالب القيسي وغيره ، :(ترتيب الآيات في السور بأمر من النبي – صلى الله عليه وسلم –ولما لم يأمر بذلك (يعني لم يأمر بكتابة البسملة) في أول براءة ، تركت بلا بسملة [4]

3– وقال الحافظ في الفتح : (لا خلاف أن ترتيب آيات كل سورة على ما هي عليه الآن في المصحف توقيف من الله تعالى.)[5]

---

[1]– البرهان ج256/1 .

[2]– الإتقان ج60/1–62 .

[3] – البرها ن ج241/1 ، وانظر فتح الباري ج18/9 .

[4]– المدخل لدراسة القرآن الكريم ص 284 .

[5]– فتح الباري ج32/9

شبهة ..... وتفنيدها

قد يجد الطاعنون في قول زيد بن ثابت – رضي الله عنه – ثغرة ينفذون منها إلى نفي الثقة عن القرآن وعن كونه متواترا بترتيب من الله تعالى ، وأن ترتيب الآيات من اجتهاد الصحابة ، قال زيد : – (فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف ، وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري [1] لم أجدها مع أحد غيره ... الحديث) [2] .

وفي حديث أنس أيضا : (قال ابن شهاب : أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أنه سمع زيد بن ثابت قال : فقدت آية من سورة الأحزاب حين نسخنا المصحف ، قد كنت أسمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري [3] (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فألحقناها في سورتها في المصحف) [4] .

ونقول : إن قول زيد لا يقدح في الجمع ولا في الترتيب ، **إذ أن قول زيد** : (فقدت آخر سورة التوبة) دليل على أنه كان محفوظا عندهم على هذا الترتيب ، وأيضا قوله : (كنت أسمع رسول الله – ﷺ– يقرأ بها) ، **وقوله** : (فألحقناها في سورتها في المصحف) فهذا يدل على أن زيدا والصحابة كانوا يعرفون موضع الآيتين من سورتيهما ، فلم تكونا ملحقتين بهامش المصحف مثلا ، وقد أجمع قراء الأمصار على تلقيه على هذا الترتيب ، وأسانيدهم متصلة بنقل العدول عن العدول إلى النبي – ﷺ–. ولعل تتبع زيد لها كان للاستظهار لا لاستحداث العلم وأما قوله :

---

[1]– أبو خزيمة الأنصاري هو : ابن أوس بن زيد بن أصرم ، وقيل : هو الحارث بن خزيمة ، وقد اشتهر بكنيته دون اسمه ، أنظر فتح الباري ج8 / 211 . وج9 / 11 .

[2] – صحيح البخاري ج6 / ص 226 . .

[3]– **خزيمة بن ثابت بن الفاكه الأنصاري الأوسي** : : .من السابقين الأولين ، شهد بدرا وما بعدها ، وقيل : أول مشاهده أحد ، قام بكسر أصنام بني خطمة ، وكانت راية خطمة بيده يوم الفتح ، وفيه قال النبي – ﷺ–: (من شهد له خزيمة أو عليه فحسبه) وجعل شهادته بشهادة رجلين .

وسبب ذلك هو : – أن النبي – ﷺ– اشترى فرسا من (سواد بن الحارث) فاستتبعه ليقضيه ثمن الفرس ، فأسرع النبي – ﷺ– وأبطأ البائع المذكور ، فجعل رجال يعترضونه يساومونه في الفرس حتى زادوه على ثمنه وهم لا يعلمون أن النبي – ﷺ– اشتراه منه ، فأنكر الأعرابي بيعه للنبي – ﷺ– فشهد له خزيمة بن ثابت ، فقال له النبي – ﷺ–: بم تشهد ولم تكن حاضرا ..؟ فقال : بتصديقك وأنك لا تقول إلا حقا ، فقال عليه الصلاة والسلام : (من شهد له خزيمة فحسبه) وفي رواية : فجعل شهادته بشهادة رجلين . قال الإمام السندي في حاشيته على سنن النسائي : والمشهور أنه – ﷺ– رد الفرس بعد ذلك على الأعرابي ، فمات من ليلته عنده) – رواه النسائي في أواخر كتاب البيوع – ، وانظر كتاب تاريخ القرآن – لطاهر الكردي ص 59 .

[4]– انظر فتح الباري ج10 / ص 137 .

(لـم أجـدها مـع أحـد غيـره) ، فقـد اجتمـع فـي هـذه الآيـة (زيـد ، وعمـر ، وأبـو خزيمـة) .

والحاصل : أن الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – جمعوا القرآن كما هو عن رسول الله – ﷺ – من غير زيادة ولا نقص ، ولا تقديم ، ولا تأخير ، بتوقيف عن جبريل عن رب العزة سبحانه) [1]

لماذا لم ترتب الآيات على حسب النزول ..؟

من المجمع عليه أن ترتيب الآيات ليس بحسب نزولها ، وإنما يرجع إلى المناسبات والروابط البلاغية ، فقد تنزل الآية بعد الآية بسنين ، وتكون في ترتيب الكتاب قبلها ، كبعض الأيات التي نزلت قبل الهجرة قد ألحقت بسور نزلت بعدها ، كقوله تعالى : – (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) (الأنفال: 64) فقد صح النفل بأنها نزلت عقب إسلام عمر ، وذلك بمكة قبل الهجرة [2] ، ومع ذلك فقد ألحقت بسورة الأنفال التي نزلت بالمدينة بعد الهجرة ، وهناك آيات نزلت بعد الهجرة وألحقت بسورة نزلت بعد الهجرة أيضا ، ولكنها وضعت في السورة التي ألحقت بها قبل آيات نزلت هي بعدها ، وذلك كقوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) (المائدة: 3) فمن المعلوم أن هذه الآية نزلت في حجة الوداع ، وقد ألحقت بسورة المائدة التي نزلت بعد الهجرة ، في حين أن كثيرا من الآيات التي جاءت بعدها في السورة قد نزلت قبلها ، كما يعرف ذلك من الرجوع إلى أسباب نزول هذه الآيات .

وفي الأثر عن محمد بن سيرين قال : (قلت لعكرمة : ألفوه – أي القرآن – كما أنزل ، الأول فالأول قال : لو اجتمعت الأنس والجن على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا ، وصدق عكرمة ، فإن تأليفه على حسب النزول غير مستطاع لأحد من البشر ، لأن الله لم يرد أن يكون تأليف كتابه المعجز على حسب النزول ، وإنما اقتضت حكمته أن يكون على حسب المناسبات البلاغية ، وأسرار الاعجاز ..) (39) ... **ولعل تعليل فضيلة الشيخ محمد محمد المدني – رحمه الله –** كان أقرب إلى الحكمة حين قال : – (لو أنه جمع على حسب ترتيب نزوله ، لفهم بعض الناس أن آياته خاصة بحوادثها ، أو أنه حلول وقتية للمشكلات التي كانت على عهد الرسول فحسب ، والله تعالى يريد كتابه عاما خالدا لا يختص بعصر دون عصر ، ولا بقوم دون قوم ، لذلك اقتضت الحكمة أن يرتب ترتيبا يحقق هذا العموم ، وهذاالخلود ، ويبتعد عن الترتيب الزمني الذي نزل به لحكمة كانت مناسبة حين نزوله) [3] .

---

[1] – تاريخ القرآن للكردي ص59

[2] – الإتقان ج18/1 .

[3] – المجتمع المثالي كما تنظمه سورة النساء – للشيخ محمد محمد المدني ص 20 .

سور القرآن الكريم

السورة :- من المصطلحات القرآنية الجديدة ، وهومصطلح يتعلق بالقرآن الكريم ، لأنه اسم للقطعة التي تكون وحدة مستقلة من القرآن ، وتتألف من عدد من الآيات الكريمة ،وقد سماها الله عز وجل سورة ، وذكرت في القرآن تسع مرات بلفظها المفرد (سورة) وفي آية واحدة في صورة الجمع (سور) ومن تلك الآيات قوله تعالى : - (وإن كنتم في ريب على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) (البقرة: 23) وقوله سبحانه : (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور من مثله .. الآية) (هود:13) ، والسورة بهذا المعنى الاصطلاحي لم تعرف في لغة العرب قبل نزول القرآن ، لسبب واحد بسيط هو أن القرآن كله كان عليهم جديدا ، وكلمة القرآن نفسها مصطلح جديد ، لكن السورة عرفت في لغتهم بمعان أخرى ,,

وقد أجمع المفسرون على تعريف السورة بـ : أنها قطعة من القرآن الكريم ، وأن الله عز وجل أنزل القرآن على نبيه شيئا بعد شيء ، وجعله مفصلا ، وبين كل سورة بخاتمتها وبدايتها .

يقول الخازن : - (السورة : اسم للمنزلة الرفيعة ، ومن : سور البلد لارتفاعه ، سميت سورة : لأن القارئ ينال بها منزلة رفيعة حتى يستكمل المنازل باستكمال سور القرآن) ومهما يكن من أمر اشتقاق الكلمة فإنه لا شك أن السورة في معناها الإسلامي هو إحدى المصطلحات التي صنعها القرآن الكريم) [1] .

والسورة في الاصطلاح : طائفة من القرآن مستقلة ، تشمل على آي ذي فاتحة وخاتمة ، وأقلها ثلاث آيات ، أو هي : الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص بتوقيف من النبي – صلى الله عليه وسلم – [2] . وقد تبين أن أسماء السور توقيفية ، يدل على ذلك الأحاديث والآثار ، وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : - (هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة) [3]

---

[1]- التطور الدلالي ص 495-497 – باختصار – ، وانظر تفسير الخازن ج1/ ص33 . ، وديوان النابغة ص 237 .

[2]- انظر فصل الخطاب ص 14 . ، والبيان ص 217 . .

[3] – الإتقان ج1/ ص50 ، والبرهان ج1/ص 264 .

ترتيب سور القرآن

اختلف العلماء حول وضع السور وترتيبها في المصحف العثماني على أقوال ثلاثة ..... وهي : -

القول الأول :

إن ترتيب السور على ما هو عليه الآن في المصحف كان باجتهاد من الصحابة -رضوان الله عليهم - وحكى السيوطي : - (أن الأمة ضبطت عن النبي - ﷺ- ترتيب آي كل سورة وموضعها ، وعرفت مواقعها ، كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة ، وأنه يمكن أن يكون الرسول - ﷺ- قد رتب سوره ، وأن يكون قد وكل ذلك إلى الأمة بعده ، ولم يتول ذلك بنفسه .. قال : وهذا الثاني أقرب ..)[1] .

وأما - ابن عطية - فقد نقل عنه الجزم في ذلك حيث قال :-(قال القاضي أبو بكر الطيب : وترتيب السور اليوم هو من تلقاء زيد ومن كان معه ، مع مشاركة عثمان- رضي الله عنه وأرضاه - في ذلك ، وقد ذكر ذلك - مكي - في تفسير سورة براءة ..) [2] .

واستدل أصحاب هذا القول بما يلي : -

1- بحديث أحمد ، والنسائي ، ومسلم ، عن حذيفة قال : - (صليت مع رسول الله- ﷺ- ذات ليلة ، فافتتح البقرة ، فقلت : يركع عند المائة ، ثم مضى ، فقلت : يصلي بها في ركعة فمضى ، فقلت : يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها مترسلا ، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مر بتعوذ تعوذ..الحديث).

قال الإمام النووي في شرح الحديث : - (قال القاضي عياض : فيه دليل لمن يقول إن ترتيب السور اجتهاد من المسلمين حين كتبوا المصحف ، وأنه لم يكن ذلك من ترتيب النبي - ﷺ- ، بل وكله إلى أمته بعده ..) [3] .

2 - اختلاف مصاحف الصحابة في ترتيب السور ، فمنهم من رتبها على ترتيب النزول كمصحف علي ، وكان أول مصحف ابن مسعود : البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران ، وكذا مصحف _ أبي _ فكان بينها اختلاف شديد في الترتيب .. وفي المصاحف لابن اشته :- (أن عثمان أمرهم أن يتابعوا الطوال ، فجعلت الأنفال والتوبة في السبع ولم يفصل بينهما بالبسملة ..... فهذا الاختلاف الشديد بين مصاحف الصحابة دليل على أنه لم ينقل عن النبي - ﷺ- شيء في هذا الباب وإلا لما ساغ لهم أن يهملوا ترتيب رسول الله - ﷺ- بعمل آخر من اجتهادهم [4]

---

[1]- الإتقان ج61/1 .

[2]- مقدمة ابن عطية ص 275 .

[3]- شرح النووي على صحيح مسلم ج1/ ص61-62 . ونيل الأوطار ج2/ ص237 .

[4]- الإتقان ج1/ ص62 .

ويمكننا مناقشة هذه الأدلة : بأن حديث حذيفة يبين أن سورة النساء كانت في ذلك الوقت مقدمة على سورة آل عمران ، ثم حصل الترتيب بعد ذلك بالتوقيف ، أو : أن الترتيب في الصلاة ليس بواجب ، وفعله – ﷺ– كذلك لبيان الجواز [1].. أما استدلالهم باختلاف مصاحف الصحابة فيمكن رده : بأن مصحف عثمان – رضي الله عنه وأرضاه – لو كان اجتهاديا لما وافقوه على ذلك ، لأنه ليس لمجتهد أن يقلد مجتهدا آخر كما هو مقرر عند الأصوليين . ثم إن مصاحف الصحابة كانت خاصة بهم ، جمعت إلى القرآن بعض مسائل العلم ، وبعض المأثورات ، فهي إلى كتب العلم أقرب منها إلى المصاحف المجردة ، ومن هنا وجدنا الذين استنسخوا المصاحف العثمانية لم يعتمدوا عليها ، بل اعتمدوا على جمع أبي بكر ، وجمع أبي بكر – كما هو معروف – ، اعتمد على ما جمع بين يدي النبي – ﷺ– ، ومن هنا فقد عدلوا جميعا عن هذه المصاحف ، وساروا على ما سار عليه الصحابة جميعا ، وهو جمع عثمان – رضي الله عنه – ووافقوا على مصاحف عثمان وما فيها من لفظ وترتيب ، وترك ما سواها ، فلو كان الترتيب بالاجتهاد لظلوا على اجتهادهم ، وبهذا ظهر بطلان هذا القول ..

القول الثاني :

إن ترتيب السور بعضه بالتوقيف وبعضه الآخر باجتهاد من الصحابة . وقد مال القاضي أبو محمد بن عطية ، فقال : – (وظاهر الآثار أن السبعة الطوال ، والحواميم ، والمفصل ، كان مرتبا في زمن النبي – ﷺ– ، وكان في السور ما لم يرتب ، فذاك هو الذي رتب وقت الكتب ..) [2] . أي : فوض إلى الأمة أمر ترتيبه .

وقال أبو جعفر بن الزبير : – (الآثار تشهد بأكثر مما نص عليه ابن عطية ، ويبقى منها القليل الذي يمكن أن يجري فيه الخلاف ، من ذلك : أن ما نص على ترتيبه : الزهراوان ، والسبع الطوال ، والمفصل ، والإسراء ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، وقل هو الله أحد ، والمعوذتان ، للأحاديث الواردة فيها ، وهو قوله – ﷺ–: (اقرءوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القامة كأنهما غمامتان ..)[3] رواه مسلم عن أبي أمامة الباهلي وحديث سعيد بن خالد الذي رواه ابن أبي شيبة في مصنفه : (قرأ رسول الله – ﷺ– بالسبع الطوال في ركعة ، وأنه – صلى الله عليه وسلم – كان يجمع المفصل في ركعته)[4] وفي البخاري : أن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : – (بني إسرائيل

---

[1]– الإتقان ج1/ 63 .

[2]– مقدمة ابن عطية ص256 .

[3]– صحيح مسلم ج6/ص90 .

[4] – الإتقان ج1/ ص62.

، والكهف ، ومريم ، وطه والأنبياء ، هذه من العتاق الأول ، وهن من تلادي ..)[1] فذكرت نسقا كما استقر ترتيبها .

وعنده أيضا : عن عائشة – رضي الله عنها – : _ (أن النبي – ﷺ– كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما : قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده .. الحديث)[2] .

ومن جانب آخر ذهب البيهقي في المدخل إلى أن القرآن كان على عهد النبي – ﷺ– توقيفي إلا الأنفال ، وبراءة ، فإن ترتيبهما باجتهاد من عثمان – رضي الله عنه – ، ووافقه عليه الصحابة ، وقد استدل على استثناء هاتين السورتين بما أخرجه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة ، وابن حبان ، والحاكم ، وغيرهم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال (قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلىبراءة وهي من المئين ، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر – بسم الله الرحمن الرحيم – ووضعتموها في السبع الطوال ..؟

ما حملكم على ذلك ..؟ قال عثمان : إن رسول الله – ﷺ– كان مما يأتي عليه من الزمان ، ينزل عليه من السور ذوات العدد ، وكان إذا أنزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده ويقول : ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وتنزل عليه الآية فيقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وبراءة من آخر القرآن ، فكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فقبض رسول الله – ﷺ– ولم يبين لنا أنها منها ، وظننت أنها منها ، فمن ثم قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر– بسم الله الرحمن الرحيم – ووضعتها في السبع الطوال ...)[3]

ويعلق ابن حجر على هذا الحديث بقوله : – (فهذا يدل على أن ترتيب الآيات في كل سورة كان توقيفيا ، ولما لم يفصح النبي – ﷺ– بأمر براءة أضافها عثمان إلى الأنفال اجتهادا منه – رضي الله عنه – ..)[4]. وقال السيوطي : – (والمختار عندي في ذلك ما قاله البيهقي ، إن كل السور توقيفية سوى الأنفال وبراءة ..)[5] .

---

[1]– فتح الباري ج8/ ص435 ، والمراد بالعتاق الأول : السور التي أنزلت أولا بمكة . والطارف : هو المستحدث من المال وغيره ، والتالد : المال القديم الذي ولد عندك ، والمراد بتلادي : أي من أول ما أخذته وتعلمته بمكة ، قاله ابن الأثير ، أنظر مرويات ابن مسعود – للشريف منصور بن عون العبدلي .ج2/ ص539 .

[2]– صحيح البخاري ج6/ ص234 .

[3]– الفتح الرباني ج28/ ص154–155 . وأنظر الإتقان ج1/ ص62 .

[4]– فتح الباري ج10/ 418 .

[5]– تناسق الدرر ص 48 .

ويمكننا مناقشة دليل أصحاب هذا القول من وجهين : –

أولا : – إن هذا الحديث غير صحيح .. لقول الترمذي فيه : (حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس ، ويزيد هذا مجهول الحال ..)[1] .

وقال الذهبي : – (عوف الأعرابي : قيل : كان يتشيع ، وقد وثقه جماعة ، وجرحه جماعة ، وكان داود بن أبي هند يضربه ويقول : ويلك ياقدري ..وقال بندار : والله لقد كان عوف قدريا ، رافضيا شيطانا ...)[2] .

وقال مسلم في مقدمة صحيحه : – (وإذا وازنت بينه وبين الأقران رأيت البون بينهم بعيدا ، في كمال الفضل ، وصحة النقل ..) [3]

وأما يزيد فقد اختلفوا فيه ، هل هو ابن هرمز أو غيره ..؟ وقد ذكره البخاري في كتاب الضعفاء باسم يزيد الفارسي لاشتباهه فيه ، وحيث أنه قد انفرد بهذا الحديث فلا يحتج به في شأن القرآن الذي يطلب فيه التواتر [4].. .

وقال الذهبي : – (قال فيه النسائي وغيره : متروك ، وقال الدارقطني وغيره : ضعيف ، وقال أحمد : كان منكر الحديث ..) [5]

فإذا كان الحديث بهذه المكانة من الضعف ، ولم يرتضيه إلا القليل الذين قوموه ، ولم يخرجوه عن أقل درجات القبول ، فكيف نقبله وأمر القرآن الذي هو في أعلى درجات القمة نقلا ونظما وترتيبا ..؟ [6]

كما أن في متن الحديث اضطرابا ، إذ أن ابن عباس يعجب كيف جعل عثمان براءة وهي من المئين ، والأنفال وهي من المثاني بين الطوال ، وهذا العجب يستقيم لو كانت يونس من الطوال ، وأخرها عثمان عن براءة والأنفال ، مع أن يونس أقصر من براءة وحدها ، وإن كانت أطول من الأنفال ، إذ أن سورة يونس (109 آيات) وسورة براءة (129 آية) فكيف يصح عجب ابن عباس ..؟ وهذا كله مما يجعل الناظر في المسألة لا يعتمد صحة هذه الرواية .

وثانيا : بقي علينا الكلام في حديث ابن عباس في اقتران براءة والأنفال – على فرض صحة هذه الرواية – فنقول : لقد استدل ابن كثير في فضائل القرآن ، والبيهقي ، والسيوطي ، وغيرهم ، بهذا الحديث على أن ترتيب سور القرآن ثابت بالتوقيف إلا الأنفال وبراءة ، حتى لقد قال القرطبي : (إن سور القرآن انتظمت ببيان منه – ﷺ – ، وبراءة ضمت إلى الأنفال من غير عهد منه لما عاجله من الحمام قبل تبيينه ذلك ، وتضم إحداهما إلى الأخرى للوصف الذي لزمهما من

---

[1] – تحفة الأحوذي ج8/ ص480 .

[2] – ميزان الاعتدال ج2/ ص308–309 .

[3] – صحيح مسلم ج1/ ص54 .

[4] – الفتح الرباني ج18/ ص154–156 .

[5] – ميزان الاعتدال ج308/3 .

[6] – المدخل ص 37 ، ومنهج الفرقان ص 136 .

الاقتران ورسول الله – ﷺ– حي ..)[1] وهذا غير مسلم ، إذ كيف نثبت في المصحف أمرا قائما على الظن ، ومن عثمان وحده ..؟

قال الخطيب في الكفاية : – (لا يقبل خبر الواحد في منافاة حكم العقل ، وحكم القرآن الثابت المحكم ، والسنة المعلومة ، والفعل الجاري مجرى السنة ، وكل دليل مقطوع به ..)[2]

وقوله في الحديث : (إن رسول الله – ﷺ– كان مما يأتي عليه من الزمان) يدل في الجملة على التوقيف ..

وقوله : (فقبض رسول الله – ﷺ– ولم يبين لنا أنها منها) بعيد ، إذ الأنفال نزلت في السنة الثانية عقب غزوة بدر ، والتوبة نزلت في أواخر السنة التاسعة بعد تبوك ، وبعد خروج أبي بكر للحج على رأس المسلمين ، فكيف يعقل أن يظل الرسول – ﷺ– زهاء خمسة عشر شهرا ولا يبين للناس أنها منها أو غيرها ..؟ إنه يكون بذلك قد تأخر عن البيان وقت الحاجة إليه ، بل مات قبل البيان ، وحاشاه – ﷺ– أن يفعل ذلك ، مع ورود الأحاديث الصحاح بأنه كان يعرض القرآن كله في رمضان من كل عام على جبريل ، وعرضه في العام الذي توفي فيه مرتين ، وحينئذ فأين كان يضع هاتين السورتين في قراءته حينما كان يعرضهما على جبريل ..؟ [3] ثم إن إطلاق الاسم على كل منهما ، واختلافه فيهما مما يعين أن هذه غير تلك ، وقد سمى رسول الله – ﷺ– كلا منهما ..[4] .

أما قوله (فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر– بسم الله الرحمن الرحيم –) فإن البسملة لا تخضع لهوى الكتاب إثباتا وحذفا أخرج أبو داود والحاكم ، وصححاه عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : (كان النبي – ﷺ– لا يعلم ختم السورة حتى ينزل – بسم الله الرحمن الرحيم –) . وفي رواية : (فإذا نزلت – بسم الله الرحمن الرحيم – علم أن السورة قد انقضت) ، قال الحافظ أبو شامة : هذا حديث حسن .[5]

وإنما لم تذكر البسملة في أول سورة براءة (ليعلم أنه يخص من يشاء وما يشاء بما يشاء ، ويفرد من يشاء وما يشاء بما يشاء ، ليس لصنعه سبب ، وليس له في أفعاله غرض ولا أرب)[6] ، وأما ما قاله المفسرون في أسباب عدم ذكرها هنا فهو فهو التماس للحكمة .

---

[1]– تفسير القرطبي ج8 / ص63 .

[2]– الفتح الرباني ج18/ ص155 .

[3]– تفسير المنار ج9/ ص585 .

[4]– تفسير الألوسي ج10/ ص40–41 .

[5] – فتح الباري ج10/ ص410 .

[6] – لطائف الإشارات ج3/ ص5 .

هذا وقد قام الإجماع على أن سورة الأنفال سورة برأسها غير سورة التوبة ، ولذا قال الزركشي : (إن سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة بإجماع أهل الحل والعقد)[1] .

وقال السيوطي : (أما سوره فمائة وأربع عشرة سورة بإجماع من يعتد به)[2] فوضع السورة هذه بعد تلك ، كان بوحي من الله تعالى ، وأن حذف البسملة من أولها كان بوحي منه جل شأنه ، إن القرآن الكريم كله آية آية ، وسورة سورة ، مرتب من الله تعالى ، وقد بلغه عنه رسوله الأمين – ﷺ– لصحابته الكرام ، فرتبوه كما سمعوه .

القول الثالث :

وهو القول المختار – : – إن ترتيب السور تم بتوقيف من النبي – ﷺ– على ما استقر في العرضة الأخيرة ، وقال الألوسي عن هذا القول :إنه لجمهور العلماء [3]

وقال أبو جعفر النحاس : (المختار : إن تأليف السور على هذا الترتيب كان من رسول الله – ﷺ–)[4]

وقال أبو بكر الأنباري : – (كان جبريل يوقف رسول الله – ﷺ– على موضع السورة والآية ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، فكله عن محمد خاتم النبيين – ﷺ– عن رب العالمين ، فمن أخر سورة مقدمة ، أو قدم أخرى مؤخرة ، فهو كمن أفسد نظم الآيات ، وغير الحروف والكلمات ، ولا حجة على أهل الحق في تقديم البقرة على الأنعام ، والأنعام نزلت قبل البقرة ، لأن رسول الله – ﷺ– أخذ عنه هذا الترتيب) [5] .

وذكر ابن وهب ، وابن أشته من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال : (سمعت ربيعة يسأل :لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة ، وإنما نزلتا بالمدينة ..؟ فقال ربيعة : قد قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه..)[6]

ومما يستأنس به أيضا على أن ترتيب السور توقيفي ، هو : أن الحواميم رتبت ولاء وكذا الطواسين ، ولم ترتب المسبحات تباعا ، بل فصل بينهما بالمجادلة ، والممتحنة ، والمنافقون ، وأفردت الإسراء في النصف الأول ، وفصل بين الشعراء والقصص وهما يبدءان بـ(طسم) بـ (طس النمل)مع أنهما أقصر منها ، ولو كان الترتيب اجتهاديا لذكرت

---

[1]– البرهان ج1/ص270 .

[2]– الإتقان ج1/ ص64–65 .

[3]– مقدمة تفسير الألوسي ج1/ ص27 .

[4]– البرهان ج1/ ص258 .

[5]– تفسير القرطبي ج1/ ص59–60 .

[6]– المرجع السابق ج1/ ص59–60 .

المسبحات ولاء ، وأخرت (طس) عن القصص ، أما وأنه قد حصل الفصل بين المتماثلات والمتقاربات من السور مع عدم التناسب في الطول والقصر ، فهذا يدل على أن الترتيب توقيفي[1] .. .

هذه بعض أقوال الأئمة في أن ترتيب السور توقيفي ، ولولا الخوف من الإطالة لأتينا بالمزيد ، ولكن يكفينا أن نختم ما أوردناه بقول القرطبي : – (وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سور القرآن على ما هو عليه في مصحفنا كان عن توقيف من النبي – ﷺ–)[2]

وهنا ينبغي التنبيه إلى أمر هام وهو :

إن هذا الترتيب الذي عليه المصاحف العثمانية ، والتي بين أيدينا الآن ، لا يجوز بأي صورة من الصور الإخلال به ، أو العدول عنه إلى ترتيب آخر ، ويكفينا أنه ترتيب أجمع عليه الصحابة ، والإخلال به يخالف هذا الإجماع ، هذا من ناحية .. ناحية أخرى : إن من قال بأن ترتيب السور توقيفي إنما هو في الكتابة ، أما تلاوة القرآن فليس من الواجب أن تكون على هذا الترتيب ، فمن قرأ سورة ، ثم قرأ بعدها سورة أخرى لا تليها ، أو قرأ سورة هي قبلها في الترتيب ، لم يكن آثما ، وإنما يكون بذلك قد ترك الأولى فقط .. والله أعلم

---

[1]– الإتقان ج1/ ص63 .

[2]– تفسير القرطبي ج1/ ص60 .

المناسبات بين الآيات والسور

فوائدها .. وأنواعها.. وموقف العلماء منها

نهج القرآن الكريم منهجا فريدا في عرضه للقضايا التي عرض لها ، خالف به سائر المناهج السابقة واللاحقة ، التي اصطلحت في مناهجها أن تبنى على مقدمات ومباحث متسلسلة ، أو أبواب ، وفصول ، إلى غير ذلك من تقسيمات ، في إطار مقاصد محدودة ، ونتائج مرسومة .

فتراه يذكر طرفا من الشيء ، ثم يتركه ، ثم يعود إلى إتمامه ، بطريقة لا تسأم النفوس هديه ، ولا تستثقل حديثه ، مراعيا في تسلسل نصوصه أن يقارب بين أفرادها ، فتجد الآية متسقة في كلماتها ، متآزرة مع أخواتها من الآي ، وتلتقي السورة بالتي بعدها ، والتي قبلها ، برابط لا يجعل منها جنسا غريبا عنها ، بل تبدو فيه كعقد نظمت حباته ، ورتبت أبدع ترتيب ، فكان بذلك معجزا بنظمه ، بديعا في اتساقه ، متناسبا في آياته ، وسوره ، وأجزائه هذا المنهج الفريد استرعى قلة من العلماء والمفسرين – قديما وحديثا – ، فانكبوا على دراسته ، وأفردوا له علما مستقلا ، يدرس خصائصه ، ويحدد معالمه ، أطلقوا عليه اسم : (علم المناسبة) . فما المناسبة ..؟وما أنواعها ..؟ وما فوائدها ..؟ وما موقف العلماء منها ..؟ وما المصنفات التي تكلمت عنها .. ؟ ومن اهتم بذكرها من المفسرين ..

المناسبة لغة : قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : (النون ، والسين ، والباء ، كلمة واحدة ، قياسها اتصال شيئ بشيئ ، منه النسب ، سمي لاتصاله ، والنسيب : الطريق المستقيم ، لاتصال بعضه من بعض) [1]

وقال في لسان العرب : (وتقول : ليس بينهما مناسبة ، أي : مشاكلة) [2]

والمشاكلة بمعنى : المماثلة . تقول : هذا شكل هذا ، أي : مثله .

فالمناسبة لغة تعني : الإتصال ، والمقاربة ، والمماثلة .

والمناسبة في الإصطلاح : هي بيان : (وجه الإرتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة ، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة ، أو بين السورة والسورة) [3]. أو كما يقول البقاعي : (علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن)[1]

---

[1] – ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، دار الجيل ، بيروت ، ج5/ ص 423، 424

[2]– ابن منظور : لسان العرب ، ج14 / ص 119 .

[3] – القطان ، مناع : مباحث في علوم القرآن مؤسسة الرسالة ،بيروت ، ط 22، ص 97 .

أنواع المناسبات :

أولا : – المناسبة بين أجزاء الآية الواحدة :

إذا تدبرنا سورة من سور القرآن الكريم ، أخذتنا روعة ألفاظها في سهولتها نطقا ، وقرب مأخذها معنى ، ومجيئها على قدر المعنى الذي صيغت له . والمتأمل لألفاظ القرآن الكريم ، يجدها وضعت في موضعها من النظم الكريم ، فهي مفردات مختارة منتقاة ، واللفظ في موضعه متناسب من حيث اللفظ أو المعنى ، وجاء على قدر المعنى الذي صيغ له ، بحيث لو رفعت اللفظ من الآية ، أو استبدلته بآخر ، لاختل نظامها ، وضاع المراد منها .

يقول ابن عطية : (وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد ،ونحن يتبين لنا البراعة في أكثره ، ويخفى علينا وجهها في مواضع ، لقصورنا عن مرتبة العرب –يومئذ – في سلامة الذوق ، وجودة القريحة) [2]

والتناسب بين أجزاء الآية ، يكون من حيث اللفظ أو المعنى :

1- أما من حيث اللفظ : ونعني به مناسبة اللفظ لألفاظ الآية : وذلك مثل قوله تعالى : (قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين .) (سورة يوسف : آية / 85) . فقد جاءت الألفاظ بحيث يلائم بعضها بعضا ، وذلك بأنه أتى في الآية بألفاظ متناسبة في الغرابة .

فالتاء : أغرب ألفاظ القسم ، وذلك لأنها أقل استعمالا من الواو ، والباء.

وأتى بـ(تفتؤا) ، وفتئ : أغرب صيغ الأفعال التي تفيد الاستمرار من أخوات(كان).

وأتى بلفظ (حرضا) : وهو أغرب ألفاظ الهلاك . فاقتضى حسن الوضع في النظم ، أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها توخيا في حسن الجوار ، ورعاية في ائتلاف المعنى بالألفاظ ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع ، وتتناسب في النظم .

وجاءت هذه الألفاظ غريبة لتتوافق مع حال يعقوب – عليه السلام – التي وصل إليها، وإشفاق أبنائه على حاله ، وخشيتهم عليه من الهلاك .

---

[1]– البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ط2 ، دار الكتاب الاسلامي ، القاهرة : ج1/ ص 6.

[2] – الحمصي ، د. نعيم: فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر ، مؤسسة الرسالة ،بيروت ص 95 . وانظر د . فضل حسن عباس : إعجاز القرآن ص 170 .

2 - وأما تناسب اللفظ من حيث المعنى :

ففي مثل قوله تعالى : (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ..) (سورة هود : آية : 113) فإنه تعالى لما نهى عن الركون إلى الظالمين وهو الميل إليهم ، والإعتماد عليهم ، وكان ذلك دون مشاركتهم في الظلم ، أخبر أن العقاب على ذلك ، دون العقاب على الظلم ومن ذلك قوله تعالى:-(ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) (سورة الأنعام : آية : 151) (وقوله سبحانه :(ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ..)(الإسراء: 31) فقدم رزق الآباء في آية الأنعام على الأبناء ، وفي آية الإسراء قدم رزق الأبناء على الآباء ، وذلك أن الكلام في الآية الأولى ، موجه إلى الفقراء دون الأغنياء ، فهم يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم ، لا أنهم يخشونه ، فأوجبت البلاغة تقديم عدتهم بالرزق ، وتكميل العدة برزق الأولاد ..وفي الآية الثانية (آية الإسراء) ، الخطاب لغير الفقراء ، وهم الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر ، لا أنهم مفتقرون في الحال ، وذلك أنهم يخافون أن تسلبهم كلف الأولاد ما بأيديهم من الغنى،فوجب تقديم العدة برزق الأولاد،فيأمنوا ما خافوه من الفقر ، فقال :لا تقتلوهم فإنا نرزقهم وإياكم ، أي أن الله جعل معهم رزقهم ،فهم لا يشاركونكم في رزقكم ، فلا تخشوا الفقر [1].

ومن المناسبات بين أجزاء الآية :

مراعاة ما يقتضيه التعبير والمعنى والسياق ، مع مراعاة الإنسجام في فواصل الآيات ، لما لذلك من تأثير كبير على السمع ، ووقع مؤثر في النفس .

من ذلك قوله تعالى : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار)(سورة إبراهيم : آية / 34) .

وقوله سبحانه : - (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم) (سورة النحل : آية / 18) . ولا شك أن خاتمة كل من الآيتين تنسجم مع الآيات فيهما ، ولكن السياق أيضا يقتضي الفاصلة التي ختمت فيها كل آية من الآيتين ، ذلك أن الآية في سورة إبراهيم ، في سياق وصف الإنسان وذكر صفاته ، فختم الآية بصفة الإنسان . وأن الآية الثانية في سورة النحل : في سياق صفات الله تعالى ، فذكر صفاته . [2]

ومن ذلك قوله تعالى : - (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم)(سورة المائدة : آية / 38) .

ففي الآية أن جزاء السارق والسارقة قطع أيديهما ، والتنكيل بهما جزاء سرقتهما وخيانتهما . قال الأصمعي : [كنت أقرأ سورة المائدة ، ومعي أعرابي ، فقرأت هذه الآية :

---

[1]- انظر : د. فاضل صالح السامرائي : التعبير القرآني ، ص 60-61

[2] - انظر : السامرائي، د. فاضل صالح : التعبير القرآني (مرجع سابق) : ص 19

(والسارق والسارقة ..) فقلت : (والله غفور رحيم) سهوا ، فقال الأعرابي: كلام من هذا ..؟ فقلت : كلام الله ، قال : أعد ، فأعدت (والله غفور رحيم) ثم تنبهت ، فقلت : (والله عزيز حكيم) ، فقال : الآن أصبت ، فقلت : كيف عرفت ..؟ قال : يا هذا ، عز ، فحكم ، فأمر بالقطع ، فلو غفر ورحم ، لما أمر بالقطع .] [1]

ثانيا : - المناسبة بين الآيات :

أما ارتباط الآية بالآية ، فينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : - أن يظهر الإرتباط بين الآية الثانية والآية الأولى ، بأن كانت الآية الثانية سببا للأولى ، أو مفسرة لها ، أو مؤكدة ، أو بدلا ، أو جاءت معترضة ، إلى غير ذلك من وسائل الإرتباط . وهذا النوع لا يتطلب كثير جهد في استخراج المناسبة ، ما دام الطالب لمعرفتها ، واستخراجها ، مستوفيا للشروط التي يجب توافرها في المفسر ، لأن الترابط واضح .

ومن أمثلة هذا القسم :

1- أن تكون الآية الثانية سببا للأولى : وذلك مثل قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات ...الآي(سورة آل عمران : الآيتان/ 23 . 24) .

ووجه النظم : أنه تعالى لما قال في الآية الأولى : (ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) ، قال في الآية الثانية : (ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) أي : ذلك التولي والإعراض إنما حصل بسبب أنهم قالوا : (لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) [2]

2 - **أن تكون الآية الثانية تفسيرا للأولى :** - وذلك مثل قوله تعالى : - (وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبل الرشاد . ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار)(سورة غافر : الآيتان / 38، 39).

قال الآلوسي : (وترك العطف في النداء الثاني وهو : (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ..) لأنه تفسير لما أجمل في النداء قبله من الهداية إلى سبيل الرشاد ، فإنها التحذير من الإخلاد إلى الدنيا ، والترغيب في إيثار الآخرة على الأولى ، وقد أدى ذلك فيه على أتم وجه وأحسنه .)[3]

---

[1] -فخر الدين الرازي : مفاتيح الغيب ، (الشهير بالتفسير الكبير) ج6 / ص 236 .

[2] - الرازي، فخر الدين محمد بن عمر : ج4 / ص234 . و عبد العزيز ، د. سمير: الإيضاح والتبيين في علوم القرآن الكريم : ص 110

[3]- الآلوسي : روح المعاني: ج24/ ص 70 ، 71 . وانظر : عبد العزيز ، سمير: الإيضاح والتبيين (مرجع سابق) ص 110 .

3 – أن تكون الآية الثانية تأكيدا للأولى : مثل قوله تعالى : – (ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجوة وتدعونني إلى النار . تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار)(سورة غافر : الآيتان : 41 ، 42)

فقوله : (ويا قوم ما لي أدعوكم ..) تأكيد لما قبله ، فقد كرر نداءهم إيقاظا لهم عن سِنَة الغفلة، واهتماما بالمنادى له ، ومبالغة في توبيخهم على ما تقابلون به دعوته [1].

4 – أن تكون الآية الثانية بدلا من الأولى : مثل قوله تعالى : (إهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم .)(سورة الفاتحة : الآيتان : 6، 7) وقوله تعالى :(وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض .) (سورة الشورى : الآيتان ، 52، 53) . فإن لفظ (الصراط) الثانية في الآيتين بدل من الأولى فيهما ، والبدل موضح ، ومبين للمبدل منه [2].

5 – أن تكون الآية معترضة : –

فبالاضافة إلى أن الإعتراض يقع مؤكدا لمفهوم الكلام الذي وقع فيه ، ومقررا له في نفوس السامعين ، فإنه يأتي لأغراض بلاغية ، . منها : أنه يأتي لتعظيم المقسم به ، وتفخيمه ، وذلك كما في قوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم .)(الواقعة: 75–77)

ففي هذا الكلام اعتراضان : أحدهما قوله : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) ، لأنه اعتراض بين القسم الذي هو : (فلا أقسم بمواقع النجوم)، وبين جوابه :(إنه لقرآن كريم) .

والثاني : قوله :(لو تعلمون) ، وهو اعتراض بين الموصوف الذي هو :(قسم)، وبين صفته ، الذي هو :(عظيم) ،

وفائدة الاعتراض : هو تعظيم شأن المقسم به في نفس القارئ ، أو السامع ، أي : أنه من عظم الشأن وفخامة الأمر ، بحيث لو علم ذلك لوفى حقه من التعظيم[3] .

القسم الثاني : – وهو ما لا يظهر الإرتباط فيه بين الآيتين :

لقد جرت عادة القرآن إذا ذكر أحكاما ، أن يذكر بعدها وعدا أو وعيدا ، ليكون باعثا على العمل ، ثم يذكر آيات توحيد ، وتنزيه ، ليعلم عظم الآمر والناهي . فتبدو – في الظاهر – كل آية مستقلة عن الأخرى ، وأنها خلاف النوع المبدوء به .

---

[1]– انظر : الآلوسي : روح المعاني : ج24 / ص 71 .

[2]– انظر : عبد العزيز ، سمير : الإيضاح والتبيين (مرجع سلبق) ص 111.

[3] – انظر : ابن القيم : الفوائد المشوق إلى علوم القرآن : ص 95.

أقسام التفسير

ذكرت فيما سبق أن لتقسيم التفسير اعتبارات متعددة يختلف باختلافها ، منها : أن ينظر إلى التفسير من جهة استمداده، فالتفسير بهذا الاعتبار ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

1 - تفسير بالرواية ويسمى :التفسير بالمأثور ..

2 - وتفسير بالدراية ويسمى :التفسير بالرأي ..

3 – وتفسير بالفيض والاشارة ، ويسمى : التفسير الاشاري .. وهذ ما سنوضحه في محله ..

أولا : التفسير بالمأثور :

يُدرج بعض من كتب في علوم القرآن تفسير القرآن بالقرآن ، وتفسير القرآن بالسنة وتفسير القرآن بأقوال الصحابة ، وتفسير القرآن بأقوال التابعين ، تحت عنوان: التفسير بالمأثور ... والطريقين الأخرين ، وهما : تفسير القرآن باللغة ، وتفسير القرآن بالرأي والاجتهاد ، تحت عنوان التفسير بالرأي.... وهذا التقسيم فيه نظر، ويحتاج إلى تحرير [1] .

لأن لفظة – مأثور – غير دقيقة في إعطاء هذا الوصف ، وذلك: لأن تفسير القرآن بالقرآن لا نقل فيه، بل هو داخل ضمن تفسير من فسر به، فإن كان المفسر هو الرسول – ﷺ– فهو من التفسير النبوي ، وإن كان المفسر هو الصحابي، فهو من تفسير الصحابي.

وإن كان المفسر هو التابعي، فهو من تفسير التابعي.

ثم لاحظ أن تفسير الصحابي أو التابعي للقرآن بالقرآن ، هو من التفسير بالرأي ، وذلك لأن طريق الوصول إلى تفسير هذه الآية بهذه الآية ، هو: الرأي والاجتهاد.

ولا يلزم أن كل من فسر آية بآية أن تفسيره هذا يقبل ، بل قد يكون مرجوحاً، وبناء عليه فحكمه حكم تفسير الصحابي ، أو التابعي.

ولو كان يلزم قبول قول كل من فسر آية بآية، لما رد شيء من هذه الأقوال ، فمجاهد مثلا فسر قوله تعالى :– (ثم السبل يسره) بقوله تعالى:– (إنا هديناه السبيل) ومع ذلك رجح الإمام الطبري القول الآخر، بأنه خروجه من بطن أمه ولو كان تفسير الآية بالآية من التابعين ملزماً ، لما عدل عنه الطبري ،[2] وهذا واضح عند أدنى تأمل .

---

[1] – انظر : فصول في أصول التفسير : د. مساعد الطيار : ص53.

[2] – انظر : جامع البيان : 30/ 55 وانظر : فصول في أصول التفسير : للطيار ، ص 54. بتصرف .

والذي يظهر لي أن ما يمكن أن يطلق عليه: تفسير بالمأثور – ويجب الاخذ به ثلاثة أنواع :-

الاول: – ما روي عن رسول الله – ﷺ– من تفسيره للقرآن .

الثاني :– ما روي عن الصحابة مما له حكم المرفوع ، كأسباب النزول والمغيبات.

– ﷺ– ما أجمع عليه الصحابة ، أو التابعون ، وهذا يلحق بالمأثور ، لوجوب الأخذ به، لأن الإجماع حجة.

وأما تفسير الصحابة فإن كان مجمعاً عليه، أو كان سبب نزول، أو إخباراً عن أمر غيبي ، فهو في حكم المرفوع – كما مر –. وإن كان غير ذلك فهو من باب الاجتهاد والرأي، سواء أكان معتمده اللغة أو غيرها من أدوات الاجتهاد في التفسير.

وتفسير التابعي يلحق بالمأثور، إذا كان مما أجمع عليه التابعون وما عداه من التفسير فهو تفسير بالرأي [1] عند معظم العلماء .

أهم كتب التفسير بالمأثور :

1 – تفسير جامع البيان عن تأويل أي القرآن – محمد بن جرير الطبري (ت 310 هـ – 922 م) .

2– تفسير بحر العلوم : لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي (ت375هـ–985م) :

3– تفسير القرآن العظيم –لابن كثير عماد الدين إسماعيل بن عمر(ت774هـ–1372م).

ثانيا :– التفسير بالرأي

التفسير بالرأي هو : التفسير بالاجتهاد ، أو الاستنباط ، و عليه فالتفسير بالرأي عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر للعلوم الضرورية التي تعينه على التفسير ، و يطلق الرأي على الاعتقاد ، وعلى الاجتهاد ، و على القياس ، ومنه أصحاب الرأي أي : أصحاب القياس .

والمراد بالرأي هنا : الاجتهاد المبني على أصول صحيحة, وقواعد سليمة متبعة , يجب أن يأخذ بها من أراد الخوض في تفسير كتاب الله تعالى , أو التصدي لبيان معانية , وليس المراد مجرد الرأي أو الهوى , أو تفسير القرآن بحسب ما يخطر للإنسان من خواطر. ومن الجدير بالذكر أن التفسير بالرأي لا ينفصل عن التفسير بالمأثور , إذ التفسير بالمأثور كالأساس وذاك كالبناء , أو هو الأصل وذاك فرع له , نما بعد أن صارت العلوم اللسانية صناعة شائعة , وبضاعة رائجة , واحتاج الناس إلى بيان الآيات التي لم تبين من قبل , وشرحها وتأويلها

---

[1] – انظر : فصول في أصول التفسير : للطيار ، ص 54.

وقد وردت أحاديث كثيرة , وأقوال متعددة , ومواقف متباينة عن سلفنا الصالح ، بعضها يفيد الترهيب والتوقف عن تفسير القرآن بالرأي وبعضها يفيد إباحة ذلك ، والترغيب فيه ، ومن ثم لم يكن تفسير القرآن بالرأي محل اتفاق أو قبول من جميع العلماء ، بل اختلفوا في حكمه ، فمنهم من منعه ، ومنهم من أجازه ، وقد استدل كل فريق لمذهبه بأدلة وحجج نستعرضها في ما يلي :

أولاً:. المانعون له وأدلتهم :.

استدل المانعون للتفسير بالرأي بما يلي :

1. – التفسير بالرأي قول على الله بغير علم ، والقول على الله بغير علم منهي عنه ، فالتفسير بالرأي منهي عنه . وبيان ذلك : أن من يتكلم برأيه واجتهاده ، ليس على يقين بأنه أصاب مراد الله ، بل غاية ما يصل إلى أنه يظن ذلك ، وهذا قول على الله بغير علم ، والقول على الله بغير علم منهي عنه كما نطق بذلك القرآن : قال تعالى : (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بغير الله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) (سورة الأعراف : 84) . فقد عطف سبحانه الجملة الأخيرة على ما قبلها من المحرمات ، فهذا يدل على أن التفسير بالرأي منهي عنه ، بل هو داخل في إطار ما حرمه الله ، وقد أجاب المجيزون للتفسير بالرأي عن ذلك بقولهم :

[إن الظن نوع من العلم ، لأنه إدراك الطرف غير الراجح ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وفي الحديث (من اجتهد وأخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران) .

وعلى فرض أنه قول بغير علم ، فالظن المنهي عن إنما يكون عند إمكان الوصول إلى العلم اليقيني ، بنص قاطع أو دليل عقلي ، وأما إذا لم يتيسر ذلك ، فالظن كاف لأن الله –عز وجل – لم يكلفنا إلا ما في وسعنا ، ولو لم يكن الظن كافياً لبطل كثير من الأحكام التكليفية المأخوذة من دلالات الكتاب والسنة ، ودلالتها كلها ظنية] [1].

2– واستدل المانعون بقوله تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) (النحل : 44) . حيث أضاف الله عز وجل تبيين المنزل إلى الرسول – ﷺ– . وحده وعليه فليس لغيره أن يبين شيئاً من معاني القرآن الكريم .

---

[1] – انظر : التفسير والمفسرون : 1/ 257 . وتاريخ التفسير ومناهج المفسرين : للشيخ عبد العظيم غباشي : ص 46 وما بعدها .

وأجيب عن ذلك :

بأن النبي– ﷺ– مأمور بالبيان . وقد بين ما احتاج الصحابة إلى بيانه ، ثم مات – ﷺ– ولم يبين كل ما في كتاب الله فما علمناه من بيانه عملنا به حتما ،وما لم يرد عنه فيه بيان ، فعلى أهل العلم أن يبينوه و يعملوا فيه فكرهم ، وخاتمة الآية (ولعلهم يتفكرون) إشارة إلى اعمال الفكر والاجتهاد .

أضف إلى ذلك ما جاء صريحا في الآية الأخرى من رد الأمور إلى أولي الأمر المختصين ليعلموها ، ويستنبطوها قال تعالى : (ولو ردوه إلى الرسول و إلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ..)(سورة النساء : 83) .

3– ومن أدلة المانعين :

ما رواه الترمذي وحسنه عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله – ﷺ– قال : (اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم ،فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) [1].

4– وما رواه الترمذي وأبو داود عن جندب بن جناده – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ– قال : (من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ) [2].

وقد أجيب عن الحديثين بما يلي :

1 – أنهما محمولان على من قال في مشكل القرآن، ومتشابهة برأيه لأن المشكل والمتشابه لا سبيل إلى العلم بأي منهما إلا عن طريق النقل الصحيح عن المعصوم – ﷺ– و صحابته .

2 – أو أن المراد بالرأي فيهما : الهوى من غير دليل أو برهان على قوله .

3 – أو بأن يكون عنده علم بالمراد ، ولكن يميل إلى رأي آخر تبعا لهواه ، فهو يقول بما يهوى و يعلم أن الحق خلافه ، كأصحاب المذاهب الفاسدة الذين يتأولون القرآن على وفق هواهم ، انتصارا لآرائهم الضالة .

4– أو أن يكون جاهلا بالمراد ، و الآية تحتمل أكثر من معنى فيفسرها حسب رأيه و هواه ..

5– أو أن يكون المراد من الحديثين ، أن يقول في القرآن بما يأخذه من ظاهر اللغة ، من غير رجوع إلى أقوال الصحابة أو النقل الصحيح فيما يتعلق بالغريب أو المبهم ، أو الناسخ أو المنسوخ ، أو غير ذلك مما يجب على المفسر أن يعلمه هذا فضلا عن أن ثاني الحديثين – حديث جندب – لم تصح روايته ، لأنها من رواية سهل بن حازم ، و قد قال فيه ابن أبي حاتم ، و البخاري أنه ليس بالقوي ، وقال فيه أحمد : انه يروي أحاديث منكرة .

---

[1] – سنن الترمذي : 2/ 157 .

[2] –المرجع السابق : 2/ 157.

6 – و استدل المانعون أيضا بما ورد عن كثير من السلف أنهم كانوا لا يتكلمون في القرآن بآرائهم ، و من ذلك :

أ – ما ورد عن أبي بكر – رضي الله عنه – أنه سئل عن معنى آيه من كتاب الله فقال : (أي سماء تظللني و أي أرض تقلني إذا قلت في القرآن برأيي أو بما لا أعلم) .

ب – وورد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن الحلال و الحرام تكلم ، وإذا سئل عن تفسير آية من كتاب الله سكت كأن لم يسمع شيئا.

ت – وعن عامر الشعبي أنه قال : (ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت : القرآن والروح ، و الرؤى) [1] ، أي تأويل الأحلام .

وقد أجاب المجيزون :

أولا : بأن إحجام هؤلاء الأئمة عن التفسير كان ورعا و خوفا من عدم الوصول إلى ما كلفوا به من إصابة الحق ، و كانوا يرون أن التفسير شهادة من المفسر على الله أنه أراد من اللفظ ذلك المعنى ، فكانوا يخشون عدم موافقتهم لمراد الله ، و كان بعضهم يخشى أن يتخذ إماما في التفسير يقتدي به الناس ، من أجل هذا تحرجوا من القول في التفسير و توقفوا عنه .

ثانيا : إن إحجامهم يحتمل أنه مقيد بما لم يعرفوا وجه الصواب فيه ، أما إذا عرفوا وجه الصواب فانهم لا يمتنعون ، ولو كان وجه الصواب ظنيا لا قطعيا مثلما أفتى أبو بكر في مسألة الكلالة .

ثالثا: إن إحجامهم يحتمل أيضا التقييد بما إذا قام غيرهم عنهم بواجب تفسير القرآن وبيانه ، أما إذا انحصرت المسؤولية فيهم ، فبعيد أن يمتنعوا عن البيان و إلا كانوا كاتمين للعلم وآثمين وحاشاهم من ذلك.

ثانيا:المجيزون للتفسير بالرأي:

أما المجيزون للتفسير بالرأي فقد استدلوا على جوازه بما يأتي:

1 – إن الله تعالى يقول:(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)(محمد : 24)

ويقول :(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته و ليتذكر أولوا الألباب)(ص: 29) .

و يقول :(ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) (النساء : 83) .

---

[1] – انظر : مقدمة في أصول التفسير : 52. وجامع البيان : 38/1 . ودراسات ومباحث في تاريخ التفسير ومناهج المفسرين : 64.

ووجه الاستدلال : أن الله حث على تدبر القرآن والاعتبار بآياته، وهذا يدل على أن أولي الألباب بما لهم من العقل السليم ،واللب الصافي ، عليهم أن يتأولوا ما لم يستأثر الله تعالى بعلمه،لأن التدبر والاتعاظ فرع الفهم، والتفقه في كتاب الله ، والآية تدل على أن في القرآن ما يستنبطه أولو الألباب .

2 – إن الرسول– ﷺ– قال في دعائه لابن عباس– رضي الله عنهما – (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) [1] .

فلو كان التأويل مقصورا على السماع والنقل للفظ التنزيل ، لما كان هناك فائدة لتخصيص ابن عباس – رضي الله عنه– بالدعاء فدل ذلك على أن التأويل الذي دعا رسول الله – ﷺ– بتعليم الله له ، إنما هو الاجتهاد و الرأي والفهم في كتاب الله ...**وفي حديث معاذ بن جبل – رضي الله عنه**– ما يدل على إقرار الرسول – ﷺ– له على اجتهاده في استنباط الأحكام ، حيث قال له لما بعثه إلى اليمن (بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله ،فان لم تجد ؟ قال بسنة رسول الله ،قال : فان لم تجد ؟ قال : اجتهد برأيي ولا آلو ، فضرب رسول الله – ﷺ– في صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول الله إلى ما يرضي الله)[2] .

3– **ورد عن كثير من سلف** – رضوان الله عليهم – تفسير آيات من كتاب الله و تأويلها بآرائهم وأقوالهم . من ذلك .

أ – ما ورد عن أبي بكر الصديق– رضي الله عنه – أنه سئل عن معنى –الكلالة – فقال : أقول فيها برأيي ، فان كان صوابا فمن الله ، وأن كان خطأ فمن الشيطان . الكلالة : كذا و كذا [3].

ب – وكذلك ورد التفسير عن ابن عباس ، وعلى ابن أبي طالب و عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب وغيرهم من الصحابة ، وليس جميع المنقول عنهم مرويا عن الرسول – ﷺ– فدل ذلك على أن التفسير بالرأي جائز من العلماء و إلا لما أقدم عليه الصحابة .

ج – كذلك روى التفسير عن أئمة التابعين كمجاهد ، وعطاء و سعيد ، و عكرمة وغيرهم ، و قد نقل عنهم كثير من تفسير الآيات بأقوالهم وآرائهم[4] .

---

[1] – انظر : مسند الإمام أحمد : 4/ 255، (رقم : 2397)

[2] – أخرجه أبو داود : ج3/ 303. رقم (3592) .

[3] – جامع البيان : 4/ 284.

[4] – المرجع السابق : 163/26.

4-لو كان التفسير بالرأي غير جائز لتعطلت كثير من الأحكام ، وهذا باطل ، لأن الرسول – ﷺ– لم يفسر جميع القرآن ، بل الذي نقل عنه تفسير آيات معدودات , و باقي الآيات يلزم تفسيرها و شرحها و استنباط أحكامها , فدل على جواز تفسير القران بالرأي و الاجتهاد , لا سيما وأن المجتهد مأجور وان اخطأ , طالما قد بذل جهده , واستفراغ وسعه , ولم يهمل وسائل العلم الواجبة في الاجتهاد

تحقيق القول في حكم التفسير بالرأي

اختلف العلماء في حكم التفسير بالرأي بين مجيز ومانع ، والتحقيق أنه لا تعارض بين الرأيين ،ولا تناقض بين القولين ، فالكل يجيز ولكن بشروط وضوابط , والكل يمنع إذا لم تتوفر الشروط والضوابط التي سبق ذكرها .

وعلى هذا فالخلاف بين أصحاب الرأيين لفظي , **فمن أجاز منهم فكلامه محمول على التفسير بالرأي المستوفي لشروطه** ، فيكون حينئذ موافقاً للكتاب والسنة وكلام العرب ، وهذا جائز وليس بمذموم .

ومن منع : فكلامه محمول على ما فقد الشروط ، فلا شك يكون مذموما مردودا لأنه حينئذ يكون مخالفا للأدلة الشرعية واللغة العربية وعلى هذا النوع الأخير يحمل كلام عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – حيث يقول : (إنما أخاف عليكم رجلين ، رجلاً يتأول القرآن على غير تأويله) وقوله أيضا (ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه ، ولا من فاسق بين فسقه ، ولكني أخاف عليها رجلا قد قرأ القرآن حتى أذلقه بلسانه ، تأوله على غير تأويله) [1] .

فكل هذا محمول على التفسير الذي لا يوافق الأدلة الشرعية ، ولا قواعد العربية ، وعليه يحمل كلام الناقلين بمنع التفسير بالرأي ، ومن ثم فلا تعارض في الحقيقة بين الروايات والأدلة التي سبق سوقها للطرفين .

بقول ابن عطية :(وروى أن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قال : من تكلم في القران برأيه فقد اخطأ ومعنى هذا : أن يسأل الرجل عن معنى في كتاب الله , فيفسره برأيه دون نظر فيما قال العلماء , واقتضته قوانين العلوم كالنحو و الأصول , و ليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته , والنحاة نحوة , والفقهاء معانيه ،ويقول كل واحد باجتهاده،المبني على قوانين علم ونظر، فان هذا القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه) [2] .

و يقول ابن كثير أيضا جامعا بين الروايات و الأدلة :[فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به ، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه، ولذا

---

[1] – مناهل العرفان : 1/ 517 .

[2] – المحرر الوجيز ، لابن عطية : 1/ 47 .

روى عن هؤلاء وغيرهم في التفسير ،ولا منافاه،لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه،وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم لديه، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى:(لتبيننه للناس ولا تكتمونه) (سورة آل عمران : 178) ، ولما جاء في الحديث المروي من طرق_(من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من النار)] [1].. بهذا تبين أن التفسير بالرأي و الاجتهاد إذا استوفي شروطه واستكمل ضوابطه جائز ،بل صار واجبا وفرضنا على العلماء، لحاجة الناس إليه، قال الإمام السيوطي:(وقد أجمع العلماء على أن التفسير من فروض الكفايات و أجل العلوم الثلاثة الشرعية : الحديث ، الفقه ، التفسير) [2] .

أقسام التفسير بالرأي :

1- **التفسير بالرأي الجائز**: وهو الجاري على موافقة الكتاب والسنة ، والقواعد المقررة في الشريعة ، والمنقولة عن ائمة السلف ، وموافقة كلام العرب، أي على المفسر أن يلاحظ في التفسير بالرأي ، الاعتماد على المنقول عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه ، مما ينير السبل للمفسر برأيه ، وأ ن يكون عارفاً بقوانين اللغة، بصيراً بقوانين الشريعة ، وأ ن يتجنب الخوض فيما لا يجوز الخوض فيه .. وهذا بلا شك مقبول محمود .

2- **التفسير غير الجائز .. والمذموم** : وهو الذي لا يجري على قوانين اللغة ، ولا يكون موافقاً للأدلة الشرعية ، ولا للقواعد المقررة عن أئمه السلف ، فهذا النوع لا ريب فيه انه مردود مذموم.قال الإمام السيوطي ما ملخصه : (للناظر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة أهمها أربعه **الأولى** : النقل عن رسول الله – ﷺ– مع التحرز عن الضعيف والموضوع. **الثانية**: الأخذ بقول الصحابي ، فقد قيل إنه في حكم المرفوع مطلقاً ، وخصّه بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأي فيه .

الثالثة : الأخذ بمطلق اللغة ، مع الاحتراز عن صرف الآيات إلى ما لا يدل عليه إلا من كلام العرب

الرابعة : الأخذ بما يقتضيه الكلام ويدل عليه قانون الشرع .

وهذا النوع الرابع هو الذي دعا به النبي – ﷺ– لابن عباس في قوله (اللهم فقهه بالدين وعلمه التأويل).

فمن فسر القرآن برأيه – أي باجتهاده – ملتزما الوقوف عند هذه المآخذ معتمداً عليها ، كان تفسيره سائغاً جائزاً جديراً بأن يسمى التفسير المحمود ، ومن حاد عن هذه الأصول كان تفسيره ساقطا مرذولاً ، ويستحق الوصف بالتفسير المذموم) [3]

---

[1] – تفسير ابن كثير : 1/ 18 .

[2] – الاتقان : 4/ 173.

[3] – الاتقان : 4/ 180-181 بتصرف .

المنهج الأمثل الذي يجب أن يسلكه المفسر :

على المفسر أن يلتزم بالضوابط الآتية ليكون منهجه صحيحاً ، وتفسيره يكون محل القبول والرضا ..

1 – أن يبدأ بتفسير القرآن بالقرآن ، فما أجمل منه في موضع ، فقد فصل في موضع آخر ، وما اختصر منه في مكان ، فقد بسط في مكان آخر .

2– ثم إذا لم يجده في القرآن ، طلبه من السنه ، فإنها شارحه للقرآن ، وإذا عرف تفسير القرآن من جهة النبي _ صلى الله عليه وسلم _ فليس بعد بيان النبي بيان .

3 – فإذا لم يجد التفسير في السنه ، رجع إلى أقوال الصحابة – رضي الله عنهم – لأنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن وأحوال نزوله ، ولما تميزوا به من الفهم العام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح .

4– فإذا لم يجد التفسير في القرآن ، ولا في السنه ، ولا في أقوال الصحابة ، فإنه بوسعه أن يرجع إلى أقوال التابعين ، فقد رجع إليهم كثير من الأئمه .

5–– مطابقة التفسير للمفسر من غير زيادة لا يتطلبها المقام ، ولا نقص يخل بالمعنى وتوضيح الكلام .

6– مراعاة المعنى الحقيقي وتقديمه على المعنى المجازي ، وحمل الكلام على ما يقتضيه المقام .

7– مراعاة التآلف والترابط بين الآيات ، وربط السابق باللاحق ، ومراعاة الغرض الذي سيق له الكلام ، والمقصد الذي ترمي إليه الآيات ، من غير فصل بين الكلمات والآيات .

8– على المفسر أن يرجع إلى أسباب النزول قبل الشروع في تفسير الآية . فمعرفة السبب تعين على معرفة المسبب .

9 – ثم بيان معاني المفردات واشتقاقها وإعرابها ، ومايتعلق بها من البلاغة والبيان ، ثم يختم بذكر المعنى العام ، وذكر ما ترشد إلى الأيات من هدايات ، وما يؤخذ منها من أحكام واستنباطات .

10 – على المفسر أن يتجنب الخوض فيما استأثر الله بعلمه من أمور الغيب ، وفيما أجمله القرآن ، أو طوى ذكره في القصص القرآني ، ولم يرد على التفصيل فيه دليل .

11– على المفسر أن يتجنب الدخيل والإسرائيليات ، والأحاديث الموضوعه ، وكل ما يحجب نور القرآن وهدايته عن القلوب ، أو يصرف الناس عن التدبر والاعتبار[1].

---

[1] – انظر : البرهان في علوم القرآن : 1/ 34، ودراسات ومباحث في تاريخ التفسير ومناهجه : 110–113.

الرأي المذموم .... وسبب ذمه :

سبق أن ذكرنا التفسير بالرأي المذموم **هو الذي لا يجري على قوانين اللغة، وهو الغالب على تفسير أصحاب الأهواء وتفسير الفرق المبتدعه** ، والابتداع درجات يبدأ بالانحراف والفسق ، وينتهي بالكفران والظلال والعياذ بالله .

وكان التفسير قد جرى منذ زمن النبوه إلى أتباع التابعين ، على طريقه تكاد تكون واحدة ، فخلف كل عصر يحملون التفسير عمن سلف بطريق الروايه والسماع ، وفي كل عصر تتجدد نظرات تفسيريه لم يكن لها وجود قبل ذلك ... لكثرة الداخلين في الإسلام ... ولازدياد نواحي الغموض في التفسير بالنسبه لكثير من غير العرب .

ثم إن هذا التضخم في الحقيقه ما هو إلا محاولات عقليه ، ونظرات إجتهاديه ، قام بها أفراد ممن لهم عنايه بهذه الناحيه ، غير أنها لم تخرج بادىء الأمر عن قوانين اللغه ، ولم تتخط حدود الشريعه ، وبقيت في دائره التفسير بالرأي المحمود ، ولم تتجاوزه إلى دائره التفسير بالرأي المذموم الذي لا يتفق وقواعد الشرع .

وظل الأمر كذلك إلى أن قامت الفرق المختلفه ، وظهرت المذاهب الدينيه المتنوعه ، وتبارى أربابها في محاوله نصره مذاهبهم والدفاع عن عقيدتهم ، وكان القرآن الكريم مرجع الجميع .. فأخذ كل منهم يبحث في القرآن لعله يجد فيه ما يقوي رأيه ، وينصر مذهبه ، مع علمهم بأن القرآن محفوظ .. لا يتطرق إليه تبديل أو تحريف ، فلجأوا الى تأويل الآيات لتتفق ومذاهبهم ، ولا تتعارض معها ، ومن هنا بدأ الخروج من دائره الرأي المحمود إلى الرأي المذموم .

ومن أمثلته :

ما دفع بعض الكتاب من حب التجديد المزيف إلى أن يساير روح الإلحاد ، ويحارب من يتهمون الشريعه الإسلاميه بالقسوه في أحكامها وحدودها ، فراح يتأول آيات الحدود بما يتفق وهواه وهوى أصحابه ، فحمل الأمر في قوله تعالى: (الزانيه والزاني فاجلدوا .. الآيه) (والسارق والسارقه ..)على الإباحه ، وجعل الامر في ذلك مفوضا إلى رأي ولي الأمر وحده ، فقال هذا الكاتب في مقال نشر تحت عنوان (التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي)[1] : (ولكن يبقى بعد هذا في تلك الحدود ذلك الأمر الذي سنثيره فيها ، ليبحث في هدوء وسكون ، فقد نصل فيه إلى تذليل تلك العقبه التي تقوم في سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامي من ناحيه تلك الحدود بوجه آخر جديد ، وسيكون هذا بإعادة النظر في النصوص التي وردت فيها تلك الحدود ، لبحثها من جديد بعد هذه الأحداث الطارئه ، وسأقتصر في ذلك على ذكر ما ورد في تلك الحدود من النصوص القرآنيه ، وذلك قوله تعالى في حد السرقه (والسارق والسارقه فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم فمن تاب من بعد ظلمه واصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم)(المائدة : 28-29)

---

[1] – نشر هذا المقال في مجلة السياسة الأسبوعية المصرية : العدد الخامس ، السنة السادسة ، سنة 1937م ، انظر : التفسير والمفسرون : 1/ 528-529.

وقوله تعالى في حد الزنا : (الزانيه والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائه جلدة ولا تأخذكم بهما رأفه في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفه من المؤمنين) (سورة النور : 2) فهل لنا ان نجتهد في الأمر الوارد في حد السرقه وهو قوله تعالى (فأقطعوا) والامر الوارد في حد الزنا وهو قوله تعالى (فاجلدوا) فنجعل كلا منهما للاباحه لا للوجوب .. ؟! ويكون الأمر مثل الامر الوارد في قوله تعالى : (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين)(سورة الأعراف : 31)

فلا يكون قطع يد السارق حدا مفروضا لا يجوز العدول عنه في جميع حالات السرقه ، بل يكون القطع في السرقه هو أقصى عقوبه فيها . ويجوز العدول عنه في بعض الحالات إلى عقوبات أخرى رادعه . ويكون شأنه في ذلك شأن كل المباحات التي تخضع لتصرفات ولي الأمر ، وتقبل التأثر بضروف كل زمان ومكان ، وهكذا الأمر في حد الزنا ، سواء أكان رجما أم جلدا ،مع مراعاه أن الرجم في الزنا لا يقول به فقهاء الخوارج ، لعدم النص عليه في القرآن الكريم .. ؟!

وهل لنا أن نذلل بهذا عقبه من العقبات التي تقوم في سبيل الاخذ بالتشريع الاسلامي ، مع اننا في هذه الحاله لا نكون قد ابطلنا نصا ولا الغينا حدا ، وإننا وسعنا الامر توسيعا يليق بما امتازت به الشريعه الاسلاميه من المرونه والصلاحيه لكل زمان ومكان وبما عرف عنها إيثار التيسير على التعسير والتخفيف على التشدد) [1]

إننا نرى في هذا المقال ما وصل اليه الكاتب من الجرأه على كتاب الله ، إذ أول آيه السرقه وآيه الزنا تأويلاً غير مقبول بأي حال من الاحوال ، ومن ينظر في آيه السرقه ، وآيه الزنا لا يفهم منها إلا أن الامر فيهما للوجوب، فليس لأحد أن يعدل عنه مطلقا ، وذلك الأمر في قوله تعالى (فأقطعوا) وقوله (فأجلدوا) وارد في الوجوب القاطع ، فإن بناء الأمر بالقطع في آيه السرقه على قوله :(والسارق والسارقه) ، وبناء الامر بالجلد في آيه الزنا على قول (الزانيه والزاني) يصرفه عن احتمال الإباحه إلى الوجوب ، وهذا لأن تعليق الحكم على شخص موصوف بوصف يؤذن بأن المقتضى للحكم هو ذلك الوصف الذي قام بالشخص ، وإذا كان ذلك الوصف جنايه مثل السرقه والزنا ، ووضع الشارع لهما حكما في صيغه الأمر ولم يذكر حكما غيره، لا يصح أن يقال : إن هذا الأمر محتمل للإباحه ، كما احتملها الأمر في قوله تعالى : (خذوا زينتكم عند كل مسجد .. الآيه) .

ثم إن قوله تعالى في آية السرقه : (جزاء بما كسبا نكالا من الله) ، وقوله في آية الزنا : (ولا تأخذكم بهما رأفه في دين الله) ، وقوله : (وليشهد عذابهما طائفه من المؤمنين) ، يؤكد أن الأمر في الآيتين للوجوب لا للإباحه ، ثم إن

---

[1] – انظر : مجلة السياسة الأسبوعية ، عدد6، سنة 6/ 1937م .

هناك من سنه رسول الله – ﷺ– القوليه والعمليه ، ما يؤكد كون الأمر للوجوب في الآيتين ، فهل يجوز للكاتب بعد هذا كله أن يتهجم عن آيات الحدود بمعول ذلك التأويل الذي تنكره اللغه ، ولا تقره السنه ، ولا يتفق وحكم التشريع) [1].

أهم كتب التفسير بالرأي

1 – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (542هـ–1147م)

2 – التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب – محمد بن عمر الرازي (ت 606هـ – 1209م)

3 – تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : لأبي الثناء محمود بن عبد الله الالوسي (ت 1217 هـ – 1853م) :

4 – أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، للبيضاوي (ت 685هـ – 1286م)

تفسير الفقهاء

في القرآن الكريم آيات تتضمن الأحكام الفقهية ، ميزها الفقهاء وفسروها في مصنفات خاصة تعرف بـ (أحكام القرآن) ، وهذه المصنفات متأخرة بالنسبة لتدوين المذاهب الفقهية المتبعة ، وأول كتاب عرف في هذا الشأن هو (أحكام القرآن) للشيخ أبي الحسين علي بن حجر السعدي المتوفى سنة 244 هـ . ثم توالت التأليف يعرض من خلالها رأي المذهب في استنباط الأحكام من تلك الآيات ، بل نهج هؤلاء المفسرون وهم من فقهاء المذاهب ... منهج الفقهاء في كتبهم من التعصب المذهبي الذي يلوح من خلال التفسير.. ومن يطالع كتاب (أحكام القرآن) للجصاص ... يقف على اختيار الأحناف من آراء السلف .. وكذلك من يطالع (أحكام القرآن) لابن العربي يتعرف على مذهب الإمام مالك ... ومثله كتاب أحكام القرآن للهراسي ، حيث قدم ما اختاره فقهاء الشافعية من آراء مستنبطة من كتاب الله تعالى .

ويعتبر هذا الأنموذج من كتب التفسير الموضوعي للقرآن الكريم عدة الباحثين والفقهاء ، حيث يسهل مهمة الوقوف على الأحكام الشرعية ، وهو ما يعرف بفقه الكتاب . وقد مهد السلف لهذا المنهج حيث تركوا بين أيدي الخلف وفرة وافرة من حصيلة جهدهم في التفكير ، وما تفهموه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويعتبر هذا محورا يرتكز عليه البحث ، وينطلق منه ولا يمكن إغفاله ألبتة أو تجازوه كليا .

تفسير النحاة

كان التأليف في التفسير من زاوية النحو ، يساير التأليف في غريب القرآن ، ويبدو أن معظم العلماء الذين غلب عليهم الاشتغال بالنحو كانوا يضعون تفسيرا للقرآن الكريم ، لأن هذا الكتاب الكريم مدار بحثهم ، وعليه يعتمدون في تأييد

---

[1] – انظر : التفسير والمفسرون : 2/ 61 .

القواعد ، فلا بد لهم من فهم آياته وتفسيرها ، وعرض وجهات نظرهم الاختصاصية خلال ذلك . ونستطيع أن نصف الكتب التي درست القرآن من وجهة النظر النحوية في زمرتين :

1- كتب فسرت القرآن ، أو المشكل منه ، وعنيت بالنحو ، مثل (معاني القرآن) للفراء ، و(البحر المحيط) لأبي حيان .

2- كتب عرفت بكتب إعراب القرآن وهي كثيرة .. عرض لطائفة جيدة منها صاحب (كشف الظنون) ، والسيوطي في (الإتقان)

التفسير البياني

هو المنهج الذي تدور مباحثه حول بلاغة القرآن في صوره البيانية ، من تشبيه ، واستعارة ، وكناية ، ووصل ، وفصل ، وما يتفرع من ذلك من استعمال حقيقي ، أو استخدام مجازي ، والبحث في هذا الجانب ، يعد بحثا أصيلا في جوهر الإعجاز القرآني ، ومؤثرا دقيقا في استكناه البلاغة القرآنية .. [1]

وممن برع واستوفى البيان في ذلك : الزمخشري في (الكشاف) ، فإن فيه كنزا من فنون الأدب ، قد تجلى فيه ما بينه من دلالات جمالية في نظم المعاني ، وروعة البلاغة ، وتعلق العبارات بعضها ببضها الآخر من وجهة بلاغية ، إضافة إلى عنايته بإبراز الكنايات ، والاستعارات ، وصور التشبيه ، وبلاغة التقدبم والتأخير ، عناية فائقة ..

ومن المفسرين الذين اتجهوا في تفسير القرآن وجهة بيانية ، مبرزين إعجازه في بديع نظمه ، وعجيب تأليفه : وشيخ الاسلام أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي : في تفسيره : (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم).

---

[1] – انظر : المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم : محمد حسين علي الصغير : ص 103.

تفاسير الفرق الإسلامية...أو التفسير بالرأي المذموم

تمهيد في نشأة الفرق الإسلامية :

جرى التفسير منذ عصر الرسالة إلى زمن اتباع التابعين على وتيرة واحدة تناقله الخلف عن السلف بطريق الرواية والسماع ، واتباع المأثور في ذلك ، مع الاجتهاد اليسير الذي كان يجد مع كل عصر ، تبعا لما يتجدد من أمور ، لم يكن لها وجود في العصر الذي سبقه .

وهذا راجع إلى أن الناس كلما تباعدوا عن عصر النبوة ، واتسعت الفتوحات الإسلامية ، ودخل الأعاجم في دين الله .. ازدادت نواحي الغموض في التفسير ، وزادت الحاجة إلى البيان الشامل ، والتفسير الواسع ، فتضخم التفسير كلما مرت عليه السنون بيد أن هذا التضخم لم يخرج بالأئمة المفسرين عن الحد المعقول ، فما زاد بعضهم عن الاجتهادات العقلية التي لم تخرج عن قوانين اللغة ، ولم تتعد حدود الشريعة ، مما جعلها محتفظة بصبغتها الشرعية ، ولم تتجاوز دائرة التفسير بالرأي المحمود . وظل الأمر كذلك إلى أن ظهرت الفرق المختلفة ، والمذاهب المتنوعة ، وظلت الفرق تتحزب وتتعصب وتتنافر وتتناحر . وانبرى من كل فرقة علماؤها يحاولون نصرة مذهبهم ويدافعون عن معتقداتهم ، فاتجهوا جميعا إلى القرآن الكريم كل يبحث فيه عما يقوى رأيه ويؤيد مذهبه ، ومن لم يظفر منهم ببغيته فيه ، أخضع الآيات القرآنية لمذهبه ، ومال بها مع رأيه وهواه ، وأولها بما يتفق مع عقيدته .

ومن هنا بدأ الخروج عن دائرة الرأي المحمود إلى الرأي المذموم ، واستفحل الأمر حتى صار التعصب الأعمى غالبا على أصحاب الملل والنحل ، فأخرجوا للناس تفاسير حملوا فيها كلام الله على وفق أهوائهم ، وآرائهم ، التي هي بعيدة عن الحق والصواب .

وقد بدأ الخلاف بين المسلمين أول ما بدأ في أمور اجتهادية ، لا تصل بأحد منهم إلى درجة الابتداع والكفر ، مثلما اختلفوا في موضع دفنه عليه الصلاة والسلام ، أيدفن بمكة، أم بالمدينة ، أم يدفن ببيت المقدس ؟ واختلفوا أيضا في سقيفة بني ساعده يوم تولية من يخلف رسول الله – ﷺ– بعد وفاته ، ومع الاختلاف كان المسلمون يدا واحدة ، وكانت عقيدتهم واحدة [1] .

وظل الأمر على ذلك حتى زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان -رضي الله عنه - ، وكان ما كان من خروج بعض المسلمين عليه ، وانتهى الأمر بمحاصرة داره وقتله ، فاهتز المجتمع المسلم هزة عنيفة ، وهب قوم يطالبون بدم عثمان ، ونشبت الحرب بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما - من أجل الخلافة ، وكان لكل منهما شيعة وأتباع ، ثم انشق الصف بين جماعة علي - كرم الله وجهه - بعد مسألة التحكيم ، فظهرت منذ ذلك الحين فرق الشيعة ، والخوارج ، والمرجئة ، منها من ينحاز لعلي ، وأُخرى تنحاز لمعاوية وتؤيد الأمويين عموما .

---

[1] – انظر : مقالات الاسلاميين : لأبي الحسن الأشعري ، هامش ج1/ 34-40 .

ثم أ خذ هذا الخلاف وذاك التفرق يتدرج شيئا فشيئا ، ويزداد حينا بعد حين ، إلى إن ظهرت فرقة القدرية في أواخر عصر الصحابة ، وأول من بدأ بهذا المذهب وجهر به : معبد الجهني . ثم توالت الأيام ... وفي زمن الحسن البصري ظهر قول واصل بن عطاء في القدر ، وفي القول بالمنزلة بين المنزلتين ، واعتزاله مجلس أستاذه ، ومنذ ذلك الوقت ظهرت فرقة المعتزلة.

ثم كان ما كان من أصحاب العقائد المختلفة كاليهودية ، والنصرانية ، والمجوسية ، والصابئة ، وغيرهم ممن تزيا بزي الإسلام ، وأضمر العداء له ، لينال من دولته ، حنينا إلى ملتهم ودولهم التي محاها الإسلام ، كعبد الله بن سبأ اليهودي وغيره ، ثم غلا بعض اتباع الفرق والطوائف وزاد حقدهم على الإسلام ، فابتدعوا أقوالا ومذاهب ، تخرج من الملة كالقول بالحلول والتناسخ [1] .

وقد اشتهر من هذه الفرق :المعتزلة ، والشيعة ، والمرجئة ، والخوارج ، وما عداها من الفرق المشهورة كالجبرية ، والباطنية ، والمشبهة ، وغيرها فمعظمها مشتق من هذه الفرق الخمس الرئيسة [2] ، وكل فرقة من هذه الفرق نظرت إلى القرآن من خلال عقيدتها ، وفسرته بما يتفق مع أهوائها [3] ، إلا أن ما أثر عنها من كتب التفسير ليس على درجة سواء ، فبعض الفرق لها كتبها في التفسير ، والبعض الآخر لم نظفر لها بشيء من تفسيراتها بين ثنايا كتب العلم ، ومن ثم لا نستطيع إن نتصور منهجا كاملا لهم في تفسير كلام الله تعالى .

وقد سبق الكلام عن التفسير بالرأي المحمود ، وأهم ما ألف فيه من كتب ، وهو يمثل تفسير آهل السنة والجماعة ، بالإضافة إلى ما سبقه من التفسير بالمأثور ، فتلك هي تفاسير أهل السنة التي خلفوها للناس ، فلا نحتاج إلى إعادة الكلام عنها أو منهاجها .

---

[1] – انظر : التفسير والمفسرون : ج1/ 366.

[2] – انظر : تاريخ الجدل : لأبي زهرة ، 208.

[3] – انظر : تفسير الكشاف للزمخشري : الآية (110) في سورة آل عمران ، ج319/1 .

أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم

بلاغته ..... وأغراضه

تمهيد:

أسلوب القسم في اللغة ، طريق من طرق توكيد الكلام ، وإبراز معانيه ومقاصده على النحو الذي يريده المتكلم ، إذ يؤتى به لدفع إنكار المنكرين ، أو إزالة شك الشاكين .والقسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيئ في النفس وتقويه ، ومعلوم أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب ، وعلى أسلوب كلامهم ، ومناحي خطابهم ، وكان من عادتهم أنهم إذا قصدوا توكيد الأخبار وتقريرها ، جاءوا بالقسم ، وعلى هذا جاءت في القرآن الكريم أقسام متنوعة ، في مواضيع شتى ، لتوكيد ما يحتاج إلى التوكيد .

والأقسام التي جاء بها القرآن الكريم على ضربين :

الضرب الأول : – ما ورد على طريق الحكاية ، في ضمن ما قصه القرآن من قصص المخلوقين ، كقوله تعالى حكاية لقول إبراهيم – عليه السلام – لقومه (تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) (سورة الأنبياء : آية / 57).

وكقوله سبحانه مخبرا عما كان يقوله كفار مكة ، قبل بعثة المصطفى – عليه الصلاة والسلام – (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم) (– سورة فاطر : آية /42.)وهذا الضرب من القسم كثير في القرآن .

الضرب الثاني : ما أقسم الله تعالى به ، وهذا على نوعين :

النوع الأول : القسم المضمر ، وهو القسم المحذوف ، المدلول عليه بجوابه المقرون باللام ، كقوله تعالى : (لتبلون في أموالكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) (آل عمران : آية / 186 .)

تقديره : والله لتبلون ولتسمعن ، بدلالة الجواب المقرون باللام .

أو المدلول عليه بالمعنى والسياق ،كقوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) (– سورة مريم : آية/ 71)

أي : والله ما من كافر إلا وارد النار ، بدلالة المعنى والسياق ، لأن هذه الآية جاءت بعد آيات مؤكدات بالقسم الملفوظ ، وهو قوله تعالى : (فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا . ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا . ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) (سورة مريم : الآيات : 68 ، 69 ، 70.) فدل القسم الملفوظ على القسم الملحوظ ، وهذا النوع من القسم كثير في القرآن كذلك .

النوع الثاني : القسم الظاهر ، وهو الملفوظ ، وهو ما سيكون عليه مدار هذا المبحث

الأصل الاشتقاقي لألفاظ القسم

مادة قسم (ق، س ، م)[1] : لها معنيان رئيسان هما : –

أ – **التجزئة والتفريق** : وهو – القسم – بسكون السين ، وجمعه أقسام ، وترجع إليه مشتقات عديدة منها : قسم الشيء يقسه قسما ً : بمعنى : جزأه وفرقه ، ويكون بمعنى : قدر ونظر ، كقولك : هو يقسم أمره ، أي : يقدره ، ويدبره ، وينظر كيف يعمل فيه ، قال لبيد :

فقولا له إن كان يقسم أمره .. ألَمَّا يعظك الدهر أمك هابل [2]

وقسمه – بالتضعيف – : للتكثير ، أي جزأه ، ومنه قوله تعالى : – (فالمقسمات أمرا) (الذاريات : آية / 4 .)

وقاسم فلان فلانا أي : أخذ كل منهما قسمه . واقتسم القوم الشيء بينهم ، أي : أخذ كل واحد منهم نصيبه منه . إلى غير ذلك من المشتقات التي ذكرتها كتب اللغة

ب : – الحلف واليمين :

وهو القسم – بفتح القاف والسين – وجمعه أقسام ، مثل : سبب وأسباب ، ويستعمل منه الأفعال التالية :

1 – أقسم بالله إقساما أي : حلف بالله حلفا ..

2– قاسمه : أقسم له ، أو شاركه في القسم . ومنه قوله تعالى : – (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين) (الأعراف : آية /21.)

3– اقتسم : – يقال : اقتسموا : تحالفوا ، ومنه قوله تعالى : (كما أنزلنا على المقتسمين)(الحجر : آية /90.)وهم الذين تقاسموا وتحالفوا على الكيد للرسول – صلى الله عليه وسلم – ، وقيل : هم الذين جعلوا القرآن عضين ، آمنوا ببعضه ، وكفروا ببعضه الآخر . [3]

4 – تقاسم : يقال : تقاسم القوم ، أي : تحالفوا ، ومنه قوله تعالى – (قالوا تقاسموا بالله) (النمل : آية / 51 .)، فهي بمعنى التحالف ، أو طلب بعضهم القسم من بعض .

5– استقسمه بالله : طلب منه أن يقسم به .

---

[1] – انظر مادة (قسم) في لسان العرب لابن منظور ، والقاموس المحيط : للفيروزآبادي ط2.

[2] – ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، ص 131 . وقوله : أمك هابل : دعاء عليه كقوله : تكلتك أمك ، انظر : ابن منظور : لسان العرب : ج15 / ص 20 .

[3] –انظر أقوال المفسرين في الآية في تفسير : شهاب الدين محمود الآلوسي: روح المعاني ، ج14/ ص80–84 .

6- القسامة : - ومن معانيها : اليمين ، والجماعة يقسمون على حقهم ويأخذونه ، يقول الراغب :

(إن القسم بمعنى اليمين ، أصله من القسامة ، وهي أيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا على رجل أنه قتل صاحبهم ، ومعهم دليل دون البينة ، فيحلفون خمسين يمينا تقسم عليهم ، ثم صار اسمل لكل حلف ، فكأنه (أي :القسم) كان في الأصل تقسيم أيمان ثم صار يستعمل في نفس الحلف والأيمان [1]

2 : - مادة (ي، م ، ن) [2] :

بزيادة ياء قبل الحرف الأخير : يمين على وزن فعيل ، لها عدة معان ، منها :يمين الإنسان ، والقوة ، والقدرة ، والمنزلة ، والدين . ومن معانيها : الحلف والقسم ، وهو المعنى الذي يهمنا بالدرجة الأولى .

واليمين مأخوذ من أن المتحالفين ، والمتعاهدين ، قد يضع كل منهما يمينه في يمين الآخر ، فصار الحلف يسمى يمينا ، قال تعالى : (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم ..) (سورة المائدة : جزء من الآية / 89 .)

قال في مختار الصحاح : (واليمين : القسم ، والجمع : أيمن ، وأيمان ، وقيل : إنما سميت بذلك ، لأنهم كانوا إذا تحالفوا ، ضرب كل امرئ منهم يمينه على يمين صاحبه) [3]

وقال أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله النجيرمي : - (وأصل اليمين أنهم كانوا إذا تحالفوا وتعاقدوا تصافقوا بأيمانهم ، ولذلك قيل : أعطاه صفقة يمينه على هذا الأمر ، ثم سموا الحلف يمينا على هذا المعنى . وأنثوا اليمين على تأنيث اليد ، فقالوا : حلف يمينا برة ويمينا فاجرة) [4] .

3 :- مادة (ح ، ل ، ف) [5] : -

لا تخرج هذه المادة عن معنيين رئيسين هما : القسم ، والعهد . والحَلف والحِلف – بفتح الحاء وكسرها – لغتان في القسم . فالحِلف – بكسر الحاء – : العهد يكون بين القوم ، وقد حالفه : أي عاهده . وتحالف القوم : تعاهدوا،ويكون بمعنى آخى ، وعليه ما جاء حديث أنس : (حالف رسول الله - ﷺ- بين المهاجرين والأنصار في دارنا)[6] أي : آخى بينهم .

---

[1] – الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن ، ص 670 .وانظر د. أبو اليقظان عطية الجبوري : اليمين والآثار المترتبة عليه ، ص 192- 193 .

[2] – انظر مادة (يمن) في الصحاح ، والقاموس المحيط ، ولسان العرب ، والتعريفات : للجرجاني ، ص 28 .

[3] – محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي : مختار الصحاح : ص 745 .

[4] – أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله النجيرمي ، أيمان العرب في الجاهلية ،ص 34 .

[5] – ابن منظور : لسان العرب ، والفيروز آبادي : القاموس المحيط _ (مادة : حلف) .

[6] – الإمام عبد الله بن الزبير الحميدي : المسند ، ج2/ ص 507 ، حديث رقم (1205) .

والحلف – بفتح الحاء – : اليمين ، قال تعالى : (ولا تطع كل حلاف مهين)(القلم : 10 .)،

وقال الرسول – ﷺ–: (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر ، وليأت الذي هو خير ..) [1]

وأصلها : (أنهم كانوا إذا تحالفوا وتعاقدوا تصافقوا بأيمانهم ، ولذلك قيل : أعطاه صفقة يمينه على هذا الأمر ، ثم سموا الحلف يمينا على هذا المعنى) [2] .

ومع أن كتب المعاجم ترى أن (الحلف والقسم) لفظان مترادفان يؤديان معنى واحدا من غير فرق أو تمييز بينهما ، وتفسر أحدهما بالآخر ، ولكن حين نستقرئ استعمال الكلمتين ، وأصل اشتقاقهما لنتعرف على الفرق بينهما ، نجد أن العرب يقولون : (حلفة فاجر ، وأحلوفة كاذبة) [3] ، ولم يرد مثل هذا مع القسم .

فالحلف يدور حول الاحتمال والشك والتردد ، وبهذا يكون الحالف غالبا معرضا للحنث كثيرا ، لأنه حلف على الظن ، وليس عن يقين .

وحين نستقرئ البيان القرآني في استعماله لمادة (ح. ل. ف) نجدها قد دارت في بيانه الكريم في ثلاثة عشر موضعا [4]، كلها جاءت بغير استثناء في الحنث باليمين ، وفي آيات مدنية ، وخصوصا في سورة التوبة ، عدا آية واحدة مكية ، هي قوله تعالى في سورة القلم : (ولا تطع كل حلاف مهين)(سورة القلم / آية 10).

ثم إن إسناد الفعل غالبا جاء في المنافقين . وحين أسند الفعل إلى المؤمنين في قوله تعالى : – (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم)(المائدة : آية / 89 .)

كان ذلك لبيان كفارة الحلف عند الحنث . وباستعراض آيات الحلف المسندة للمنافقين ، والتي كشفت حقيقتهم وفضحت زيفهم ، نرى أن اليمين فيها كانت معقودة أصلا وابتداء على خلاف الحقيقة والواقع في أغلب الآيات ، وهم يعلمون ذلك ، وأن الأمر كذب .

قال تعالى : (ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) (المجادلة : آية / 14 .)

فالحلف يدور في العربية على احتمال الحنث غالبا ، لأنه مبني على الظن ، وفي البيان القرآني يتضح بجلاء أن اليمين في الحلف معقودة غالبا على الحنث أصلا ، حيث يحلف المنافقون على خلاف الحقيقة ، التماسا للعذر ، دون مبرة في الحلف ، أو صدق في اليمين .

---

[1] – أخرجه الامام مسلم في صحيحه : ج2 / ص 23 ، كتاب الأيمان ، من حديث أبي هريرة .

[2]– ابراهيم بن عبد الله النجيرمي : أيمان العرب في الجاهلية (مرجع سابق) ص 34 .

[3] – جارالله الزمخشري : أساس البلاغة ، كتاب الشعب ، ص192،.

[4] – انظر سورة المائدة / 89 ، والنساء / 62 ، والتوبة / 42، 56 ، 62 ، 74 ، 95 ، 96 ، 107 ، والمجادلة / 14 ، 18 ، والقلم / 10 .

أما القسم : فتفسره المعاجم بالحلف دون أن تذكر فرقا بينهما ، إلا أننا نجد صاحب القاموس يقول :

(والقسم : العطاء والرأي .. وأن يقع في قلبك الشيء فتظنه ، ثم يقوى ذلك الظن فيصير حقيقة) [1]. فكأن القسم في بعض اشتقاقاته اللغوية أقوى في الظن ، وأقرب إلى الحق ، وأبعد عن الاحتمال والشك ، كما هي الحال في الحلف . فالقسم إذا يكون على الشيئ الواضح ، والحق البين ، والأيمان الصادقة ، ولهذا جاء القسم في القرآن بالأيمان الصادقة ، وجاء موصوفا بالعظمة في قوله تعالى : - (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) (الواقعة : آية / 76 .)

وباستقراء البيان القرآني في استعمال القسم ، يدلنا على أنه يعتبر بحال المقسم عند عقد اليمين ، فيخص القسم بمن كان صادقا عند عقده لليمين ، حتى ولو خالف ذلك الحق ، وجانب الصدق في واقع الأمر ، وإنما كان ذلك هو اعتقاده الجازم ، ونظرته المخلصة في نظر نفسه ، أو على الأقل إيهام المقسم له بذلك . ومن هنا يمكن أن نفهم إشارة القرآن الكريم المتكررة إلى الجهد المبذول عند عقد اليمين من قبل بعض الكفار ، والمشركين ، مما يوحي بصدقهم وإخلاصهم في اعتقادهم ، وإن لم يكن هو الحق . فقد ذكر الله سبحانه وتعالى إقسامهم بالله جهد أيمانهم في خمسة مواضع ، [2]

ليوحي اجتهادهم غاية الجهد في هذه الأيمان بصدقهم فيها ، وإن تبين فيما بعد أن الأمر بخلاف ذلك . ومن هنا نرى أن القسم يرد عاما ، من الله سبحانه ، وعلى لسان المسلمين ، والمنافقين ، والكفار ، ويكون في آيات مكية ومدنية ، وغالبا ما يكون صادقا بارا ، وإن لم يكن كذلك في واقع الأمر ، فعلى الأقل في نظر المقسم ، وحسب اعتقاده عند عقد اليمين . تقول بنت الشاطئ في تفسير سورة البلد : [فقد يبدو من السهل أن نفسر (أقسم) بلفظ (أحلف) ، وليس في استعمال العرب لهما ما يمنع من تفسير أحدهما بالآخر ، لكن استقراء الكلمتين في القرآن يمنع هذا الترادف إلى أن تقول : وأمام هذا الاستعمال القرآني ، لا يهون أن نفسر القسم بالحلف ، وصنيع القرآن فيهما يلفت إلى فرق دقيق بين اللفظين المقول بترادفهما ، فرق يؤيده فقه العربية ، فاختلاف مادتي اللفظين يؤذن باختلاف مدلول كل منهما ، وبين حلف وحنث من القرب ، ما ليس بين حلف وقسم ، مما يبعد أن يكونا سواء)][3] . وهذا فرق كبير واضح ، يكفي لنفي ترادف الكلمتين [4] .

---

[1] - الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج4/ ص 164.

[2]- انظر الآيات : في سورة المائدة : آية / 53 ، وسورة الأنعام : آية/ 109 ، وسورة النحل : آية / 38 ، وسورة النور : آية/ 53 ، وسورة فاطر : آية / 42 .

[3] -بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن) : التفسير البياني للقرآن الكريم ، ط7 ، ج1 / ص 166-168 .

[4] - محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع : الفروق اللغوية ، ص 238- 243 . ومحمود سليم : خصوصية المعنى لألفاظ القرآن الكريم ، ص 115-120 .

أركان القسم

للقسم أركان أربعة :-

الركن الأول : - المقْسِم : وهو إما الله ، وإما العباد .

أما القسم من الله : - فقد قيل : ما معنى القسم منه تعالى ؟ فإنه إن كان لأجل المؤمن ، فالمؤمن مصدق بمجرد الإخبار من غير قسم . وإن كان لأجل الكافر ، فلا يفيده . [1]

والجواب : إن القرآن نزل بلغة العرب ، ومن عادتها القسم إن أرادت أن تؤكد أمراً ، كما أن الحكم يفصل باثنين : إما بالشهادة ، وإما بالقسم ، فإذا اجتمعت البينة وهي : الشهادة ، مع اليمين ، على دعوى ، اكتسبت مزيد ثبوت وتقرير ، فذكر الله تعالى في كتابه النوعين ، حتى لا يبقى لهم حجة ، فقال : (شهد الله أنه لا إله إلا هو .. الآية) (آل عمران : 18)

وقال : (ويستنبئونك أحق هو ، قل إي وربي إنه لحق ..) (يونس : آية 53). ففي الآية الأولى : فصل الحكم وقرره بالشهادة . وفي الآية الثانية : قرره وأكده بالقسم .[2]

وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى : (وفي السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) (الذاريات : 22، 23).

صرخ وقال : - من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه لليمين . [3] فالقسم ضرب من البيان ألفه العرب ، ليوثقوا به أنباءهم ، وتبين أنه كثيرا ما يجيئ للإستشهاد والإستدلال على صدق المقال ، فهو إذن نوع من الدليل الواقعي المحسوس ، الذي يستميل المشاعر والوجدان ، ويثير الإنتباه والتفكير .

الركن الثاني : المقْسَم به :

ولمجيئه في القرآن الكريم أغراض :

الأول : - أنه قد يكون شيئاً علوياً بعيداً عنا يثير الرهبة والعظمة والجلال ، ويدعونا ذكره والقسم به ، إلى أن يثير لدينا الفضول العلمي ، وحب الاستطلاع ، فأخذ في توجيه أنظارنا إليه بالبحث والدرس والتحليل ، ومحاولة تسخيره لمنافعنا ، وذلك كالسماء، وما فيها من شمس ، وقمر ، ونجوم ، ومظاهر كونية كثيرة ، فالقسم بهذه الكائنات العلوية ، يدفع الناس إلى البحث والتنقيب ، ونصوص القرآن الدالة على النظر والبحث كثيرة ، منها قوله تعالى : - (قل انظروا ماذا في

---

[1] - انظر : الزركشي : البرهان ، ج3 / ص 41.

[2] - د. سمير عبد العزيز شيلوة : الكشف والبيان (مرجع سابق) ص 289- 290 .

[3] - شهاب الدين محمود الآلوسي : روح المعاني ، ج27 ، ص 10-11 .

السماوات والأرض) (الذاريات : الآيتان : 22، 23 .) وقوله تعالى : (أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ، وما خلق الله من شيء) (الأعراف : 185)

وقد أثبت الواقع أنه كلما تعمق الباحثون في دراسة هذه الظواهر التي أقسم الله بها ، وجدوا فيها من العظمة والجلال ، والقدرة الإلهية ، ما تخر له النفوس ساجدة خاشعة ، قائلة : (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)– (آل عمران : 191.)

الثاني : – إن المقسم به قد يكون شيئا أرضيا مما يحيط بالإنسان ويتعايش به ومعه ، ويقسم الله تعالى به لما فيه من منافع وفوائد ، كالتين ، والزيتون ، والبحر المسجور ، والأرض وما طحاها

الثالث : – أن يكون المقسم به شيئا ذاتيا للإنسان ، وذلك كالنفس البشرية التي أقسم الله تعالى بها في قوله : (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها)(الشمس : 7.)

وقوله تعالى : (ولا أقسم بالنفس اللوامة)(الليل : 3.)

ولا شك أن القسم بهذه الأشياء يفتح للباحثين مجالا كبيرا في المباحث الفكرية ، والنفسية ، والاجتماعية [1]

الركن الثالث : جواب القسم أو المقسم عليه : –

الغالب في المقسم عليه أن يكون في الكلام ، لأنه المقصود بالتحقيق ، وقد يحذف كما يحذف جواب (لو) ، إما : للعلم به ، أو لتذهب النفس فيه كل مذهب . كما في مثل قوله تعالى : (كلا لو تعلمون علم اليقين) (التكاثر : 5) ، فجواب لو محذوف ، تقديره : لو تعلمون علم اليقين عاقبة التفاخر ما اشتغلتم به . وهذه عادة العرب في كلامهم إذا رأوا أموراً عجيبةً ، وأرادوا أن يخبروا بها الغائب عنها .

وأكثر ما يحذف جواب القسم : إذا كان في نفس المقسم به دلالة على المقسم عليه ، فإن المقصود يحصل بذكره (أي المقسم به)، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز ، كما في قوله تعالى : (ص . والقرآن ذي الذكر) (ص: 1) ، فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ، ووصفه بأنه ذو الشرف ، والقدر ، ما يدل على المقسم عليه ، وهو كونه حقا من عند الله غير مفترى ، وتقدير الجواب : إن الفرقان لحق . وهذا يطرد في كل ما شابه ذلك ، كقوله تعالى : (ق والقرآن المجيد) (ق : 1) ، وتقدير الجواب : ما آمن كفار مكة برسول الله– ﷺ–.

---

[1] – انظر : د. سمير عبد العزيز شيلوة : الكشف والبيان ، ص 293 . ود. عبد ربه فرحات : تفسير سورة النجم ، دراسة تحليلية ، موضوعية ، ص 43–44.

الركن الرابع : أدوات القسم :

للقسم أدوات منها : (الباء ، والواو ، والتاء ، واللام ، ومن) ، قال سيبويه :(وللقسم والمقسم به أدوات في حروف الجر ، وأكثرها الواو ، ثم الباء ، يدخلان على كل محلوف به ، ..الخ) . [1]

والذي يعنينا من هذه الأدوات هي الحروف الثلاثة الأولى ، إذ لم ترد (اللام) ، أو (من) ، للقسم في القرآن الكريم.[2]

أنواع القسم الظاهر في القرآن الكريم

الموطن الأول : – إقسامه تعالى بذاته وصفاته . وقد جاء في خمسة مواطن من القرآن : الموطن الأول : قوله تعالى في سياق الكلام على المنافقين : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما .) (النساء : 65)

الموطن الثاني : قوله تعالى : (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون .) (الحجر : 92، 93)

الموطن الثالث : قوله تعالى : (فوربك لنحشرنهم والشياطين .) (مريم : 68)

الموطن الرابع : قوله تعالى :(فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون .) (الذاريات : 23)

الموطن الخامس : قوله تعالى : (فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين .) (المعارج : 40 ، 41) وأما قوله تعالى في سورة يونس :(ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين) (يونس : 53) ، وقوله تعالى في سورة التغابن : – (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن) (التغابن : 7) فليس من باب إقسامه تعالى بذاته ، وإنما هو من باب تعليمه النبي – ﷺ– كيفية الجواب ، فهو بالنهاية من أقسام النبي – ﷺ– بربه ، على الطريقة التي دله الله عليها ، وأرشده إليها

القسم بالمخلوقات في القرآن الكريم :

إذا إستقصينا القسم في القرآن وجدناه تعالى يقسم على أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها ، فتارة يقسم على أن الله واحد ، وتارة يقسم على البعث ، وتارة يقسم على حال الإنسان .

---

[1] – سيبويه : الكتاب ،تحقيق : عبد السلام هارون ، ج3/ ص496 وما بعدها .

[2] – انظر : ابن يعيش : شرح المفصل : ج8/ ص 33– 34 ، وج9 / ص 99– 101 .

يقسم على أن الله واحد ، كقوله تعالى : (والصافات صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا . إن إلهكم لواحد)(الصافات : 1، 2 ، 3 ، 4) . وعلى أن القرآن حق ، كقوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم)(الواقعة : 75، 76 ، 77) . وعلى أن الرسول حق ، كقوله تعالى : – (يس .والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين) (يس : 1 ، 2 ، 3) . وعلى الجزاء ، كقوله تعالى : (والطور . وكتاب مسطور. في رق منشور. والبيت المعمور. والسقف المرفوع .والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع)(الطور : 1، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8) .

وعلى حال الإنسان ، كقوله تعالى : (والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتى) (الليل 1 ، 2 ، 3 ، 4) [1] .

وفي هذه الآيات وغيرها ترى المقسم به من مخلوقات الله تعالى ، فبإقسامه أولا ، وكونه يقسم بالمخلوقات ثانيا، أثار الشبهات التالية [2] : –

1 – الجري على عادة الحلف عندنا غير محمود شرعا ،فالذي يلجأ للقسم متهم في صدقه ، مفتقر إلى تأييد دعواه ، فلماذا أكثر الله من الأقسام في القرآن . ؟

2– نهى النبي –صلى الله عليه وسلم– عن الحلف بغير الله [3]، ثم إن الحلف بغير الله يقتضي تعظيمه ، والعظمة لله وحده ، واجتناب الحلف مطلوب شرعا ، فكيف يحلف الله بمخلوقاته ، كالتين والزيتون ؟

3 – القسم القرآني كما قلنا وقع على أمور مهمة جدا ، هي أصول الإيمان ، فما المقصود به ؟ إن كان المقصود تحقيق المحلوف عليه وإثباته في ذهن المؤمن ، فالمؤمن مصدق لا يحتاج إلى يمين ، وإن كان المقصود به تحقيقه وإثباته في ذهن الكافر ، فالكافر لا يصدق باليمين [4]، ولا يقنعه إلا الدليل الساطع ، والبرهان القاطع . تلك الشبهات تخطر كلها أو بعضها في بال كثير من الناس .

فإذا سأل أحدهم : كيف يقسم الله بمخلوقاته ؟

كان الجواب : إن الله أراد تشريف تلك المخلوقات ، والتنويه بها وإعلاء شأنها ، والرد على من ذمها ، وهذا ظاهر الصحة في قوله تعالى : (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) (الحجر : 72.) ، إذا قلنا إنه خطاب من الله لنبيه

---

[1] – انظر ابن قيم الجوزية : التبيان في أقسام القرآن ، ص 4 – 8 .

[2] – عبد الحميد الفراهي : إمعان في أقسام القرآن ،ص 4. (بتصرف) .

[3] – الإمام مسلم : صحيح مسلم : كتاب الأيمان ، ج11 / ص 104– 107 .

[4] – انظر : الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ج3/ ص 41 .

– ﷺ – ، فقد كان النبي واحدا من العرب ، ظهر فيهم وعليهم ، فلقي منهم إيذاءً واستهزاء ، ولقي منه عنادا وإصراراً ، وعتواً واستكبارا ، فمن المعقول أن يشرفه الله بأن يقسم بحياته ، أما أن يشرف الخيل العاديات ضبحا بالقسم ، فبعيد ، وأبعد منه أن يشرف بالقسم كلا من الشمس ، والقمر ، والنجوم ، وقد بلغت عندهم من الشرف غايتة ، حتى عبدها بعضهم ، وفي تشريفه إياها بالقسم بها ، إغراء لهم بالتمادي في عبادتها ، وهو يقول – سبحانه – (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر .)(فصلت : 37.) .

أساس تلك الشبهات : –

لعل مما سبب في تسرب هذه الشبهات إلى الأذهان ، ظنها أن الغرض من القسم تقديس المقسم به ، أو تشريفه وتعظيمه ، وساعد على ذلك ، أن معظم ما أقسم الله به من مخلوقاته شريف في ذاته ، كالقرآن ، والشمس ، والقمر ، ولكن القسم في اللغة قد يكون بالخسيس كذلك ، ليؤدي غرضاً مقصوداً ، وسنرى في الأسطر القادمة ، أن في القسم بالمخلوقات ، نوع يباين القسم التقديسي ، ويباين القسم التشريفي ، وجيئ به ليؤدي غرضاً جليلا لا يؤديه غيره .

ولما كان القرآن قد نزل بلغة العرب ، وعلى طريقتهم ، وأسلوبهم ، كان علينا أن نعرف الغرض الأصلي من القسم عندهم ، وأن نتبين خصائصه وأهدافه ، لتتداعى تلك الشبهات .

أغراض القسم القرآني ، وأهدافه :

يقول ابن يعيش : – (الغرض من القسم : توكيد ما يقسم عليه من نفي وإثبات) [1]

وقال ابن القيم : (والمقسم عليه : يراد بالقسم توكيده ، وتحقيقه) [2]،

والقرآن نزل بلغة العرب ، ومن عاداتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمرا ، وقلما نجد القسم مستعملا في اللغات الأخرى وآدابها [3] .

وكثيرا ما يحتاج المتكلم إلى تأكيد خبر يسوقه ، أو توثيق وعد يصدر منه، وبخاصة في الأمور المهمة كالمحالفات ، والمعاهدات ، وكان للتأكيد عند العرب صيغ مختلفة ، وكان القسم أقواها تأكيدا وتحقيقا ، لأنه يفيد الجزم بصحته ، والقطع بصدقه ، وقد بلغ من شأن القسم عندهم ، أنهم كانوا يحترزون كل الإحتراز من الأيمان الكاذبة ، ويعتقدون أنها شؤم على صاحبها ، تخرب الديار ، وتدعها بلاقع ، لما فيها من الغدر والخيانة ، ومن أجل هذا كانت اليمين عندهم قاطعة في إثبات الحقوق .

---

[1] – ابن يعيش : موفق الدين يعيش بن علي: شرح المفصل ،ج9/ ص 90 .

[2] – ابن القيم : التبيان في أقسام القرآن ، (مرجع سابق) ص 2 .

[3] – انظر : د. عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن الكريم ، ص 265.

فالغرض الأصلي من القسم تأكيد المقسم عليه ، أما تقديس المقسم به ، أو تشريفه ، فغير مقصود أصالة ، وإن أتى تبعا

والقسم أنواع :

1- نوع يلزم فيه التقديس .

2- ونوع فيه تشريف وإعزاز للمقسم به .

3 – ونوع ثالث هو المقصود بالبيان ، يكون القسم فيه بالدليل ، أو ما في حكمه، وهو القسم الاستدلالي .

القسم التقديسي : – وهو إقسام الإنسان بمعبوده ، فهو عند المسلمين : أن يقسم بالله أو بصفة من صفاته ، فيقول أحدهم : أقسم بالله ، أو بعزته ، أو بجلاله لأفعلن كذا ، وهو أقوى أنواع القسم تأكيدا للمقسم عليه ، وهو القسم الشرعي ، الذي يأثم الإنسان على نقضه بعد تأكيده .

قالت العلماء : أقسم الله تعالى بالنبي – ﷺ – ، في قوله (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) (الحجر : 72) لتعرف الناس عظمته عند الله تعالى ، ومكانته لديه) [1] هذا إذا كان الله عز وجل هو المقسم ، أما العباد إذا أقسموا ، فالاسلام حرم عليهم القسم بغير الله ، أو صفة من صفاته ، وقد سمع النبي– ﷺ– رجلا يحلف بأبيه ، فقال : (إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت) [2]. وللفقهاء في ذلك آراء وأقوال ليس هذا موضعها .[3]

القسم التشريفي :

يحس الإنسان في نفسه عزة ورفعة ، فيحمله هذا إذا أراد تأكيد كلام أن يقول : ورأسي ، أو وحياتي، أو لعمري ، لأفعلن كذا ، وقد يريد إعزاز المخاطب وإكرامه فيقول : ورأسك ، أو لعمرك ، فكل هذه الأقسام تفيد التأكيد ، ومع أنها تشعر بتعظيم المقسم به ، إلا إلى أنها لا تصل إلى حد التقديس ..

القسم الإستدلالي :

1- روي أن (هجرسا) حين هم بقتل خاله (جساساً) قاتل أبيه ، قال : – (وفرسي وأذنيه ، ورمحي ونصليه ، وسيفي

---

[1] – السيوطي : الاتقات ، ج2 / ص 170 .

[2] – الامام مسلم : صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الايمان ، ج2/ ص 20 .

[3] – أبو اليقظان عطية الجبوري : اليمين والآثار المترتبة عليه . ص52-55.

وغَراريه ، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه) [1]، ثم طعنه فقضى عليه . لم يرد (هجرس) تقديس فرسه ، وأذنيه ورمحه ، ونصليه وسيفه ، وغراريه ، ولا تشريفها ، وإن كانت عظيمة عنده ، عزيزة عليه ، ولكنه أراد أن يقول : لا عذر لي في أن أترك قاتل أبي حيا أنظر إليه ، وأنا تام الأهبة ، قادر على الضرب والطعن والثأر ، أو أراد أن يقول : أنا تام العدة ، قادر على الثأر ، ومن كان كذلك ، لا يسوغ له أن يترك قاتل أبيه حيا وهو ينظر إليه ، فأنا لا يسوغ لي أن أترك قاتل أبي حيا ، وأنا أنظر إليه ، فوضع الدليل في صورة القسم التي تفيد تأكيد المحلوف عليه ، وتلفت السامع إليه ، دون أن تعطي الخصم فرصة الإنكار ، أو الفرار .

2 – قال عروة بن مرة الهذلي : –

وقال أبو أمامة يالبكر ... فقلت ومرخة دعوى كبير .

يستهزئ الشاعر بأبي أمامة على استغاثته بقبيلة بكر ، فقال : هذه دعوى كبيرة ، أي : ما أصغر من يدعوهم لنصره ، فأقسم بشجرة صغيرة لا تؤوي من يلوذ بها ، وضربها مثلا لأضعف الأشياء ملاذا ، وإنما قال :(كبير) ، تهكما ، فهو يريد : فقلت ومرخة دعوى صغير ، على حد قولك للأسود : يا أبيض ، وللجبان : يا أسد . وكقوله تعالى : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) (الدخان : 49) أي : الذليل اللئيم .

ويتضح هذا المعنى مما قاله أبو جندب الهذلي :

وكنت إذا جار دعا لمضوفة ... أشمر حتى ينصف الساق مئزري .

فلا تحسبا جاري لدى ظل مرخة .... ولا تحسبنه فقع قاع بقرقر .

والمرخة : شجرة ضئيلة الظل ، لا تقي من استظل بها حر الشمس ، ولذا تقول العرب لمن لجأ إلى ضعيف لا يحميه : لقد استظل بمرخة . [2]

فالتقديس والتشريف لا يلازمان المقسم به ، بل قد يكون حقيرا ، أو بغيضا ثقيلا ، وقد يكون القسم للتذكير بالمقسم به ، والتنبيه إليه ، وقد يكون للإستدلال بالمقسم به على المقسم عليه ، أو لتشبيه المقسم عليه بالمقسم به .

وإلى هذا أشار الفخر الرازي – عند تفسير قوله تعالى : (والذاريات ذروا . فالحاملات وقراً .فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا. إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع .)(الذاريات : 1–6) إلى أن الأيمان الواقعة في القرآن

---

[1] – عبد الحميد الفراهي : إمعان في أقسام القرآن (مرجع سابق) ص 35 . وانظر القصةكاملة في الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني ج5/ ص61 . ومحمد أحمد جاد المولى : أيام العرب في الجاهلية ، وزملاؤه . ص 142–168 .

[2] – عبد الحميد الفراهي : إمعان في أقسام القرآن (مرجع سابق) ص 35 . (بتصرف) . والقاع : المستوي من الأرض . والقرقر: الأملس الذي لا حجارة فيه . انظر : الرازي : مختار الصحاح ، ص 556. وابن منظور : لسان العرب ج11 / ص 128 .

، وإن وردت في صورة القسم ، فالمقصود بها الاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه ، وهو هنا صدق الوعد ، والبعث ، والجزاء ، كأنه قيل : من قدر على هذه الأمور العجيبة المقسم بها ، يقدر على إعادة من أنشأه أولا [1].

وأكثر أقسام القرآن إستدلالية ، والأدلة على ذلك كثيرة ، منها : -

1- إن حملها على الإستدلال هو اللائق بجلال الله وبجلال كتابه ، لأنه ليس من اللائق ولا من الصواب ، أن يفهم أي قسم من أقسام الله على أنه تقديس للمقسم به ، لأن هذا التقديس يجوز على البشر ، ولا يصح مع الخالق ، إلا في حالة واحدة وهي: القسم بالله ، فإنه تقديس .

2- إن القرآن يتصرف في أساليبه ، فتارة يذكر الأمور الدالة على وجود الله ، ووحدانيته وقدرته ، في أسلوب القسم بها ، وتارة يسوقها مساق العظة والتوجية ، وهي في الحالتين بينات على ما سيقت إليه ، لمن يتفكر فيها ، ويتدبر مراميها . قال تعالى : - (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) (الذاريات : 21.)

وفي آيات أخرى استدلال بالأرض ، والسماء ، والجبال ، والبحار، وغيرها ، على طريق القسم بها ، ولا شك أن توجيه القسم بها على أنه استدلالي للاحتجاج والاستشهاد ، يناظر ذكرها للعظة ، والتوجيه ، والاعتبار

3- ليس من المعقول أن يتصور إنسان مؤمن أن الله الخالق يقدس مخلوقاته التي أقسم الله بها ، وهي كما ذكر القرآن الكريم مرارا ، مسخرة طائعة لله ، لا تملك لنفسها ولا لغيرها ، نفعا ولا ضرا .

4- على أن القرآن الكريم قد يذكر الآيات الدالة ، ثم يقسم بالله سبحانه ، كأنه قد مهد بذكرها ، لبيان المراد من الاستدلال بها ، قال تعالى : (وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون . وفي السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) (الذاريات :20، 21 ، 22 ، 23) .

ومعنى هذا : أن الآيات المنبثه في الأرض وما عليها ، وفي النفوس وأحوالها وأسرارها ، وفي السماء ونجومها وسحبها ، كلها أدلة على وجود الله وقدرته ، ودلائل على صدق النبوة والبعث ، والقرآن ، ولهذا عقب بالقسم بذاته العلية ، وهذا القسم بالذات العلية مراد به التقديس ، لأنه بالله المعبود بحق ، ولأنه متضمن الاستدلال بما تدل عليه السماء والأرض من بينات على وجود الله تعالى ، وعلى صدق محمد –عليه الصلاة والسلام– .

5- ثم إذا رجعنا إلى الأقسام القرآنية وأجوبتها ، وجدنا ملاءمة بينهما ، وأدركنا أن المناسبة قوية بين القسم والمقسم به ، وهذا يعزز أنها أقسام استدلالية ، من ذلك مثلا : قول الله تعالى : (والضحى .والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى)(الضحى : 1، 2 ، 3 .) .أقسم – عز وجل –بآيتين عظيمتين من آياته وهما : الضحى ، والليل إذا سجى ، يقول السيوطي مجليا التلاؤم بين هذا القسم وجوابه : – (وتأمل مطابقة هذا القسم ، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد

---

[1] – الفخر الرازي :التفسير الكبير (مرجع سابق) ط3، تفيسر سورة الذاريات ص193–196.

احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه : ودع محمدا ربه ، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل ، على ضوء الوحي ونوره ، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه) [1]

ويمكننا أن نجمل أغراض القسم في القرآن الكريم فيما يلي :

1- تأكيد الخبر وتقريره ، وتلك عادة العرب الذين كانوا يقطعون كلامهم بالقسم ، لأن (القصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده) [2]. وهذا الغرض يظهر لنا إذا علمنا أن المقسم عليه كثيرا ما يكون من الأمور الخفية الغائبة ، فيقسم عليها لإثباتها ، مثل قوله تعالى : (لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة . أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوي بنانه) (القيامة : 1 ، 2 ، 3 ، 4) فالقسم في كلام الله (يزيل الشكوك ، ويحبط الشبهات ، ويقيم الحجة ، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم في أكمل صورة) [3].

2- لفت الأنظار إلى الكون وما يحويه من أسرار عجيبة ، وما فيه من نظام بديع محكم [4] ، إذ كل يجري إلى أجل مسمى ، وكل في فلك يسبحون ، فجاء القسم في القرآن الكريم على هذه الأمور لأجل ذلك .

3- إثبات صدق الرسول – ﷺ– إذ العرب كانت تعتقد أن الأيمان الكاذبة تدع الديار بلاقع ، وأنها تضر صاحبها . وقد كان إكثار النبي – ﷺ– من الحلف بأمر الله تعالى ، مثل قوله تعالى : (ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين) (يونس : 53) ، .وقوله تعالى (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم)(سبأ : 3) . ومع قسمه– ﷺ– لم يصب بسوء ما،بل ارتفع شأنه وعلا ذكره – ﷺ– ، فكان دليلا على صدقه .[5].

4- إبراز المعقول في صورة المحسوس ، وذلك أن الأمر المعقول إذا صور في شيء حسي ، فإن العقل يستوعبه ، أكثر ما لو كان مجردا عن الحس ، ومثله تشبيه الوحي بالضحى في رابعة النهار ، وتشبيه الباطل بالليل ، وانتصار الحق بالنهار ، إشارة إلى أن الليل البهيم ، لابد وأن يعقبه صبح مشرق بهيج ، يبدد ظلامه وظلماته ، وكذلك ظلام الشرك والجهل ، لابد وأن يعقبه نور الحق واليقين .

5- تصحيح العقائد الباطلة ، فالقسم بالنجم إذا هوى ، وبالكواكب ، وبالشمس ، والقمر ، فيه رد على من اعتقد أنها آلهة ، وأن لها تصرفا في العالم السفلي .

---

[1] – السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، ج4/ ص51.

[2] – السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، (مرجع سابق) ج2/ 132 .

[3] – مناع القطان : مباحث في علوم القرآن ، ص 291 .

[4] – انظر : د. عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن الكريم ، ص 267 .

[5] – انظر : د. عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن الكريم ، ص 267.

6- لفت الأنظار إلى أحداث بارزة ، كان لها أكبر الأثر في تاريخ البشر ، وذلك الغرض يظهر في القسم بالأمكنة مثل (الطور) ، فالقسم به فيه إشارة إلى ماكان عند ذلك الجبل من الآيات التي ظهرت لموسى -عليه السلام- ، والقسم بالبلد الأمين (وهذا البلد الأمين) فيه إشارة إلى حادثة ظهور النور المحمدي من هذا البلد الأمين ، ذلك النور الذي بدد ظلمات الجهل والضلال ، ثم شع في آفاق الدنيا وملأ جنباتها ، إلى آخر ما هنالك من أهداف وأغراض .[1]

الأمور المقسم عليها في القرآن الكريم

يمكن إجمال الأمور المقسم عليها في القرآن الكريم في أصول أربعة ، هي أسس الإيمان ، وهي :

الأول :- تثبيت أساس التوحيد .

الثاني :- تقرير أمر النبوة ، والإشادة بصدق الكتاب الحكيم .

الثالث:- إثبات الحياة الأخرى ، وما يتصل بها من حساب ، فثواب أو عقاب .

الرابع :- توضيح المهم من أحوال الإنسان وتصرفاته في هذه الحياة .

أما الأصل الأول وهو تثبيت أساس التوحيد : فيدخل تحت هذا الأصل قوله تعالى : (والصافات صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا . إن إلهكم لواحد)(الصافات : 1 ، 2 ، 3 ، 4) .

وأكثر المفسرين على أن المراد بالصافات ، والزاجرات ، والتاليات ، جماعة من الملائكة ، موصوفة بهذه الصفات ، وهو الأظهر والأرجح ..

فيكون المعنى : وحق الملائكة الذين يصفون أنفسهم صفا لعبادة الله تعالى وطاعته ، والذين يزجرون غيرهم عن ارتكاب المعاصي ، أو يزجرون السحاب إلى الجهات التي كلفهم الله بدفعه إليها ، والذين يتلون آيات الله المنزلة على أنبيائه، تقربا إليه ، وطاعة له .. إن ربكم أيها الناس لواحد لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، ولا في خلقه ..

ومما جاء في **الأصل الثاني** : وهو تقرير أمر النبوة ، والإشادة بصدق الكتاب الحكيم : قوله تعالى : - (يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين) (يس : 1، 2 ، 3) .

أقسم جل شأنه بالقرآن الحكيم ، المعجز في نظمه ، وبديع معانيه ، المتقن في تشريعه وأحكامه ، الذي بلغ أعلى طبقات البلاغة ، على أن محمدا - ﷺ- رسول من المرسلين ،والتأكيد بالقسم لشدة إنكارهم لرسالته .

---

[1] -د. سمير عبد العزيز : الكشف والبيان في علوم القرآن ، ص285-287. بتصرف واختصار . وانظر : د. عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن الكريم ، ص 268 . و أحمد أحمد بدوي : من بلاغة القرآن ، ص 170-173.

ومما جاء في **الأصل الثالث** : في إثبات الحياة الأخرى ، وما يتصل بها من حساب ، فثواب أو عقاب ، قوله تعالى : – (والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا . إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع .) (الذاريات : 1، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6)

أقسم الله –جل شأنه– بأمور أربعة على أن ما توعد به من البعث، وأمر الساعة حق ، وعلى أن الدين وهو الجزاء ، من ثواب أوعقاب ، واقع لا محالة ، فهو قسم على البعث ، وعلى الجزاء .

ومما جاء في الأصل الرابع ، وهو بيان أحوال الإنسان وتصرفاته المختلفة :

قوله تعالى : – (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) (سورة التين : 1، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6.)

والمقسم عليه في هذه السورة يتكون من أمور ثلاثة :

أ: – دليل من أدلة القدرة الإلهية على البعث ، والجزاء ، وهو قوله تعالى : (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم).

ب: – وعيد صارم شديد ، وهو قوله تعالى : (ثم رددناه أسفل سافلين) وأسفل سافلين : النار على الصحيح ، أو هو سجين موضع الفجار، كما أن عليين موضع الأبرار .

ورددناه : معناه ونرده ، فعبر بالماضي موضع المضارع المستقبل ، إيذانا بأن الرد أسفل سافلين واقع لا محالة ، وتشبيها للمستقبل المحقق وقوعه ، بالماضي الواقع فعلا .

ج : – وعد حسن ، وهو قوله تعالى : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون)(سورة التين : آية / 6 .) أي: مقطوع . والقسم في هذه السورة أكثر انصبابا على الأمرين الأخيرين ، أي : على الوعد والوعيد

قال المفسرون [1] : – أراد بالتين والزيتون : المكان الذي كثر شجرها فيه ، على سبيل التجوز ، عبر بالحال وهو التين والزيتون ، وأراد المحل ، وهو الأرض المقدسة ، التي ظهر فيها عيسى –عليه السلام– .وقالوا : إن هذا المعنى هو الذي يتناسب مع طور سينين ، ومع البلد الأمين ، والتعبير بالحال عن المحل مألوف في الكلام العربي ،

قال تعالى : (وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون)(سورة آل عمران : آية /107.) أي : ففي جنته التي تحل فيها الرحمة .

وعلى هذا يكون الله قد أقسم على خلق الإنسان وتعذيبه وإثابته بأمكنة ثلاثة ، هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام المعروفة ، أقسم بأرض بيت المقدس مظهر رسوله وكلمته وروحه –عيسى بن مريم– وفيها نزل الإنجيل عليه ، ثم أقسم بالجبل الذي كلم الله موسى عليه تكليما ، وناداه من جانب الطور الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة التي فيه ،

---

[1] – انظر : الألوسي: روح المعاني ، ج30/ ص 221–223. و اسماعيل بن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج4 / ص 526 .

أن اذهب إلى فرعون إنه طغى ، ثم أقسم بالبلد الأمين مظهر خاتم الأنبياء والمرسلين ، فتدرج من التين والزيتون ، إلى طور سينين ، إلى بلد الله الأمين ، فختم بموطن الرسالة الخاتمة ، أشرف الرسالات . [1]

أقسم بهذه الأمكنة الثلاثة التي هي مهبط الوحي والرسالة ، على أن ما سيلاقيه من ثواب أو عقاب ، إنما هو نتيجة إيمانه ، أو كفره وطغيانه ، بعد أن أرسل رسلا مبشرين ومنذرين .

وكأنه جل شأنه يقول : (هأنذا قد أرسلت لكم الرسل ، فأناروا لكم الطريق ، وميزوا لكم الرشد من الغي ، فإن عصيتم فلكم أسفل سافلين ، وإن أطعتم فلكم أجر غير ممنون) [2]

ويمكننا القول : إن الله تعالى أقسم بالشمس ، والقمر ، والنجوم ، والليل ، والنهار ، والبحر ، والعصر ، والسحاب ، والنفس ، والملائكة ، وغيرها من المخلوقات ، وكلها آيات دالة على قدرته ، ووحدانيته ، وكماله ، وقد ذكرها في مواضع مختلفة من كتابه بغير أسلوب القسم .

بلاغة القسم القرآني :

بعد هذا الإيجاز يجدر بنا أن نتعرف على ما في أسلوب القسم من وجوه البلاغة ، لتكتمل النظرة ، وتتم الفكرة .

1- يمتاز أسلوب القسم بإيجازه ، ولهذا يهجم على السامع ، فيمتلك مشاعره ، ولعل العرب أكثروا منه ، وأفتتنوا فيه لوجازته ، وهم إلى الإيجاز أميل في شعرهم ونثرهم ، ومن هنا راجت الأمثال بينهم وشاعت ، وذاعت الحكم والتوقيعات فيما بعد العصر الجاهلي ، وتسابقوا إلى تجديدها ، والاحتفاظ بها .

2- القسم ضرب من الأسلوب الإنشائي ، لا مناص للخصم من الإقرار به ، ولا وجه له في إنكاره ، فإن شاء أن ينكر ، انصب إنكاره على جواب القسم ، لا على القسم نفسه ، لأن الجواب خبر [3] لا إنشاء [4] .

3- قد يحذف جواب القسم في القرآن ، وهو المقسم عليه ، فينتقل بعد القسم إلى كلام آخر ، لكنه مرتبط بالجواب المحذوف . والسر في هذا أنه يسد على المخاطب المنكر طريق الفرار ، فلا ينتقل من القسم وهو إنشاء ، إلى الجواب وهو خبر ، لئلا يجاري المنكر في الجواب ، ثم ليكون القسم كالتمهيد والتنبيه ، فيسترعي سمع المخاطب ، فيرهف أذنيه ليستمع ما بعد القسم ، فإذا به يسمع ما يؤيد الاستدلال المقصود من القسم نفسه ، كقوله تعالى : (ص والقرآن ذي الذكر

---

[1] - انظر : د. فاضل السامرائي : التعبير القرآني ، ص 299-309 .

[2] - ابن قيم الجوزية : التبيان في أقسام القرآن ، (مرجع سابق) ص43-54.

[3] - الخبر : هو ما احتمل الصدق والكذب لذاته ، أي : لذات الخبر نفسه . وهذا بالطبع يخرج ما كان صادقا قطعا ، وما كان كاذبا قطعا . انظر : فضل حسن عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، مبحث الخبر ، ص99 وما بعدها

[4] - الإنشاء : ما لا يحتمل صدقا ولا كذبا . وهو قسمان : طلبي ، وغير طلبي . انظر : فضل حسن عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، (مرجع سابق) مبحث الإنشاء ، ص147 وما بعدها .

بل الذين كفروا في عزة وشقاق) (سورة ص : الآيتان /1، 2 .)، فأقسم بحرف من حروف الهجاء التي يتكون منها القرآن ، على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز ، وأتبعه بالقسم بالقرآن ، وحذف الجواب لدلالة التحدي عليه ، كأنه قال: والقرآن ذي الذكر إنه كلام معجز ، ولكن الكفار استكبروا ولم يذعنوا إليه ، فعارضوا الرسول وكذبوه .أو كأنه قال : أقسم بالقرآن ذي الشرف العظيم ، إنك لصادق فيما تبلغ عن ربك ، ولكن الكفار استكبروا ولم يذعنوا للحق ، وأصروا على العناد . أو أقسم بالقرآن أن الأمر ليس كما يزعم هؤلاء الكفار ، بل هم في استكبار ومخالفة ، وعداوة لمحمد- ﷺ- .

4- يشرك القسم الإستدلالي السامع في استنباط الدليل ، ويخفف من عناده وخصامه ، فيشعر أنه تعرف وتأمل، ولهذا كانت الأساليب الإنشائية كلها أكثر اجتذابا من الأساليب الخبرية . وهذا هو السبب في أن الحاذق اللبق ينوع أساليبه ، ويراوح بين الإنشاء والخبر ، لينشط المخاطب ، ويشركه في الفهم ، والبحث ، والاستنباط ، حتى ليتوهم أنه هو الذي اهتدى إلى الحق بنفسه .

ومن ضروب بلاغة القسم أنه تقديم لتوثيق الصدق قبل ذكر الدعوى، لأنه يقرع أذني المخاطب ، فيصغي ويترقب ما بعده ، ثم تجيء الدعوى فيسهل قياده لها ، ولكنه إذا فوجئ بالدعوى التي ينكرها ، انصرف عنها ونفر منها . وشتان ما بين قولك : (ما أنت بنعمة ربك بمجنون . أقسم بالقلم وما يسطرون) ، وقوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون)(- سورة القلم : الآيتان /1، 2).. فسبحان من نفى عن رسوله - ﷺ- التهمة قبل حكايتها .

الأمثال في القرآن الكريم

خصائصها التربوية .. وسماتها البيانية

تمهيد :

المثل : أسلوبٌ بيانيٌ بليغٌ يُعبرُ عن خَلَجات النفس، وكَوامِنِ الحِس، ويُبرز المعقول في صورة مُحَسَّة ، ويكشف عن الحقائق التي يَدِق فهمها ، ويَعرِضُ الغائب في معرض الحاضر . وهو من أهم الأساليب البيانية المُقنعة للعقل ، والمُمتعة للأذن، والمؤثرة في الوِجدان ، وهو من أجل ذلك حفرُ له في الذهن مكاناً ، ويبقى في الذاكرة فلا يُنسى . لذلك أَكثرَ الله من ضرب الأمثال في القرآن الكريم ، بإبراز الحقائق السامية في معانيها ، وأهدافها وصورتها الرائعة ، بصياغتها في قالب حِسِيّ يُقربها إلى الأفهام لتتعظ وتعتبر، فالأمور الحسية واضحة الإدراك ، أما الأمور العقلية فهي خفية تحتاج إلى توضيح وبيان ، فلأجل ذلك ضربت الأمثال ، لينجلي للنفس المعنى ، وتَأنَسَ به ، وتتبينه فَضلَ تبيين . فكان هذا البحث لإلقاء الضوء على الأمثال في القرآن ، وبيان خصائصها التربوية ، وأغراضها ، وسِماتها البيانية .

وتُعَدُّ الأمثال من الفنون الأدبية، وقد اتسعت صدور المعاجم العربية القديمة لذكرها وضبطها وتفسيرها. وكذلك أُلِّفت في جمعها وتفسيرها وبيان مواردها وأُصولها طائفة من الكتب،أشهرها : جمهرة الأمثال لأبي هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت 395هـ) ، ومجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد الميداني (ت 518هـ) ، والمستقصى لأبي القاسم جار الله الزمخشري(ت 538هـ)،وغيرها .

والأمثال القرآنية مظهرٌ من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم ، لما بلغته من براعة التصوير ، ودقة التعبير ، ولتناولها كل ما من شأنه أن ينير للإنسان طريقه في الحياة ، ويبدد أمامه ظلمات الجهل والضلال .

ومن دلائل أهمية الأمثال القرآنية أن الله جعل فهمها واستيعابها ، والإحاطة بأسرارها منوطا بأهل العلم ، قال تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)(العنكبوت : 43) . فالأمثال القرآنية لا يعقلها إلا العالمون ، وفي الآية حث لطلبة العلم على معرفتها ، وتعلمها ، وتعريض بمن لا يعلم أمثال القرآن حتى لا يكون من الجاهلين .

المثل في اللغة :-

ذكر اللغويون للفظ المَثَل عدة معاني مختلفة ، كالشبه ، والنظير ، والصفة ، والعبرة ، وما يُجعَلُ مِثالا لغيره يُحذى عليه .([1]) قال الفيروز آبادي ، محمد بن يعقوب (ت816هـ) : المِثل – بكسر الميم وتحريكها –الشبه ، والجمع أمثال ، والمَثَلُ :– مُحَرَّكة – الحُجَّة ، والمثال ، والمقدار ، والقصاص ، إلى غير ذلك من المعاني .([2])

وقال ابن فارس (ت395هـ): المِثل بالكسر ، والمَثل بالفتح يدلان على معنى واحد ، وهو : كون الشيء نظيراً للشيء ، وهذا مثل هذا أي : نظيره . والمثل والمثال بمعنى واحد ، وربما قالوا : مثيل كشبيه . ([3])والمثال : مقابلة شيء بشيء فهو نظيره . ([4]) وللأمثال في القرآن معان أُخَر غير معنى الشبه والنظير ..

ومن هذه المعاني :

- **الصفة** : كما في قوله تعالى : (مثل الجنة التي وعد المتقون) (محمد : 15)،أي : صفتها وشأنها .
- **والقصة** : كما في قوله تعالى :(واضرب لهم مثلا رجلين) (الكهف : 32) أي: قصة الرجلين .
- **والآية** : كما في قوله تعالى :(إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل)(الزخرف : 59) أي : أن عيسى – عليه السلام –ما هو إلا عبد أنعم الله عليه ، وجعله آية دالة على عظيم قدرته
- **والعظة والعبرة** : كما في قوله تعالى : (فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين)(الزخرف: 56) ،
- **والحال والشأن** : كما في قوله تعالى : (ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم)(النحل : 60)

وقد يأتي المثل على أَصلِهِ ، كما في قوله تعالى : (وكُلاً ضربنا له الأمثال وكُلاً تبرنا تتبيرا) (الفرقان : 39.). أي : ما سيق في القرآن من حديث ومثل يتعلق بالمواعظ أو القصص ، أو أخبار الأمم الماضية ، كل هذه الأمثال المضروبة

---

[1] – لسان العرب : ج11: ص 22.

[2] – القاموس المحيط: ج4. ص 49.

[3] – مقاييس اللغة : ح2: ص 495–498.

[4] – المفردات في غريب القرآن: ص 462.

إنما عنى بها نتيجتها وعاقبتها ، وهي ما حاق بالأمم الغابرة ممن سبقت أخبارهم ، وضربت بهم الأمثال ، ونتيجة ذلك ما نزل بهم من عذاب .([1])

المطلب الثاني : المَثَلُ في الاصطلاح :

يَرِدُ المَثَلُ في واقعةٍ لمناسبة اقتضت وُرودُهُ فيها، ثمّ يتداوله الناس في غير واحدة من الوقائع التي تُشابِهُها ، دون أدنى تغييرٍ لما فيه من وَجازةٍ ، وغَرابةٍ ، ودِقةٍ في التصوير.

قال ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن اسحق: (ت 243هـ) : " المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ، شبّهوه بالمثال الذي يعمل عليه غيره." ([2])

والكلمة الحكيمة على قسمين: كلمة سائرة منتشرة بين الناس ودارجة على الألسن فهي المثل ، وإلا فهي كلمة حكيمة لها قيمتها الخاصة ، وإن لم تكن سائرة ([3]) .

فالانتشارُ والتداولُ داخل في مفهوم المثل، ويظهر ذلك من قول أبي هلال العسكري الحسين بن عبد الله (ت 395هـ): حيث جعل كل حكمة سائرة، مَثَلاً ، ثم قال : " وقد يأتي القائل بما يحسن من الكلام أن يُتَمثَلَ به ، إلاّ أنّه لا يتفق أن يسير فلا يكون مَثَلاً." ([4])

وكلامه هذا يَنِم عن أنّ الشيوع والانتشار ، وكثرة الدوران على الألسنة ، هو الفارقُ بين الحكمة والمثل، فالقولُ الصائب الصادر عن تجربة يسمّى حكمة ، إذا لم يُتداوَل ، ومثلاً إذا كثر استعمالُه ، وشاعَ أداؤه في المناسبات المختلفة .

ولأجل ذلك يقول الشاعر:

ما أنت إلا مَثَلٌ سائرٌ .....يعرفُهُ الجاهلُ والخابرُ

وقد دلّت غير واحدة من الآيات القرآنية على أنّ القرآن مشتمل على الأمثال، وأنّه سبحانه ضرب بها مثلاً للناس ، للتفكير والعبرة، قال سبحانه : (لَوْ أَنْزَلْنا هذا الْقُرآنَ عَلى جَبلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصدّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفكَّرون) (الحشر:21). إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على وجود الأمثال في القرآن، وأنّ الروح الأمين نزل

---

[1] – انظر أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز : ص 207.

[2] – مجمع الأمثال : ج1: 6 ، وانظر : الأمثال في القرآن الكريم : ص7.

[3] – انظر : الأمثال في القرآن الكريم : ص 10.

[4] – جمهرة الأمثال : ج1/5.

بها، وكان مَثَلا حين النزول على قلب سيد المرسلين .ومن جانب آخر **فالمثل** : قول مَحكِيّ سائر ، يُقصد منه تشبيه حال الذي حُكي بحال الذي قيل لأجله .

يقول المبرّد ، محمد بن يزيد (ت 285هـ) : فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأوّل، كقول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا ... وما مواعيدها إلا الأباطيل

فمواعيد عرقوب ، علم لكل ما لا يصح من المواعيد .([1])

وكقول العرب : " رُبَّ رميةٍ من غير رامٍ " أي رب إصابةِ هَدَفٍ حَصَلت من رامٍ شأنه أن يُخطِئ ، فهذا المثل وُضع في أصله لمعنى معين ، ويجوز أن يُقال ويُتمثل به في كل حال تشبه الحالة الأصلية الأولى .

والمثل في القرآن ليس من قبيل المثل الإصطلاحي ، بل هو نوع آخر سماه القرآن مثلا ، من قبل أن تَعرِفَ علوم الأدب المثل ، ومن قبل أن تُسَمي به نوعاً من الكلام المنثور ، وتضع مُصطلحاً له ، بل من قبل أن يُعَرِّف الأُدباءُ المَثَلَ بتعريفهم ([2]).وهذا ما ذهب إليه الشيخ مناع القطان حيث يقول : " أمثال القرآن لا يستقيم حَملُها على أصل المعنى اللغوي ، الذي هو الشبيه والنظير ، ولا يستقيم حملها على ما يُذكَر في كتب اللغة لدى من ألفوا في الأمثال ، إذ ليست أمثال القرآن أقوالا استعملت على وَجهِ تَشبيهِ مضربها بموردها ، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان." ([3]) وامتازت صيغة المثل القرآني بأنها لم تنتقل عن حادثة معينة أو واقعة مُتخيلة ، وإنما ابتدع المثل القرآني ابتداعا ، دون حَذوٍ احتذاه ، وبلا مورد سبقه ، فهو تعبيرٌ فَنّي جديد ابتكره القرآن لإبراز المعنى في صورة رائعة موجزة ، لها وَقعُهَا في النفس ، سواء أكانت تشبيهاً أم قولاً مرسلا . ([4])

والمثل أسلوبٌ بيانيٌّ يجمع في طياته نماذج حسية مستمدة من الواقع المشاهد ، لتكون هذه النماذج أقيسةً عامة للحقائق المجردة ، أو للأمور التي لا تقع تحت الحِسّ والإدراك في الدنيا ، والتي يترتب عليها أحكام شمولية ، وينبني عليها صلاحُ أمر الناس في الدنيا والآخرة . ولتقريب ما يستعصي على العقول فهمه من الأمور العينية ، كصفة الجهة ، وكيفية زوال الدنيا ، أو من المعاني التي لم تستطع الإفهامُ سَبرَ غورها ، وتشخيصِ فحواها إلا بتقريبها تنظيراً وتمثيلاً ، لتستوعبها العقول. علاوة على أنه سبيل من سبل القرآن إلى العظة والهداية، ووسيلة من وسائله الكثيرة الهادفة إلى هذا المثل الأعلى

---

[1] – مجمع الأمثال: ج1: 6 .

[2] – الصورة الفنية في المثل القرآني دراسة نقدية وبلاغية: ص 68 .

[3] – انظر: الأمثال في القرآن، ص :18. ومباحث في علوم القرآن: ص 283.

[4] – انظر : مباحث في علوم القرآن : ص 283 .

ويقدم ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت 751هـ) ، تعريفا للمثل في اصطلاح القرآن فيقول : " هو تشبيه شيء بشيء في حكمه ، لتقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسين إلى الآخر ، أواعتبار أحدهما بالآخر ، لغرض التأديب والتهذيب ، أو التوضيح والتصوير " . ([1]) ويعرفه الشيخ مناع القطان فيقول هو : " إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة ، لها وَقعُها في النفس ، سواء أكانت تشبيها أو قولا مرسلا . " ([2])

أنواع المثل القرآني :

يجد الباحث في مصنفات علوم القرآن ، ومراجع الأدب ، تقسيماً للمثل القرآني فيه كثيرٌ من المناقشة ، فالزركشي (ت 794هـ) والسيوطي (ت 911هـ) يقسمان المثل القرآني إلى قسمين هما :

المثل الصريح ، والمثل الكامن ، وأضاف جماعة من الأعلام قسماً ثالثاً هو :

الألفاظ الجارية مجرى الأمثال ([3])، **وعلى هذا فالأقسام المُدَّعاة ثلاثة ، وهي** :-

أ- الأمثال الصريحة ، وهي الأمثال الظاهرة .

ب- الأمثال الكامنة ، وهي التي لا ذكر للمثل فيها.

ت- الألفاظ الجارية مجرى الأمثال .([4])

أ-الأمثال الظاهرة الصريحة :

وهي التي صرح فيها بلفظ المثل ، وهي كثيرة في القرآن الكريم ، كقوله تعالى في وصف المنافقين : [مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ . أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .] (البقرة : 17–20) فهذا المثل يصور حالة المنافقين العجيبة ، الذين استحبوا العمى على الهُدى ، بعدما اتَّضح لهم الأمرُ وتَبينوه . فبعدما اتضحت لهم معالم الهدى والرشاد ، أَبَوا إلاّ الكفر والعناد .

---

[1] – أمثال القرآن : ص 13.

[2] – مناع القطان ، مباحث في علوم القرآن : ص 283.

[3] – انظر : د. محمد حسين علي الصغير ، ص: 105. وانظر: خاص الخاص ، ص: 11–29. و البرهان في علوم القرآن : ج1 : ص 486. والإتقان : 2: 39، والأمثال في القرآن الكريم: ص 201–212.

[4] – انظر : الصورة الفنية في المثل القرآني : ص 105

هذه الحالة هي حالة من استوقد نارا ، فبدلا من أن يستفيد بضوئها إذا به لم ينتفع ، بل ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . وإذا كانت الآذان ، والألسنة ، والأعين ، لتلقي الهدى والانتفاع به ، فإن هؤلاء قد عطلوا هذه الحواس ، فهم صُمَ لا يسمعون ، بُكمٌ لا ينطقون ، عُميٌ لا يُبصرون ، فلا رَجعَةَ لهم إلى الحق ، ولا أَوبةَ لهم إلى الهدى ، ولا هِدايةَ لَهم إلى النور .([1]) أو كقوله تعالى :(وحورٌ عين كأمثال اللؤلؤ المكنون).(الواقعة : 23.)

ومن الأمثال الظاهرة كذلك : تلك التي صرح فيها بالتشبيه ، سواء أكان ذلك بكاف التشبيه أو غيرها من الأدوات الدالة على التشبيه ، كقوله تعالى : (فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حُمُرٌ مستنفرة) . (المدثر : 50.)

ويدخلُ في هذا النوع أمثال لا أداة فيها للتشبيه والتمثيل ، لكن معنى الآية يدل على أنه مَثَلٌ ظاهر، منه قوله تعالى: (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه..الآية)(الحجرات : 12.) .

ب- الأمثال الكامنة : وهي تلك الأمثال التي لا تدل على النشبيه ، ولا تستخدم أدواته ، ولا تدل كذلك على القياس ، وإنما هي أشبهُ بالأمثال السائرة ، التي تتضمن كلاما موجزا وحِكَماً سائرة ، لذا يُطلق عليها بعض الكتاب تسمية : الأمثال السائرة في القرآن ، وتدل على معانٍ رائعة موجزة . ([2]) ويمثلون لهذا النوع من الأمثال بما رواه أبو الحسن إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم قال : سمعت أبي يقول : سألت الحسن بن الفضل ، فقلت : إنك تُخرِجُ أمثال العرب والعجم من القرآن ، فهل تجد في كتاب الله : خير الأمور أوساطها ..؟ قال : نعم ، في أربعة مواضع، في قوله تعالى : (لا فارض ولا بكرعوان بين ذلك)(البقرة: 68.). وقوله تعالى : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) . (الفرقان : 67.) وقوله تعالى : (ولا تحعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا).( )

وقوله تعالى : ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا).(الإسراء : 29.)

قلت : فهل تجد : ككما تدين تدان ..؟

قال : في قوله تعالى : (من يعمل سوءًا يُجزَ به)([3])،وقد أورد السيوطي طائفة منها.(النساء : 123.)

ج - الأمثال المُرسَلَة :

وهي جُمَلٌ أُرسلت إرسالاً من غير تصريحٍ بلفظ التشبيه ، وكَثُرَ التمثل بها ، لما فيها من العبرة والعظة والإقناع . ويصح استعمالها فيما يُشبه ما وردت فيه . وقد اكتسبت صفة المَثَلِيَّة بعد نزول القرآن الكريم ، وشيوعها في المسلمين

---

[1] – انظر: أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز : ص216.

[2] – انظر : مباحث في علوم القرآن : 2 284.

ولم تكن أمثالاً في وقت نزوله ، وهي في جملتها مبادىء خلقية ، ودينية مركزة .
منها على سبيل المثال ، قوله :

– الآن حصحص الحق . (يوسف: 51.)
وقوله :– ذلك بما قدمت يداك . (الحج : 10 .)
وقوله : – قضي الأمر الذي فيه تستفتيان .(يوسف: 41.)
وقوله:– أليس الصبح بقريب .(هود : 81.)
وقوله: – لكل نبأ مستقر .(الأنعام : 67.)
وقوله:– ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله (فاطر : 43.).
– كل حزب بما لديهم فرحون (المؤمنون : 53.).
وقوله: – ما على الرسول إلا البلاغ(المائدة : 99.).
وقوله : – تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى (الحشر:14.). وغيرها .

إن هذه الأمثال عنوانٌ على إعجاز القرآن ، وشاهدٌ قائمٌ على قوله تعالى : (ما فرطنا في الكتاب من شيء) (الأنعام : 38.)، وقوله تعالى : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون .قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون) (الزمر : 27، 28).

مع العلم بأن الشروط التي يجب توافُرها في المثل قد انطبقت عليها ، من إصابة المعنى ، وإيجاز اللفظ ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية .([1]) كما ينبغي أن لا يفوتنا بأن هذه المقاييس التي وُضِعَت للمثل ، لا ينبغي أن نجعلها الميزان الذي نُخضِع له آياتِ الكتاب العزيز ، ما دامَ أن هذه الآيات قد شاعت ، وَجَرَت مجرى الأمثال ، فضلاً على أن ما في الآيات السابقة من سُمُوّ التعبير القرآني الذي يدل على مدى هذا الفارق الهائل بين ما يمكن أن يكونَ في كلامِ الناس ، وهذا الإعجاز البين في كلامِ الله رب العالمين . ([2])

وللمثلِ القرآني شخصيةٌ مترابطة ،وهذه الشخصية البيانية لم يُسبَق إليها في بابها ، ولم يستطع أحدٌ أن يَنسِجَ على مِنوالها، وهي بَعدُ أَلَقٌ من شُعاعِ القرآن ، وقَبَسٌ من لمحاته ، أودعها الله بحكمته في كتابه الكريم .([3])

---

[1] – انظر : أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز البياني : ص 212.

[2] – انظر: أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز البياني : ص 219.

[3]– انظر: الصورة الفنية في المثل القرآني ص 129 .

الأمثال القرآنية تُبرِزُ صورة المعقول في صورة المحسوس:

يرى الشيخ مناع القطان أن الأمثال تُبرِزُ صورة المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس ، فيتقبله العقل ، لأن المعاني العقلية لا تستقر في الذهن ، إلا إذا صِيغت في صورة حسية ، قريبة للفهم . ([1])

والأمثال الحسية لتقريب المعاني الغيبية للمخاطب كثيرة في القرآن الكريم ، أما الأمثال المعنوية فهي قليلة جدا ، وهذه بعض الشواهد من الأمثال القرآنية على ذلك .

الشاهد الأول : (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون)(الواقعة : 22 – 23.) يُحدثنا الله تبارك وتعالى عن الحور العين، وهي ذوات صور يمكن أن تدرك بالحِسِّ الظاهر في الجنة، ولكنهن الآن مجهولات لنا، بعيداتٍ عن إدراكنا الحسي وعن تصورا تنا الخيالية، فيقرب الله لنا طرفا من صُوَرِ لَونِ بشرتهن ونعومتها وجمالها، بتمثيلها باللؤلؤ المكنون، وهو شيء معروف عندنا في هذه الدنيا، ومعلومٌ جَمالُه، وسلبه للعقول من شدة روعته.

الشاهد الثاني: (خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر)(القمر: 7) هذا الشاهد مثالٌ تقريبيٌ لما يجري من أحداث عند قيام الساعة، وتغير نظام الكون القائم الآن، فمشاهد يوم القيامة تختلف عن ما نشاهده ونعرفه اليوم، لذلك يمثل الله لنا خروج الناس يوم القيامة من قبورهم بالجراد المنتشر، في كثرتهم ، وتجمعهم ، وتتابعهم وتدافعهم في كل مكان.

الشاهد الثالث : (كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر)(القمر: 18-20.)

وعن ثمود قال سبحانه :(فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية)(الحاقة : 7.)

فقوم عاد وثمود عاشوا قبلنا ولم نشاهد بحواسنا كيف عاقبهم الله، فضرب الله لنا هذين المثلين ليقرب إلينا نوع العذاب الذي عوقبوا به، فيمثل للناس الذين تنزعهم الريح وترمي بهم في كل مكان، بأصول النخل المنخلع من الأرض والمتطاير في كل مكان، ويصور أولئك الناس بعد أن بليت أجوافهم بصورة أعجاز النخل الخاوية الفارغة الجوفاء، فأحضرَ الله تعالى بالمَثلين صور الزمن الماضي، كأن ذلك العقاب الغابر يجري اليوم أمام أعيننا.

الشاهد الرابع : (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) (الحج: 31.) فالشرك بالله أمر معنوي، والمشرك عندما يقترف شركه يسقط من المرتبة العالية التي وضعها الله للمؤمنين، فيعيش هذا المشرك في اضطراب وقلق وعدم طمأنينة، فيمثل الله لهذه الحالة بمن يخر من السماء فتخطفه الطير، وهو

---

[1] – انظر : مباحث في علوم القرآن ، ص 255.

تصوير لحالة التمزق النفسي الذي يعتري المشرك، فهو تقريب لصورة الحالة النفسية للمشرك، الذي هو أشبه بمن يقع من السماء فتخطفه الطير أو تهوي الريح به في مكان سحيق، وهي كناية على أن المؤمن يرفعه إلى المكانة العالية في الجنة بدل قعر جهنم السحيق المعد للكافرين.

الشاهد الخامس : (فمن يرد أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله .يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء) (الأنعام : 125.) .

يمثل الله ضيق الصدر وهو أمر معنوي، الذي يصيب الكفار حينما يدعون إلى الإسلام، بضيق الصدر الذي يحصل للمتسلق إلى الأعلى في الجبال أو الطائرة، إذ تتناقص كمية الأكسجين اللازمة والكافية للتنفس، فضيق صدر المتسلق يكاد يخنقه، كذلك الكافر الذي تحجزه أهواءه وبدعه وكفره عن انشراح الصدر، مما يسبب له ضيق الصدر.

الشاهد السادس: (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد) (إبراهيم : 18). يصور الله في هذا المثل أعمال الكفار في مقاومة رسل الله ومحاربة دينه، بالرماد المتجمع في مكان ما، لكن لا تماسك بين ذراته، وهو خفيف جدا، فاشتدت به الريح في يوم عاصف فنسفت ذلك الرماد وبددته في كل مكان، حتى لم يعد له قوام ووجود حقيقي، كذلك أعمال الكافرين في مواجهة الرسول وأولياء الله فهي كالرماد متفرقة مشتتة في كل مكان، ويوم القيامة يجعل تلك الأعمال هباء منثورا، وهي كناية على أن أعمال الكافرين لا تقوى على مقاومة قدرة الله وقوته .

الشاهد السابع : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه....) (النور : 39 .) . يصور الله لنا أعمال أهل الكفر، والتي يظنون أنها تفيدهم، بأنها مثل السراب في صحراء قاحلة، تظهر من بعيد للظمآن ماء ترويه، لكنه إذا اقترب منها لم يجدها شيئاً، فتخدعه من بعيد Kوعند الحاجة تنكشف له الحقيقة، بأنها مجرد سراب لا يُسمن ولا يغني من جوع، كذلك الكفار يظنون أن أعمالهم في الدنيا تغنيهم شيئا يوم القيامة، لكن هذا الزعم الخادع ينكشف لهم يوم القيامة. وهناك أغراض تربوية عديدة للأمثال ، منها : شحذ الذهن واستثارته ، للتفكير ، والقياس ، والتأمل ، وغيرذلك من العمليات الفكرية والذهنية التي يُثيرها المثل بقصد الإقناع بصحة رسالة الإسلام ، وصدق الرسول – صلى الله عليه وسلم – .([1])

---

[1] – انظر :المدلولات التربوية للأمثال القرآنية: ص4–53.(بتصرف) وانظر : الأمثال القرآنية، دراسة تحليلية : ص 38–49. والتربية بالأمثال القرآنية ،ص: 30–37. و ضرب الأمثال في القرآن : ص 64–77.

خصائص المثل القرآني وسماته البلاغية :

المثل في كلام الناس قولٌ بليغ ، يُرسِلُهُ حكيم ، أو يجري على لسانِ واحدٍ من الناس بقصدٍ أو بغير قصد ، فيقعُ منهم موقع الغَرابة ، والإستحسان ، لمطابقته للقضية التي قيل فيها ، أو للشأن الذي أُريد تصويره بإيجاز بليغ ، فيحفرُ له في أذهانهم مكاناً يظل ماثلاً فيه ، يُذكَرُ كلما وقع ما يشبه مورده .

وكما يختلف تعريف المثل القرآني عن المثل الشعبي أو الثقافي ، يتميز المثل القرآني عن غيره ، وعن الأساليب البيانية عموماً ، بخصائص فنية وسِماتٍ بلاغية كثيرة ، جمعها القرآن الكريم في أمثاله، فكانت في الذِّروَةِ العليا من البلاغة ، ودِقَةِ التصوير ، وجَلالِ التَّعبير ، والتأثيرِ في القلوبِ والعقول . ومن عقل الأمثال سَماهُ الله تعالى في كتابه : عالماً ، لقوله عز من قائل : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) (العنكبوت : 43.) . ومن هنا تعددت الأمثال في القرآن ، مع حِرصِ القرآن على تكرارِها . ولنأخذ مثلاً قرآنيا تتفوق سماته البيانية على شبيهه من أمثال العرب ، وكان هذا المثل بالذات قد أثار جَدَلاً في حينه ، من على صفحات جريدة البلاغ المصرية ، وكوكب الشرق ، حيث كتب الصحفي " حسن القاياتي " موازنة بين قول العرب في المثل : " القتل أنفى للقتل " وقوله تعالى : " ولكم في القصاص حياة (البقرة : 179.).." فكتب يومها الامام : "مصطفى صادق الرافعي " مقالة من عيون مقالاته ،تحت عنوان : " كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة " نشرتها صحيفة البلاغ في صَفحتها الأدبية ، وقد بين فيها أن الآية الكريمة أبلغ من المثل الجاهلي بثلاثة عشر وجهاً . ([1]) – وَجَلَّ كلام الله تعالى عن أن يعقد بينه وبين كلام الناس مُعادلة ، أو مُفاضلة ، أو مُوازنة – ، وأين قولهم في المثل : (القتلُ أنفى للقتل) ، من قول الله تعالى : (ولكم في القصاص حياة). فقد تفوق قول الله تعالى على ما قاله أولئك العرب في كثير من الوجوه البيانية ، ذكر بعضها الألوسي ، والرازي ، وصاحب المنار وغيرهم من المفسرين في تفسيرهم للآية في سورة البقرة ، وكل ۤۤ ما عَدُّوهُ من وجوه البيان بالغاً ما بلغ ، لا يساوي مما لم يذكروه قطرة من بحر ، وكان مما ذكره المفسرون من الوجوه :

أولها :– إن حروف المثل في الآية أقل ، وكلما قَلَّت الحروف ، وكَثُرَت المعاني ، كان ذلك أبلغ في الإيجاز

ثانيهما :– إن قولهم (القتل أنفى للقتل) ، ظاهِرُهُ يقتضي كون الشيء سبباً لإنتفاء نفسه وهو محال ، بخلاف الآية ، فإن القصد منها متضمن لضده وهو الحياة .

ثالثهما :– إن قولهم فيه تكريرٌ للفظ القتل ، وليس في الآية تكرير .

رابعها :– إن قولهم لا يفيد إلا الرَّدع عن القتل ، والآية تفيد الردع عن القتل ، والجَرحِ وغيره ، فهي أجمع للفوائد .

---

[1] – انظر مقال الرافعي في كتابه وحي القلم : ح3 ص 463–478. وانظر: حياة الرافعي: ص 212.

خامسها :- إن نفي القتل في قولهم مطلوب تبعاً ، من حيث أنه يتضمن حصول الحياة ، وأما الآية فإنها دالة على حصول الحياة وهو مقصود أصلي فكان هذا أولى .

سادسها :- إن القتل ظُلماً قَتل ، مع أنه لا يكون نافياً للقتل ، بل هو سبب لزيادة القتل ، وأما النافي لوقوع القتل المخصوص وهو القصاص ، فظاهرُ قولهم باطل ، وأما الآية فهي صحيحة ظاهراً وتقديراً ، فظهر التفاوت بين الآية وبين كلام العرب

سابعها :- ما في الآية من عُذوبةِ اللَّفظ وسلاسته ، ما يدعو الى قبول ما فيها من تشريع ببشاشةٍ واستبشار ، بخلاف قولهم : - (القتل أنفى للقتل) فإنه يُشعِرُ ببشاعةِ الوسيلة التي تحفظ عليهم الحياة ، فلا تجعلهم يميلون الى ما يحتويه المثل من دعوة الى حقن الدماء ، بِسفكِ الدِّماءِ قصاصاً ، (وفي الآية من براعةِ العبارة ، وبلاغةِ القول ، ما يذهب بإستبشاع ازهاقِ الروح في العقوبة ، ويُوَطِّنُ النفوس على قبول حكم المساواة ، إذ لم يُسَمِّ العقوبة قتلاً ، أو إعداماً ، بل سمّاها مساواة بين الناس ، تنطوي على حياةٍ سعيدةٍ لهم)([1])

ثم انظر كيف بيّنت هذه الآية على وجازتها حكمة القصاص بأسلوب لا يُمارى ، وعبارة لا تُحاكى.... ألا ترى كيف جعل الله تعالى القصاص وهو القتل حياة (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)...؟ ولذلك نُكِّرت كلمة " حياة " فلم يقل : الحياة ، إشعاراً بأن في هذا القصاص نوع من الحياة عظيماً لا يبلغه وصف .

ولكن كيف يكون القصاص حياة ، وهو قتلٌ للقاتل... ؟

الجواب :أنه إذا عَلم القاتل أنه سيُقتل ،فلا شك أنه سيمتنع عن القتل ، وهذا يصون النفس من القتل ، ويحمي القاتل ، فكأن القصاص حياة للنفسين ، وهذا يؤدي إلى إحياء **البشرية بأسرها**.

مقاصد وأغراض الأمثال القرآنية :-

عرفنا فيما سبق ، أن أمثال القرآن الكريم ، في الذروة العليا من الإعجاز البياني ، لأنها تُبرِزُ المعاني في صُوَرٍ مُحَسّة ، وَتُظهرها بإيجاز بليغ يأسِرُ العقول ، ويملكُ شغاف القلوب ، ويبعث في النفوس مشاعر الإعجاب ، وتدل بعمق على مواطن العظة والاعتبار وأغراض ضرب المثال في القرآن لا تنحصر ، لكنها ترد في جملتها الى مقصد واحد هو : بيان الحق الذي جاء به الرسول - ﷺ- لهداية الخلق ، ودعوتهم الى عبادة الله وحده ، والإنقياد لطاعته عز وجل .. وإذا كانت هذه الأغراض لا تنحصر ، فإننا بإمكاننا أن نذكر بعض أصولها بوجه عام ، وهي يندرج تحتها فروع ، بحسب من

---

[1]- انظر تفسير المنار. ج2/ ص107 .

ضُرِبَ له أو ضُرِبَ فيه المثل

الغرض الأول :

لتقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب وتصويره بصورة المحسوس القريب من الفهم ، كما ضرب الله سبحانه مثلا لحال المنفق رياءً ، حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب ، فقال تعالى : (فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ..) (البقرة : 264.) يعني : كالحجر الصلب اذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فتركه أملس عاريا .

الغرض الثاني : للترغيب في أمر ، بذكر محاسن ما يرغب فيه ، أو الترهيب من أمر بذكر مساوئ ما ينفر منه ، كما ضرب الله مثلا بحال المنفقين في سبيل الله ، حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير قال تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)(البقرة : 261 .) فهو سبحانه يضاعف الثواب أضعافا مضاعفة لمن يشاء بقدر علمه بإخلاص المنفق لوجه الله تبارك وتعالى)([1]) كما ضرب الله سبحانه مثلا للتنفير من أمر أو تحقيره ، حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس ، كقوله تعالى : (ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) (الحجرات : 12 .) فما أبشع أكل لحم إنسان ، وكم تكون البشاعة إذا كان ميتا ، ناهيك عن كونه شقيقاً .

الغرض الثالث :

الإقتناع بأمر من الأمور ، وهذا الإقناع قد يصل الى مستوى إقامة الحجة البرهانية ، وقد يقتصر على لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة ، قال تعالى : (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم ، قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)(يسن : 77– 79 .) فالأمثال ساقها الله في القرآن للناس لتوضيح لهم ما انبهم عليهم ، وتكشف الغامض أمامهم ، ، وتقنعهم بما يساق لهم من الدليل الواضح ، والبرهان الصحيح ، الناتج عن الموازنة الحسية ، أو المعنوية الدقيقة ، النى لا تدع مجالا لشك .

الغرض الرابع :

مدحُ من يستحق المدح ، وذمُّ من يستحق الذم ، بقصد التمييز بين المصلح والمفسد ، والمحسن والمسيء ، ليزداد المحسن إحسانا ، ويرعوي المسئ عن إساءته ، من ذلك ما ورد في ذم اليهود في قوله سبحانه : (مثل الذين حملوا التوراة

---

[1]– انظر: البرهان في علوم القرآن ، ج1: 488.

ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا)(الجمعة : 5) فتشبيه المثل لليهود وهم يحملون كتبا نفيسة ، جاء مطابقا لمقتضى ظروفهم التي يحيونها ، إذ ليس من شأن الحمار أن يستفيد بمضامين الكتب ، وليس له منها الا الثقل في الحَمل ، وكذلك اليهود حينما تبينوا صدق الرسالة ، بإنباء التواراة عنها ، ثم خلفوها وراء ظهورهم ، ولم يعملوا بما علموا ، فالحمار اذن أبلغ تشخيصا لهم . وفيه إشعار بالمهانة ، وتصريح بالتحقير ، في صورة بائسة مزرية ، وكيفية تجلب السخرية والاستهزاء .

الغرض الخامس :

ضرب الله الأمثال لما لها من وقع في النفس ، ولأنها أبلغ في الوعظ ، وأقوى في الزجر ، وأقوم في الإقناع ، قال تعالى :- (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ، ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم الا مبطلون) (**الروم : 58**) (أشار الله أنه لم يبق من جانب الرسول – صلى الله عليه وسلم – تقصير ، فإن طلبوا شيئا آخر فذلك عناء ، ومن هان عليه تكذيب دليل ، لا يصعب عليه تكذيب الدلائل)([1]) ولكن الله ألزمهم الحجة ، بأن ضرب لهم في القرآن من كل مثل ، قطعا لجدلهم ودفعاً لنوازعهم ، ولكنهم يُصرون جهلاً ، ويكيلونَ القول جزافا ، فيكذبون كل آية ، والكذب لا يحتاج الى دليل ، لأنه رغبة معيبة تصدرها دوافع نفسية مريضة ، والمغالطة لا تتطلب البرهان ، لأنها تزييف للوقائع بأساليب البهتان ، والجهل والعناد ([2]) .

---

[1]- انظر مفاتيح الغيب، (التفسير الكبير) :6/ 748 .

[2] – انظر : الأمثال القرآنية : ص 39–40 بتصرف . وانظر: الأمثال القرآنية ، دراسة تحليلية : ص 37–54. بتصرف . ودلالات الأمثال في القرآن الكريم ص: 5–10 .

المصادر والمراجع

1. – الأصلان في علوم القرآن ، د . محمد عبد المنعم القيعي ، : ط4 ، 1996م ، القاهرة .
2. الاتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة دار التراث ، القاهرة
3. إتقان البرهان في علوم القرآن ، أ . د. فضل حسن عباس ،: دار الفرقان ، ط1 ، عمان .
4. الإيضاح والتبيين في علوم القرآن الكريم ، د. سمير عبد العزيز : مطبعة الفجر الجديد ، القاهرة .
5. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : لأبي السعود بن محمد العمادي ، ط2 ، دار الفكر ، بيروت
6. آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره ، د. عمر ابن إبراهيم ،: دار طيبة للنشر ، الرياض .
7. أساس البلاغة : جار الله محمود الزمخشري ، كتاب الشعب ، دار مطابع الشعب ، مصر ، 1960م .
8. أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط في رحاب القرآن الكريم : علي أبو القاسم عون منشورات جامعة الفاتح ليبيا 1992 م.
9. – إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم : الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه ، المكتبة الثقافية ، بيروت .
10. أمالي ابن الشجري : هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني العلوي ، تحقيق ودراسة : د. محمود محمد الطناحي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .
11. – إمعان في أقسام القرآن : المعلم عبد الحميد الفراهي ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، 1349هـ .
12. – إملاء ما من به الرحمن في وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن : لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري ، على هامش(الفتوحات الإلهية)، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
13. أنوارالتنزيل وأسرار التأويل : القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي ، بهامش حاشية الشهاب الخفاجي ، دار صادر ، بيروت .
14. أيمان العرب في الجاهلية : أبو اسحاق بن عبد الله النجيرمي، تحقيق :محب الدين الخطيب ، ط2 ، الدار السلفية بالقاهرة
15. البحر المحيط : محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي ، مطبعة السعادة ، مصر ، 1329هـ .
16. البرهان في علوم القرآن محمد بن عبد الله، الزركشي ، (ت794هـ): علق عليه :د. مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت
17. البرهان في ترتيب سور القرآن ، ص 183 . محمد بن عبدوس ابن الزبير ، (ت708هـ) قامت وزارة الأوقاف المغربية بطبع الكتاب ،تحقيق محمد شعبان ، سنة 1990م .
18. البيان في مباحث من علوم القرآن ،لشيخنا عبد الوهاب غزلان ،: المكتبة الأزهرية ، القاهرة .

19. التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ، د .عودة خليل أبو عودة ، ط1، مكتبة المنار ، الزرقاء .
20. التبيان في أقسام القرآن : شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ، تصحيح محمد حامد الفقي ، ط1 ، مطبعةحجازي بالقاهرة ، سنة 1331م .
21. التعريفات : علي بن محمد الشريف الجرجاني ، مكتبة لبنان ، بيروت .
22. التفسير البياني للقرآن الكريم : د . عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ، ج1، ط7 ، دار المعارف ، القاهرة .
23. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري : (ت1283هـ) : مراجعة عبد الوهاب عبد اللطيف ، ط2 ، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .
24. تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) علاء الدين ابراهيم البغدادي الخازن: المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة
25. تفسير سورة النجم : دراسة تحليلية وموضوعية ، د. عبد ربه فرحات البدراوي ، دار الاسلام للطباعة والنشر ، المنصورة ، 1415 هـ - 1994م .
26. تفسير القرآن العظيم : أبو الفداء اسماعيل بن كثير ، ط المنار ، بالقاهرة ، سنة 1347هـ.
27. التفسير الكبير : (مفاتيح الغيب) : محمد فخر الدين الرازي ، ط3 ، دار إحياء التراث العربي بيروت .
28. التفسير الوسيط للقرآن الكريم : د. محمد السيد طنطاوي ، مطبعة السعادة ، القاهرة 1406 هـ - 1985م.
29. التفسير والمفسرون ، د.محمد حسين الذهبي ،: مطابع دار الكتاب العربي ، القاهرة
30. الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
31. جواهر البيان في تناسب سور القرآن ، عبد الله الصديق الغماري : ط2 ، 1986م ، عالم الكتب ، بيروت
32. الجملة المعترضة في القرآن مواضعها ودلالاتها ، د. سامي عطا حسن ، دار الفرقان ، عمان ، طذ ، 2112م.
33. حاشية الشهاب المسماة : عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي ، دار صادر ، بيروت .
34. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : شهاب الدين محمود الآلوسي ، دار الفكر ، بيروت.
35. الصحاح في اللغة والعلوم : تجديد صحاح الجوهري ، طباعة دار الحضارة العربية ، بيروت .
36. صحيح مسلم بشرح الإمام النووي : مؤسسة مناهل العرفان ، بيروت .
37. فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي(ت852هـ) : المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة
38. الفتوحات الإلهية ، بتوضيح تفسير الحلالين : سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة .

39. فصل الخطاب في سلامة القرآن الكريم ، د. أحمد السيد الكومي ،وزميله : ط2، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .
40. الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ، محمد بن أبي بكر ابن القيم ، (ت751هـ) : دار الكتب العلمية ، بيروت .
41. في ظلال القرآن ، قطب بن ابراهيم ، الشهيد سيد (ت 1387هـ): دار إحياء التراث العربي ، ط7 ، 1971م
42. القاموس المحيط : مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي ، ط2 ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، بمصر .
43. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : جار الله محمود الزمخشري ، ط1، دار الفكر ، بيروت .
44. الكشف والبيان في علوم القرآن ، د. سمير عبد العزيز شيلوة ، مطبعة دار البيان بمصر .
45. لسان العرب : جمال الدين محمد (ابن منظور) ، عني بتصحيحها أمين محمد عبدالوهاب وزميله ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
46. لغة القرآن الكريم : د. عبد الجليل عبد الرحيم ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان ، ط1، 1981م
47. مباحث إسلامية ، للعلامةطه الراوي ، جمع تحقيق حارث طه الراوي ، مطبعة أسعد ، بغداد ، 1982م .
48. مباحث في علوم القرآن : د. صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط6 ، 1985م.
49. مباحث في علوم القرآن : مناع القطان ، ط3 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
50. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها : لأبي الفتح عثمان بن جني، (الجزءالأول) تحقيق علي النجدي ناصف ، وعبد الحليم النجار ، وعبد الفتاح شلبي ، القاهرة ، 1386هـ، و(الجزء الثاني) : تحقيق علي النجدي ناصف ، وعبد الفتاح شلبي ، القاهرة ، سنة 1389هـ .
51. مختار الصحاح : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، عني بترتيبه محمود خاطر بك ، المطبعة الأميرية ، بالقاهرة ، سنة 1340هـ - 1922م .
52. معجم مقاييس اللغة ، أحمد ابن فارس ، (ت395هـ) دار الجيل ، بيروت .
53. المستدرك على الصحيحين ، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، (ت 405هـ) ، دار الفكر ، بيروت
54. معاني القرآن : لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء ، (الجزء الأول) : تحقيق أحمد يوسف نجاتي ، وزميله ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2 ، 1980م. و(الثاني والثالث) عالم الكتب ، ببيروت ط2 ، سنة 1980 م .
55. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : جمال الدين بن هشام الأنصاري ، تحقيق مازن المبارك وزملاؤه ، ط6 ، دار الفكر ، بيروت .

56. المفسر ، شروطه ، آدابه ، مصادره : د. أحمد قشيري سهيل ، مكتبة الرشد ، ط1، 2008م الرياض .

57. مفاتيح الغيب ، فخر الدين محمد بن عمر الرازي ، (ت 606هـ) : دار الفكر ، بيروت ، ط3

58. مفردات ألفاظ القرآن : الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني ، تحقيق صفوان عدنان داوودي ، ط1 ، سنة 1416 هـ- 1996 م . بيروت .

59. مناهل العرفان ، محمد عبد العظيم الزرقاني ، : دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة

60. المناسبات في ترتيب آيات القرآن وسوره ، د. محمد أحمد يوسف القاسم ، : مكتبة كلية أصول الدين ، جامعة الأزهر .

61. من بلاغة القرآن : أحمد أحمد بدوي ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ،1950م، ص 170 .

62. النبأ العظيم ، د. محمد عبد الله دراز: ص 158-159 . ط3 ، دار القلم ، الكويت 1988م .

63. منهج الفرقان في علوم القرآن ، محمد علي سلامة: مطبعة شبرا ، 1937م

64. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ابراهيم بن عمر البقاعي : (885هـ) : ط2 ، دار الكتاب الاسلامي ، القاهرة

65. نظرات في إعجاز القرآن الكريم : د. سامي عطا حسن ، عماد الدين للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2112م ، عمان .